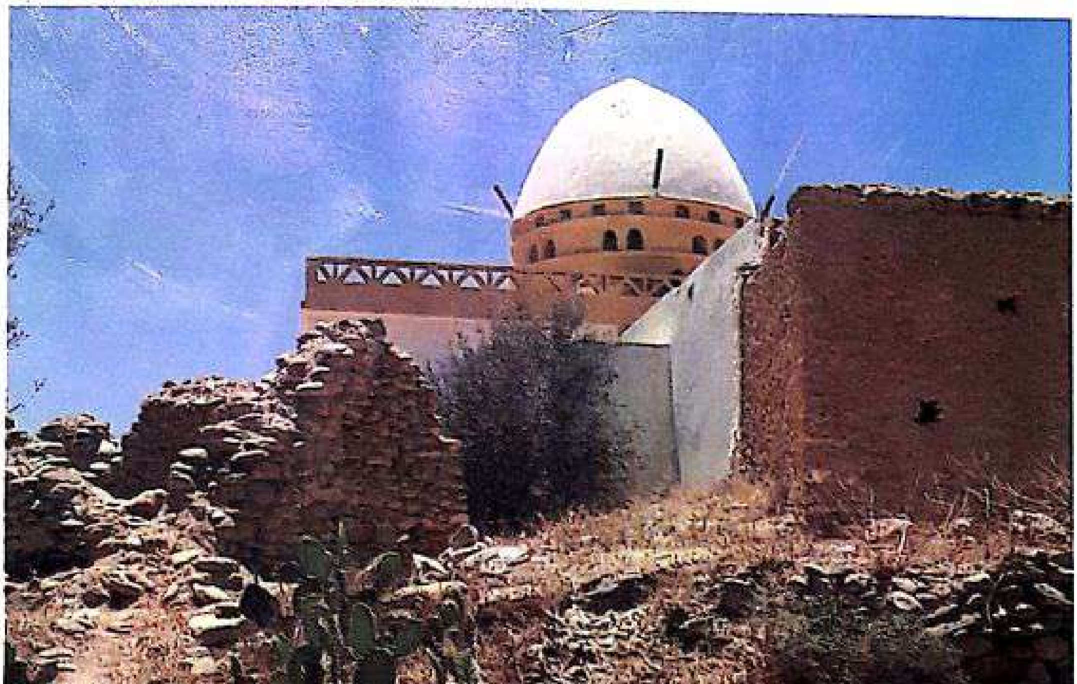
فصول منسية من تاريخ المغرب

إمارة بني صالح في بلاد نكور

الأصول التاريخية وبواكير ا[illegible]ضاري والعمراني بالغرب الإسلامي



أحمد الطاهري

حسن بودوح
إلى الأخ الأكرم مع تحياتي
الودية
أحمد الطاهري

فصول منسية من تاريخ المغرب

إمارة بني صالح
في بلاد نكور

الأصول التاريخية وبواكير النمو الحضاري والعمراني بالغرب الإسلامي

أحمد الطاهري

مقدمة

تشمل بلاد نكور مجموع المناطق الممتدة على طول الساحل المتوسطي ابتداء من التخوم الشرقية لمصب وادي ملوية الى الاحواز المشرفة على تكيساس غربا مسيرة عشرة ايام (انظر خريطة رقم 1 الملحقة) . وتتعمق في الداخل عبر منتجعات قبائل مكناسة الى حيز مطماطة امكسور ، فيما اصطلح على تسميته في المصادر الجغرافية القديمة بريف العدوة . وتشكل نفزة بفروعها المختلفة (بني يصليتن وبني ورياغل وكزناية وغيرها) المجموعة القبلية المحورية التي تمكنت من الحاق صنهاجة مفتاح البرنسية وغمارة المصمودية ومكناسة الزناتية فضلا عن زناتة اهل تابريدا في اول كيان غير مفارق ضمن نظام الخلافة ، مقدمة بذلك نموذجا فريدا في اقدم شكل للانتظام الاقليمي بالغرب الاسلامي .

ومما يثير الانتباه انها لم تخضع - على عكس ما هو شائع - لاية عمليات عسكرية في اطار حملات الفتح ، اذ اندمجت منذ البدء اختيارا في دار الاسلام ليترسخ دورها كاول منار للاسلام بالمغرب الاقصى . لم يتوقف دور نكور عند هذا الحد ، بل سرعان ما انخرطت في رسم آفاق رحبة للحضارة الجديدة في الضفة الاخرى بالجزيرة الاندلسية ، كما يتضح من خلال اسناد عمليات الفتح لاحد مشاهير ابنائها ، ويتعلق الامر بطارق بن زياد النفزي الذي لم تفلح الدراسات المعاصرة الى اليوم في تاصيل انتسابه بالمنطقة .

وبصرف النظر عن تمسامان وبدكون وايذي وغيرها من التجمعات الشبه الحضرية الموروثة عن العصر السابق للاسلام ، تعتبر نكور اول واقدم حاضرة اسلامية انشئت ببلاد المغرب ، لتنضاف اليها بعدئذ مدن المزمة وبادس فضلا عن جملة من المراسي، في اكثف

حركة للعمران الحضري بالغرب الاسلامي . ولا تقل القرى والحصون والقلاع اهمية في صياغة الطبوغرافية المحلية ، نذكر فضلا عن قرية الصقالبة وحصن مسطاسة ، قلعتي اكرى وتسفت واخيرا قلعة كرط التي بنيت لاحقا على الطراز الاندلسي وفقا لطابع عصر الخلافة المعماري .

ومما يدعو الى الانتباه ايضا ان عبد الرحمن بن معاوية الداخل الهارب من بطش العباسيين قد لاذ بتمسامان حيث تم التدبير طوال السنين التي قضاها مقيما في كنف بني صالح لقيام الامارة الاموية بالاندلس وحبك خيوط اعلانها وترتيب عملية الانزال البحري بمرسى المنكب .

لم يكن دور نكور اقل فعالية في التخفيف من غلواء الخوارج الصفرية والحد من نشاط الحركة العلوية الزيدية والوقوف في وجه التيار الواصلي طوال قرن من الاضطراب السياسي والمذهبي الذي عم على اثر الفتوحات الاسلامية مجموع البلاد المغربية . الا ان مكانتها في ترسيخ اصول المذهب المالكي بالمغرب الاقصى والانتصار للسنة والجماعة قد تجلت لاحقا بوقوف نكور سدا منيعا في وجه التشيع الفاطمي الذي لم يفلح في اختراق المنطقة . لم تكن الخلافة الاموية على اثر اعلانها بقرطبة - رغم التوافق المذهبي - اقل طمعا في بسط نفوذها بالمغرب الاقصى فتحركت في اكبر حملة بحرية بالاسطول فحلت بمرسى نكور في سياق مخطط واسع النطاق لتحويل الثقل الحضاري على راس القرن الرابع الهجري جملة نحو البلاد الاندلسية .

ولا اخفي ان الحفريات التي باشرتها في متون جملة من اوثق المصادر العربية قد اسفرت عن مفاجآت غير منتظرة فيما يتعلق بالبواكير المؤصلة لجذور الثقافة المغربية الاندلسية ، اذ تبلورت بادئ ذي بدء بنكور في مجالات الفقه والاحكام والوثائق والشروط وفي اللغة والشعر والموسيقى والآداب وفي علوم الحساب والفرائض والفلاحة ، فضلا عن الترسيل السلطاني المرتبط باول مدرسة لديوان الكتابة والانشاء بالغرب الاسلامي .

وسواء فيما يتعلق بالعمران الفلاحي ووضعية الارض او فيما يخص شبكة المواصلات البرية والبحرية مع ما ارتبط بذلك من انشطة حرفية وتثمير تجاري، امكن الكشف عن

جملة من البصمات الدالة على البذور الحضارية التي تم نثرها في اكثر من مستوى ببلاد نكور وعن آثار اللبنات الاولى التي وضعت بهدف هيكلة وتنظيم اشكال من المعاملات ، ان محليا او على صعيد عموم الحوض الغربي للمتوسط .

ويخيل الينا انه قد تم الوقوف اخيرا على بعض المفاتيح الكفيلة بفك الغاز التشابك القبلي الذي كان وراء عدد من المزالق في التفسير والتاويل لدى القدامى والمحدثين على السواء. ولا تقل اهمية المفاصل المتداخلة في تقاطع افقي مع المكونات العرقية والطبقية للخاصة والاكفاء والعامة في القاء اضواء كاشفة على خصائص البنيان الاجتماعي بالمنطقة خلال الفترة موضوع الدرس . وتقدم نكور حقلا تاريخيا غير منتظر لمعاينة تعاظم دور العامة من الحرفيين والباعة في ارتباط متلازم بدرجات ما تحقق من نمو حضري، كاشفة في سابقة مثيرة للانتباه عن تجرد العامة للاستمساك بنظام الجماعة ودعمهم للسلطان في مواجهة تجاوزات ارباب الدواوين ومتنفذي الجند .

ورغم ما لبلاد نكور من دور في صياغة فصول من تاريخ الغرب الاسلامي ، سواء على مستوى الفعل الحضاري او فيما يتعلق بماجريات التاريخ السياسي والمذهبي ، فالملاحظ ان القدامى والمحدثين قد احجموا عن التاريخ لها اهمالا او بدعوى شح المادة التاريخية ، فيما يشبه مؤامرة صمت يمكن الرجوع باصولها الى القرن الرابع الهجري ايام احتدام التنافس والصراع الاموي الفاطمي للهيمنة على بلاد المغرب . بلغ الجهل بتاريخ نكور ان اختلط الامر على احد المستشرقين [1] الذي عمد الى نسب شجرة امراء نكور خطا باعتبارهم من بني عاصم حكام سبتة حسب ما تم اثباته ضمن معجمه الشهير المخصص للانساب والاسر الحاكمة في التاريخ الاسلامي .

تجدنا اذا - ولاول مرة فيما نعلم - بصدد بناء وتركيب احدى الحلقات المبتورة من تاريخ المغرب على مدار ما ينيف عن ثلاثة قرون من الزمن فيما اصطلح على تسميته من طرف رواد المدرسة التاريخية الاروبية بالقرون المظلمة .

حقيقة ان المؤرخ الاسباني اسيذرو ذي لاس كاجيكاس قد خصص منذ بداية

1 - ادوارد فون زمباور ، معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي ، ترجمة زكي محمد حسن بك / حسن احمد محمود ، بيروت 1980 ، 112 .

الخمسينات من هذا القرن كتيبا من ثمان وستين صفحة لتاريخ بني صالح في نكور. وبعدئذ بحوالي ثلاث سنين نشر احمد بن عبد السلام البوعياشي كتيبا مماثلا في ثلاث وخمسين صفحة عن تاريخ الريف بعد الفتح الاسلامي . وقبل ذلك بحوالي ثلاثة عقود من الزمن عمد المؤرخ الفرنسي ميشو بيلير الى تناول بعض الجوانب من تاريخ الريف وجبالة في بحث مستقل. واخيرا صدر فصل مقتضب للباحث الاسباني كييرمو كوصالبيس بوستو عن مملكة نكور خلال العصر الوسيط ضمن كتاب مباحث في تاريخ المغرب خلال العصر الوسيط. ولم يغفل المؤرخ المصري مصطفى ابو ضيف احمد التعرض لما اسماه بالمملكة الحميرية ببلاد الريف في فصل ضمن كتابه عن اثر القبائل العربية في الحياة المغربية.

وبصرف النظرعن بعض المقالات القليلة التي تناولت باقتضاب شديد زوايا من تاريخ البلد مثل عمل جاك كاني حول امارة نكور خلال القرن الخامس الهجري، لم يتجاوز الرواد وجمهرة الباحثين المتاخرين في احسن الحالات الاشارة بعجالة للموضوع في سياق تاريخ المغرب العام . وسواء على المستوى الترثيقي او فيما يتعلق بالتحضير لما اجري لحد الآن من استبارات اثرية بالمنطقة ، فمن الملاحظ ان الامرلدى الدارسين - عرب ومستشرقين - قد اقتصرقديما وحديثا على ترديد مقتطفات من النص الشهير الذي احتفظ به البكري ضمن مسالكه ، فيما يشبه اسطوانة متكررة، لم تسعف المادة التاريخية المستقاة من اعمال اعلام ابن الخطيب ومن عبر ابن خلدون ولا النتف المستخرجة من بعض المصنفات الجغرافية في تجاوز حدودها .

ولدينا فيما اثبته شيخ المؤرخين الاندلسيين ابو مروان بن حيان من عبارات الشتم والتنقيص من شان «صاحب نكور قبحه الله»[2] حسبما ورد في ثنايا مقتبسه او في نعت اهل نكور بـ«الفاسقين»[3] ما يكشف عن عمق الاصول التاريخية لمؤامرة الصمت السالفة الذكر. ولعل في وسمهم من طرف هذا المؤرخ بـ«اعداء الدولة»[4] على ما اشتهر به من حياد وموضوعية ، ما يفصح عن تغير جذري في موقف الاندلسيين الذي غدا معاديا على طول

2 - كتاب المقتبس ، ج 5 ، تحقيق ب. شالميتا/ف. كورينطي / م. صبح/مدريد 1979 ، 372 .
3 - نفسه ، 413 .
4 - نفسه ، 382 .

الخط لامارة نكور التي لم يعد لها في نظرهم حسبما يقتضيه الوضع الجديد من مبرر للاستمرار بعد اعلان الخلافة بقرطبة . وما في اقدام عبد الرحمن الناصر على احتلال سبتة ومليلة وتعميرهما والايعاز لحليفه موسى بن ابي العافية بتخريب حاضرة نكور التي غدت بلاقع تسفي فيها الرياح وتعوي فيها الذئاب الا مقدمات لتهميشها واتلاف مناقبها ومحو آثارها من الذاكرة. لم يكن الشيعة العبيديون اقل عداء لهذه الامارة التي ناشبتهم الحرب كما هو معلوم وسدت في وجوههم المنافذ السالكة الى المغرب الاقصى .

حقيقة ان الصفحات العشر التي اثبتها البكري في مسالكه نقلا عن كتاب محمد بن يوسف الوراق التاريخي الذي الفه في اخبار نكور لخليفة قرطبة الحكم المستنصر تعتبر اهم ما وصلنا عن تاريخ البلاد . ومن المعلوم ان هذا الخليفة الذي قل نظيره فيما يتعلق برعاية الثقافة والعلوم قد تجرد في اكثر من حقل معرفي لانتشال جملة من الاغلاق من طي النسيان كما بينا ذلك بتفصيل في اعمال سابقة . والراجح ان البكري قد عمد في نقوله الى اجراء تلخيص مركز في المصدر الاصلي المعتمد حتى تنسجم حجما مع موضوع كتابه .

وتشكل رواية ابن عذاري المراكشي المثبتة في بيانه ثاني اشهر النصوص المتداولة في الموضوع، الا انها لاتقدم اي جديد باعتبارها مجرد تلخيص ثان للنص المذكور. اما رواية ابن خلدون التي تتناول الخبر عن بني صالح بن منصور ملوك نكور ودولتهم وتصاريف احوالهم على حد تعبيره فتتضمن بعض الاضافات التي استقاها من كتاب المقباس الذي وضعه مؤرخ مغربي من اهل القرن السادس الهجري وهو ابو مروان عبد الملك بن موسى الموسوم هو ايضا بالوراق .

لم يكن ابن الخطيب ليغفل ذكر بعض المقتطفات في رابع نص عن تاريخ نكور ضمن كتابه اعمال الاعلام ، مع ما شاب مقاطعه من خلل في سرد الاحداث وتجاوزات في النقل . بذلك تبقى اشارة اليعقوبي المقتضبة اقدم ما وصلنا عن امارة بني صالح في رواية تتضمن معلومات فريدة لم نقف لها على اثر في متون المصادر اللاحقة .

من الواضح ان جملة هذه النصوص لا تسعف في بناء حوليات تاريخ بلاد نكور بدءا من التاسيس خلال مرحلة الفتح الى غاية خراب الحاضرة خلال نهايات القرن الخامس

الهجري ، فبالاحرى التجرد لمعالجة تاريخها الحضاري المرتبط بمختلف مستويات العمران فضلا عن قضايا الفكر والثقافة والمجتمع في دراسة متكاملة . ومن المعلوم ان المخلفات الاثرية سواء بموقع حاضرة نكور او في الحيز الذي شغلته مدينة المزمة قد تعرض مرارا لمصير مؤلم. من ثم التعويل على اجراء قراءات واسعة في متون حشد من المصادر المغربية الاندلسية والمشرقية التي قد تجود حينا ولا تجود في معظم الاحيان بنتف متناثرة، دون اغفال جملة من الدراسات التاريخية ونتائج ما تم استخلاصه من عمليات السبر الاثري التي تعاقبت بالمنطقة منذ منتصف القرن الحالي الى اليوم . وهو العمل المضني الذي شرعنا في مباشرته موازاة مع اعمال اخرى منذ حوالي عقد من الزمن .

فبالاضافة لمقتبس ابن حيان في قطعه المختلفة ومجلدات كتاب العبر لابن خلدون وبيان ابن عذاري ونفح وازهار المقري واحاطة ابن الخطيب وذخيرة ابن بسام، اسرفنا في فحص جملة من كتب ونصوص الفتح المشرقية والمغربية وفي تتبع محتويات انيس ابن ابي زرع ومعجب المراكشي وتاريخ الرقيق القيرواني . ولم نغفل مع ذلك المصنفات المتاخرة في تاريخ المغرب مثل ترجمانة الزياني واستقصا الناصري اضافة لجملة من التواريخ المشرقية كتاريخ الطبري ومروج المسعودي وعبر الحافظ الذهبي وارب النويري . ومن تواريخ الشيعة نذكرافتتاح الدعوة للقاضي النعمان واخبار ملوك بني عبيد لابن حماد.

وتقدم كتب المسالك والممالك والمعاجم الجغرافية حقلا معرفيا متميزا لاقتناص الاشارات الاخبارية وتقدير حجم المواقع العمرانية الحضرية والقروية وذكر المسافات والقبائل والجماعات وغير ذلك مما يتعلق بالتجارة والمواصلات . وتحتل مصنفات ابن حوقل والمقدسي وابن خرداذبه والاصطخري مكانة متميزة ضمن اقدم المصادر المعتمدة في هذا العمل .

ولاتقل المكتبة الجغرافية المغربية الاندلسية اهمية . نخص منها بالذكر كتاب الاستبصار في عجائب الامصار لمجهول ونزهة المشتاق للشريف الادريسي وترصيع الاخبار للعذري والروض المعطار لمحمد بن عبد المنعم الحميري وبسط الارض لابن سعيد وذكر الاقاليم لابن الزيات وتحفة الالباب لابي حامد الغرناطي وجغرافية الزهري .

ولا يخلو معجم البلدان لياقوت الحموي ومختصر ابن الفقيه الهمذاني ونزهة الانظار لمقديش من اشارات مفيدة . ينطبق نفس الشيء على الكتب المتاخرة مثل وصف افريقيا للحسن الوزان وكتاب افريقيا لكربخال وغيرهما .

ولم نذخر جهدا في استقصاء متون فيض من كتب التراجم والطبقات التي لا تخفى قيمتها فيما يتعلق بالتاريخ الاجتماعي والثقافي والمذهبي بل وكذا - وان في حدود اضيق - بالتاريخ العمراني . وتشكل المصادر الاندلسية الجزء الاوفر والاكثر افادة من ضمن الكتب المعتمدة . نذكر منها تاريخ علماء الاندلس لابن الفرضي وجذوة الحميدي وبغية الضبي وقلائد ابن خاقان والحلة السيراء فضلا عن معجم ابن الابار.

ومن المصنفات المعتمدة كتاب الذيل والتكملة لعبد الملك المراكشي وترتيب المدارك والغنية للقاضي عياض والديباج المذهب لابن فرحون فضلا عن التراجم المشرقية التي احتفظت باشارات في غاية الاهمية مثل كتاب المقفى الكبير للمقريزي وبغية الوعاة للسيوطي ، ناهيك عما ورد في وفيات الاعيان لابن خلكان وانباه الرواة للقفطي من افادات اقل اهمية . ولم نغفل مع ذلك الرجوع الى جملة من التراجم المغربية المتاخرة التي احتفظت بنصوص قديمة مثل جذوة الاقتباس لابن القاضي والاعلام للعباس بن ابراهيم .

ولقد تم استكمال الثغرات المرتبطة بالجوانب المذهبية في تاريخ نكور من خلال الرجوع لكتب الملل والنحل الاندلسية والمشرقية مثل فصل ابن حزم وملل الشهرستاني ومقالات كل من البلخي والقاضي ابن عبد الجبار . كما تمت الاستعانة بجملة من كتب الانساب في لم القضايا المرتبطة بالوضع الاجتماعي ، نذكر منها في مقام اول وفضلا عن مضامين تاريخ ابن خلدون كتاب الجمهرة لابن حزم . وثمة اشارات لا تخلو من اهمية وردت لدى مجهول في كتابه مفاخر البربر ولدى ابن عبد البر النمري في كتابه القصد والامم وفي قلائد الجمان للقلقشندي ولب الالباب للسيوطي وفي انساب الشناوي.

ولم نذخر جهدا في استقصاء متون جملة من كتب الآداب واللغة ولحن العوام والنظر في محتويات النوازل والشروط وفي المواريث والوثائق والاحكام، وكذا في ثنايا بعض المصنفات الموضوعة في الحكمة والسياسة والتنجيم وفي الفلاحة والنبات ، وفي الموازين

والاكابيل الي غير ذلك من اصناف التاليف . وفي تقديرنا مع ذلك ، ان البحث التاريخ
المعاصر لم يستوعب بعد التنقيب المتعدد المستويات في محتويات المكتبة المغرب
الاندلسية بعمقها العربي، خصوصا في قسمها المخطوط الذي لم يخضع بعد لعناية الفهر
المتخصصة.

ولعل في النتائج المستخلصة ما يدعو الى التوقف عن السير في ركاب الدعوا
التي ضجت بالتنظير للقرون المظلمة والتذرع بشح المادة التاريخية في تبرير اغفال التار
لفصول واسعة من تاريخ المغرب . ومن جهة اخرى ارجو ان نتمكن في القريب العاجل م
وضع نتائج هذا البحث موضع اختبار اركيولوجي بواسطة برنامج للمعاينة الميدانية وعمليا
نموذجية للسبر الاثري بمجموع المنطقة حسبما تقتضيه الخرائط الاثرية المرفقة.

غاية المنى ان نكون بهذا العمل قد تمكننا من انتشال احدى الحلقات المحورية في
تاريخ المغرب الوسيط من طي النسيان . والله اسال العون على الاستمرار في السير قدم
لاستكمال البحث في حلقات اخرى .

وبالله التوفيق

احمد الطاهري

الخميس 26 جمادى الاولى 1419

موافق 17 شتنبر 1998

الباب الأول

حوليات التطور التاريخي

من النشأة الى السقوط

الملك في أعوام إحدى وتسعين من الهجرة" ، مما يكشف عن مباشرة الإنتظام الاقليمي المشروط في إطار علاقة الإقطاع بين نكور ودمشق منذ هذا التاريخ المبكر.

ولعل في قول شيخ المؤرخين أبي مروان بن حيان[6] "أن بلد البربر...لقوم ملكوا أنفسهم من زمن عمر بن عبد العزيز" ، ما يؤكد صحة هذا التحليل . ويبدو أن هذه النتيجة تمخضت عن مجهود لا يستهان به ، بذل خلال "الإفتتاح الأول قبل موسى بن نصير"[7]، منذ عمليات "البعث الأول"[8]، طوال ما ينيف عن عقدين من الزمن.[9] ولقد كان أحد المؤرخين المغاربة المتأخرين[10] أكثر دقة في ضبط تاريخ تأسيس إمارة نكور بولاية "حسان بن النعمان الغساني أمير عبد الملك بن مروان بافريقية".

والملاحظ أن معظم الدراسات المعاصرة التي تعرضت للموضوع[11] تذكر أن عملية التأسيس قد تمت بواسطة غزو عسكري قامت به فرق يمنية حميرية في الجيش العربي الفاتح ولم يتردد البعض[12] عن الإقرار بأن"جند اليمن بقيادة صالح تمكنوا من الإستيلاء على بلاد النكور". والجدير بالملاحظة أن المصادر المتداولة لا تتحدث عن أية سيطرة من هذا القبيل

---

6 - المصدر السابق ، 292 . ومن المعلوم أن عمر بن عبد العزيز قد تولى الخلافة فيما بين سنتي 99 و 101 هجرية ، أنظر: الطبري ، المصدر السابق ، ج 4 ، 59 و 67 .

7- مجهول ، كتاب الاستبصار ، 136 أنظر كذلك الحميري ، المصدر السابق ، 134 .

8 - ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، 283 .

9- علما بأن أول اتصال للفاتحين بالمنطقة حدث في ولاية عقبة بن نافع الثانية خلال الستينات من القرن الأول الهجري . أنظر: الرقيق القيرواني ، تاريخ افريقية والمغرب ، تحقيق عبد الله العلي الزيدان - عز الدين موسى ، بيروت 1990 ، 14 .

10- الزياني ، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا ، تحقيق عبد الكريم الفلالي ، المحمدية 1967 ، 79. ذكر ابن عبد الحكم أن حسان بن النعمان قدم واليا على المغرب من قبل عبد الملك بن مروان سنة 73 هجرية ، فتوح افريقية والاندلس، تحقيق عبد الله انيس الطباع ، بيروت 1964.

11- انظر على سبيل المثال : البوعياشي ، الريف بعد الفتح الإسلامي ، تطوان 1954 . راجع كذلك صباح ابراهيم الشخيلي ، العرب الأوائل في بلاد المغرب الأقصى ، المجلة التونسية للعلوم الإجتماعية ، عدد 82 -83 ، السنة 22 ، 1985، 14 .

12- انظر: مصطفى ابو ضيف أحمد ، أثر القبائل العربية فى الحياة المغربية ، الدار البيضاء 1986 ، 240 .

ولا عن تفاصيل العمليات التي أدت الى إخضاع المنطقة عسكريا ، مما يكشف عن الطابعالإفتراضي[13] التأملي[14] لمختلف هذه التصورات .

من المعلوم أن منطقة الريف الواقعة بشمال المغرب الأقصى، كانت في إطار التقسيم الإداري الموروث عن العهد السابق للإسلام تدخل ضمن بلاد طنجة[15]، وهو التنظيم الذي استمر حسب كل المؤشرات قائما بعد الفتح ، في ظل الإدارة الأموية . يتجلى ذلك بوضوح من خلال الحوليات التاريخية وكتب المغازي التي دأبت على تمييز بلاد "طنجة وما والاها"[16] عن بلاد "السوس الأدنى"[17] ذات الطبيعة السهلية والواقعة في اتجاه الجنوب ، "وهي بلاد تامسنا وهي بلاد المصامدة" ، حسب تحديد صاحب البيان[18] . ومن المفيد التمييز بهذا الخصوص بين ثلاثة مستويات : طنجة المدينة الـ"موسومة بالقدم"[19] ، ولقد تواتر ذكرها في

13 - ذكرت صباح إبراهيم الشخيلي : أننا " نستطيع أن نفترض أن القوة العسكرية العربية التي دخلت منطقة الريف بقيادة صالح الحميري لا زالت محتفظة بقابليتها..." المرجع السابق ، 15 .

14- ذكر مصطفى ابو ضيف أحمد في سياق تحليله لما أورده ابن خلدون بهذا الخصوص انه " يفهم من النص أن جند اليمن ..." الخ ، المرجع السابق ،241 .

15- ذكر البكري أن " اسم طنجة موريطانية ، وعرضها من البحر الى الرمال التي هي أول بلاد السودان" ، المصدر السابق ، 21 .

16- ابن عذاري ، المصدر السابق، ج1 ، 51 .

17 - نفسه ، ج 1 ، 26 . يضيف الرقيق القيرواني ، المصدر السابق ، 14 ان «السوس الادنى وهو مغرب مدينة طنجة التي تسمى تارودانت» . انظر كذلك النويري ، نهاية الارب ، تحقيق مصطفى ابو ضيف احمد ، البيضاء 1985 ، 192 . والى الجنوب من السوس الادنى يقع السوس الاقصى الذي كثيرا ما ورد بهذا النعت في حوليات الفتح الاسلامي . انظر: ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج1 ، 26 . ولقد ذكر غيره ان «السوس الادنى وهي بلاد درعةالى بلاد تلمسان» . انظر: نص جديد في فتح العرب للمغرب لعبيد الله ، تحقيق ليفي بروفنسال ، مجلة المعهد المصري للدراسات الاسلامية ، م 2 ، السفر 1-2 ، مدريد 1954، 219 .

18 - المصدر السابق ، ج 1 ، 26 .

19 - الزهري ، كتاب الجغرافية ، تحقيق محمد حاج صادق ، مصر ، بدون تاريخ ، 113 .

عدد من المصنفات التاريخية والمعاجم الجغرافية[20]، وخصها ابن الجزار القيرواني[21] بالقول : إنه ليس بعد مكة - شرفها الله - أقدم منها"، و "كورة طنجة"[22] التي تشمل منطقة "الهبط بطريق الساحل مما يلي سبتة"[23] ، وأخيرا عملها الذي يمتد على طول بلاد الريف "مسيرة شهر"[24].

وعلى الرغم مما قيل عن إسناد ولاية بلاد المغرب" من أطراف إقليم مصر الى طنجة"[25] لمسلمة بن مخلد منذ سنة خمس وخمسين للهجرة ، باعتباره "أول من جمع له المغرب كله"[26] يبدو أن أول اتصال حقيقي للفاتحين بعمل طنجة[27] حدث خلال ولاية عقبة بن نافع الثانية ابتداء من سنة اثنتين وستين هجرية . وهو ما أكده أحدهم[28] بالقول : إن "عقبة بن نافع أول من دخله من عمال المسلمين من هذه الأمة".

والجدير بالملاحظة أن الحوليات التاريخية[29] التي أرخت لهذا الإتصال تكشف - كما هو معروف - عن الإتفاق على "الصلح والمسالمة" - الذي تم بين يليان صاحب طنجة وعقبة بن نافع ، الذي لم يتردد عن تحويل المجهود العسكري الرئيسي لحملته في المغرب الأقصى

---

20 - انظر على سبيل المثال : ابن الفقيه الهمذاني، مختصر كتاب البلدان ، ليدن 1967 ، 65 . الإدريسي ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، نابولي ، القسم 5 ، 1975 ، 527 .

21 - انظر : الزهري ، المصدر السابق ، 113 .

22 - البكري ، المصدر السابق ، 104 . انظر كذلك : ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج1 ، 26 .

23 - ابن عذاري ، نفس المصدر والصفحة . وهي المنطقة التي يسميها البكري " قنبانية طنجة" المصدر السابق ، 108 وذلك على غرار " قنبانية قرطبة" أي بسيطها المعروف قبالتها ، حسب التسمية الأندلسية .

24 - نفس المصدر والصفحة. انظر كذلك: البكري ، المصدر السابق ، 109 إذ أن ابن عذاري يعمد إلى نقل هذا النص حرفيا عن ابي عبيد الله البكري .

25 - ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج 1 ، 21 .

26 - نفس المصدر والصفحة. انظر كذلك ابن عبد الحكم ، المصدر السابق ، 55 .

27 - ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج1 ، 21 .

28 - عبيد الله ، المصدر السابق ، 219 .

29 - ابن عذاري ، المصدر السابق ،ج1 ، 26 . انظر كذلك النويري ، المصدر السابق ، 192 . لمزيد من التفاصيل عن الصلح الذي تم مع يليان ، انظر: البكري ، المصدر السابق ، 104 . وعبيد الله ، المصدر السابق ، 219 .

نحو الجنوب[30] . ولعل في اقتصار ابن عبد الحكم[31] في ذكره لهذه الحملة على القول: انه " غزا...الى السوس" ، ما يكشف عن تلافيه غزو بلاد طنجة وما والاها من بلاد الريف . نجد تأكيد ذلك في تتبع العمليات العسكرية لجيوش الفتح التي توقفت - على ما يبدو - بتيهرت واحوازها[32] ، لتستمر بعدئذ انطلاقا من وليلي[33] في اتجاه السوس الأدنى[34] بمعنى أن بلاد نكور لم تخضع لاية عمليات عسكرية خلال هذه الحقبة التاريخية .

وليس ادل على صحة ما نذهب اليه من اقرار الواقدي[35] في نص كاشف عن هذه الحقيقة ، اذ قال : بان موسى بن نصير هو الذي «فتح طنجة ونزلها ، وهو اول من نزلها واختط فيها للمسلمين» . تم ذلك لاحقا في خلافة الوليد بن عبد الملك سنة تسع وثمانين للهجرة ، قبيل الشروع في فتح الاندلس . ومن المفيد التذكير بان الوليد بن عبد الملك عندما «وجه لافريقية موسى بن نصير واوصاه ان لا يعزل ادريس بن صالح لعدله ويتركه على رايه ويتوجه هو الى اقصى المغرب»[36] . مما يفصح بما لا يدع مجالا للشك ان بلاد نكور لم تخضع لاية عمليات عسكرية طوال مدة الفتح التي استغرقت كما هو معلوم حوالي نصف قرن من الزمن .

ومن المعلوم أن سياسة الوالي عقبة بن نافع الفهري في بلاد المغرب قد تأرجحت بين استخدام القوة بواسطة الحملات العسكرية والاهتمام بالأساليب الحضارية . فمنذ البداية أقدم كما هو معروف على بناء "مسجد القيروان"[37] ليكون بمثابة منبر للإشعاع الثقافي

30- انظر النويري ، المصدر السابق ، 192؛ وابن عذاري ، المصدر السابق ، ج1 ، 26-27 .

31- المصدر السابق ، 58 .

32- انظر : الرقيق القيرواني ، المصدر السابق ، 12 -13؛ وابن عذاري المراكشي ، المصدر السابق ، ج1 ، 25 .

33- البكري ، المصدر السابق ، 108؛ عبيد الله ، المصدر السابق ، 219 .

34- الرقيق القيرواني ، المصدر السابق ، 22. لمزيد من التفاصيل انظر صفحة ، 23 وكذلك عبيد الله ، المصدر السابق ، 220 .

35 – انظر : البلاذري ، فتوح البلدان ، مراجعة وتعليق رضوان محمد رضوان ، بيروت 1983 ، 232 .

36- الزياني ، المصدر السابق ، 81 .

37- البكري ، المصدر السابق ، 22 – 23 انظر كذلك ، عبيد الله ، المصدر السابق ، 220 .

والديني ، كما اصطحب معه "في عسكره ثمانية عشر رجلا من أصحاب رسول الله"[38] خلال ولايته الأولى ، ناهيك عن "خمسة وعشرين "[39] آخرين ممن رافقوه لاحقا خلال ولايته الثانية ولعل في تصريحه لدى دخوله القيروان ثانية " وهو يدعو لها ويقول : يا رب املأها علما وفقها"[40] ، ما يؤكد انتباهه الى أهمية هذا الأسلوب في تحقيق الإنتقال الحضاري لمجموع الحوض الغربي للبحرالمتوسط من الإطار القديم اليوناني - الروماني الى الفضاء الإسلامي الجديد .

لذلك لم يتوقف عقبة بن نافع طوال عملياته في مجموع بلاد المغرب عن تشييد المساجد بنفيس[41] ودرعة[42] وبوادي سوس[43] وغيرها . ولعل فيما ذكره ابن عذاري[44] في سياق حديثه عن أهل بلاد المغرب الأقصى بالقول :" ان أكثرهم أسلموا طوعا على يديه" ، ما يؤكد الإتجاه نحو تغليب هذه السياسة . وفي نص بالغ الدلالة ، يذكر صاحب البيان أن عقبة بن نافع قبل تجرده لمغادرة طنجة وما والاها من البلاد " ترك فيهم بعض أصحابه يعلمونهم القرآن والإسلام ، منهم شاكر صاحب الرباط وغيره"[45] .

وليس مصادفة على ما يبدو أن يذكر البكري "رباط نكور"[46] ، محددا موقعه في

38- ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج1 ، 23 .

39- نفس المصدر والصفحة .

40نفس المصدر والصفحة . انظر كذلك ، الرقيق القيرواني ، المصدر السابق ، 8 .

41- عبيد الله ، المصدر السابق ، 219 .

42 - نفسه ، 220 .

43نفس المصدر والصفحة . انظر كذلك ، ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج1 ، 27 .

44 - نفسه ، ج1 ، 42 .

45 - نفس المصدر والصفحة .

46 - البكري ، المصدر السابق ،91 . وبرغم إقرار أحد الدارسين بوجود هذا الرباط كمنشأة عمرانية مستقلة ، يعود فيذكر أن دورها يكمن في حماية مدينة نكور من الغارات البحرية . في حين أن المدينة لم تكن قد تأسست بعد خلال هذه الفترة المبكرة . جاك كاني ، امارة نكورفي أواسط القرن الخامس الهجري، مجلة البحث العلمي ، عدد 22 ، 1974، 149.

طرف "موضع يقال له أكدال "[47]، حيث "يجتمع نهر نكور وغيس" [48] ويتشعب بعدئذ جداول . ولا تعوز المؤشرات الجغرافية والنباتية والتاريخية الدالة على أن النهرين - عكس وضعهما الحالي - كانا يلتقيان خلال هذا التاريخ [49] . من ثم لا يستبعد أن يكون رباط نكور بمثابة أول نواة للإشعاع الحضاري والثقافي الإسلامي أنشئت بالمنطقة ، قبل تأسيس مدينة نكور على بعد أميال خلال العقود اللاحقة . ولعل في ارتباط مصطلحي الرباط والمرابطين بعدد من المنشآت الاسلامية الأولى ببلاد المغرب ، ما يؤكد هذه المسألة . ففي الحوار الذي دار بين عقبة بن نافع الفهري وأصحابه على إثر افتتاح إفريقية ، أجمعوا على استحسان فكرة اقامة قيروان بالمنطقة يكون أهله مرابطين "يقرب من البحر ليتم لنا الجهاد والرباط" [50] على حد قولهم .

نخلص الى القول ان التحاق نكور وبلاد الريف بدار الإسلام قد تم في إطار الصلح والمسالمة ، بواسطة المجهود الحضاري الذي وضعت أسسه خلال ولاية عقبة بن نافع الثانية وترسخت تدريجيا طوال العقود اللاحقة .

أما عن مؤسس إمارة نكور صالح بن منصور، فتتفق روايتا كل من ابن خلدون[51] وابن الخطيب[52] على التصريح بكونه أصلا "من عرب اليمن" . في حين يكتفي البكري[53] وكذا

---

47 - نفسه ، 90 .

48 - نفس المصدر والصفحة . انظر خريطة رقم 6 الملحقة .

49 - فبصرف النظر عما تقدمه الأحاجي والحكايات والروايات الشعبية والأمثال العامية من معلومات زاخرة وكاشفة عن عمق التحولات البيئية والمناخية والنباتية والحيوانية التي طرأت على مجموع حوضي النهرين طوال القرون اللاحقة ، فإن الفيضانات النهرية أثناء مواسم الأمطار الغزيرة اضطرت نهر نكور أكثر من مرة الى حدود الستينات من هذا القرن الى تغيير مجراه في اتجاه الإلتقاء بنهر غيس .

50 - ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج1 ، 19 .

51 - العبر ، ج6 ، 283 .

52 - اعمال الأعلام ، القسم الثالث ، تحقيق احمد مختار العبادي و محمد ابراهيم الكتاني ، البيضاء ، 1964 ، 171 .

53 - المصدر السابق ، 91 .

المصادر التي تناقلت نصوصه[54] بالإشارة إلى أنه " دخل المغرب في الإفتتاح الأول" ، وأنه " هو الذي افتتح"[55] نكور. والجدير بالملاحظة أن بعض المصادر قد ارتبكت في رواياتها ووقعت في الخلط بين صالح بن منصور هذا وسعيد بن إدريس بن صالح[56] مؤسس مدينة نكور لاحقا. وتنفرد إحدى الروايات بذكر إدريس بن صالح باعتباره الداخل الى بلاد الريف خلال مرحلة البعث الأول[57] . ومن الملاحظ أن اليعقوبي [58] ينفرد برواية مغايرة مصدرها "أهل البلد " الذين في ذكرهم لصالح بن سعيد[59] وللأسرة المؤسسة للإمارة "يزعمون أنه من أهل البلد نفزي" .

وبينما عبر كاجيكاس وغيره[60] عن الاندهاش من محتوى رواية اليعقوبي هذه باعتبارها غير منتظرة ، اندرج غيره [61] على اهمالها وغض الطرف عن محتواها . بينما آثر البعض [62] نقدها واعتبارها من نتائج ارتباك اليعقوبي ، حتى غدت الروايات المؤكدة على الأصل العربي اليمني الحميري لمؤسس امارة نكور من الحقائق المسلمة في الدراسات المعاصرة .

حقيقة أن ابا عبيد الله البكري ، احتفظ في مسالكه بأهم ما تواترته المصادر والدراسات التاريخية من معلومات عن إمارة نكور منذ القرن الخامس الهجري الى اليوم .

---

54 - ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج1 ، 176 : مجهول ، المصدر السابق، 136 : الحميري ، المصدر السابق ، 134 و 577 .

55 -البكري ، المصدر السابق ، 91 .

56 - انظر : محمد بن عبد المنعم الحميري ، المصدر السابق ، 134 راجع كذلك مجهول ، المصدر السابق ، 136 .

57 - الزياني ، المصدر السابق ، 79 .

58 - كتاب البلدان ، نشر دي خويه ، ليدن ، الطبعة الثانية ، 1967 ، 357 .

59- وهو " صالح بن سعيد بن إدريس ، وكان فقيها مالكيا حج وغزا بالاندلس وتصير اليه الملك ودام فيه ثمانيا وعشرين سنة وتوفي في ذي الحجة سنة اثنتين وستين ومائتين" ابن الخطيب ، المصدر السابق ، 174 : مصطفى ابو ضيف أحمد ، المرجع السابق ، 240 .

60 - المرجع السابق . 51 Guillermo GOZALBES BUSTO ," El reino de Nakur en la Edad Media" , *Estudios sobre Marruecos en la Edad Media*, Granada 1989, p. 52.

61 - ابو ضيف ، المرجع السابق ، 240 .

62 - صباح الشخيلي ، المرجع السابق ، 16-17 .

مع ذلك ، فمن المعروف انه لم يزر العدوة المغربية. ويبدو أن ما كتبه عن نكور كان اعتمادا على ما تبقى بقرطبة الطائفية من وثائق الخلافة الأموية وذخائر المكتبة المستنصرية الذائعة الصيت[63] ، بما في ذلك مصنفات احمد الرازي و"تواليف محمد بن يوسف الوراق ، فإنه ألف للحكم المستنصر في مسالك إفريقية وممالكها ديوانا ضخما ، وفي أخبار ملوكها وحروبهم والقائمين عليهم كتبا جمة"[64]، نخص منها بالذكركتابا في "أخبار نكور" .

ولا غرابة في أن يتبنى مؤرخو الدولة الأموية بالأندلس ادعاء امراء نكور الرسمي النسب العربي اليمني الحميري ، باعتبار علاقات الود والوفاق المتبادل بين الطرفين خلال عصر الامارة . ومن المعروف أن الأمير صالح بن سعيد السالف الذكر، كان على عكس اعتقاد أهل البلد "يدعي أنه من حمير" [65]. ولعل في عدم اقتناع المصادر المعتمدة من طرف البكري بهذا الإدعاء ، ما حذا بها الى الإقتصار على ذكر دخول المؤسس صالح بن منصور الى "المغرب في الإفتتاح الأول"[66]، دون إبراز منطلق هذا الدخول ولا النص صراحة على انتسابه حميريا في عرب اليمن . ويقدم أحد المؤرخين[67] نصا بالغ الدلالة، يدعو الى التحفظ من الإعتقاد بان منطلق الرحلة التي انتهت بصالح بن منصور الى دخول الريف كان من بلاد المشرق ، إذ يؤكد على أنه "دخل المغرب من إفريقية" . إن في هذه المؤشرات ما يدفع الى

---

63 – التي احتوت " من الكتب في أنواعها ما لم يجمعه أحد من الملوك" حسب رواية الحميدي ، جذوة المقتبس ، القاهرة ، 1952 ، 13 ، بما في ذلك " كتب الدهرية والفلاسفة " أنظرابن عذاري ، المصدر السابق ، ج2 ، 292 – 93 . ومن المعلوم ان معظم ذخائر هذه المكتبة قد تعرض للإتلاف على يد المنصور بن أبي عامر في أواخر عصر الخلافة ، نفسه ، ج2 ، 93 ، انظركذلك ابن صاعد الأندلسي ، طبقات الأمم ، بيروت ، 1985 ، 66 .

64 – انظر: المقري ، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق احسان عباس ، بيروت ، 1968 ، ج3 ، 163 . عن مصنفات احمد الرازي التي اعتمد عليها شيخ المؤرخين ابو مروان بن حيان فيما اورده عن نكور ، انظر المصدر السابق ، ج5 ، 413 – 14 ، مما يكشف عن أهميته كمصدر لما كتبه الأندلسيون عن هذا الموضوع سواء خلال عصري الخلافة والطوائف أو لاحقا .

65 – اليعقوبي ، المصدر السابق ، 357 .

66 – البكري ، المصدر السابق ، 91 .

67 – الزياني ، المصدر السابق ، 81 .

الإمساك عن تأويل نص البكري وتقويله ما لم يصرح به فعلا .

نخلص الى أن رواية البكري الشبه الرسمية المعتمدة أساسا ، قديما وحديثا ، في الدراسات التاريخية التي تناولت أنساب بني صالح أمراء نكور، لم تصرح فعلا لا بنسبهم العربي اليمني ولا بقدومهم فاتحين من المشرق .

ولقد كفانا ابن خلدون مؤونة تقويم ما أورده من معلومات بهذا الصدد ، إذ ذكر أنه استند في ذلك على رواية صاحب المقباس[68]. ولقد اعتقد بعض الدارسين[69] خطأ أن هذا الكتاب من مصنفات محمد بن يوسف الوراق المفقودة ، في حين أنه من تأليف مؤرخ مغربي من أهل القرن السادس الهجري يدعى ابا مروان عبد الملك بن موسى الوراق[70]. والجدير بالملاحظة أن ابن الخطيب الذي تتفق روايته مع نص ابن خلدون في التصريح بالنسب العربي لأمراء نكور، يعتمد هو الآخر على مقباس ابي مروان عبد الملك بن موسى الوراق السالف الذكر[71]، مما يكشف عن ضعف هذه الروايات التي اعتمدت أساسا في أغلب ما تداوله القدامى والمحدثون حول هذا الموضوع . ومن المعلوم أن كتابات ابن الخطيب المتعلقة بكثير من مواضيع العدوة المغربية لا تخلو من خلل واضطراب[72] .

يبدو إذا من الخطأ التقليل من أهمية رواية اليعقوبي [73] التي تعتبر اقدم ما لدينا

---

68 - انظر ، العبر ، المصدر السابق ، ج6 ، 283 . وفي الترجمة التي وضعها البارون دي سلان لكتاب ابن خلدون تصحيف في قراءة هذا المصدر إذ وردت بالياء " المقياس" ، انظر:
Isidro de las CAGIGAS , *Dinastias menores del Magreb : Los Banu Salih de Nakur*,Tetuan 1951 , p.17.

69 - Loc . cit

70 - لمزيد من التفاصيل ، انظر : عبد الواحد ذنون طه ، موارد تاريخ ابن عذاري المراكشي ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، ج4 ، م1 ، عدد 36 ، كانون الأول ، 1985 ، 231 - 33 .

71 - نفسه ، 231 .

72 - محمود اسماعيل ، مغربيات ، المحمدية ، 1977 ، 17 .

73 - برغم الخلاف القائم حول تاريخ وفاة اليعقوبي والتارجح بين اعتماد سنة 284 هجرية الموافقة لسنة 891 م وسنة 292 الموافقة لسنة 905 م ، فالراجح أنه قد ألف كتابه في البلدان المعتمد هنا حوالي سنة 278 الموافقة لسنة 891 م . انظر: كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، القاهرة ، 1963 ، القسم 1 ، 159 .

حول هذه المسالة ، خصوصا وأن "أمانة اليعقوبي العلمية وتفرده بمعلومات وافية لا توجد في المصادر الأخرى" [74] لا تخفى عن الباحثين في تاريخ الإسلام .

ومما يسترعي الإنتباه أن اليعقوبي قد زار نكور خلال سنة ثمان وسبعين ومائتين للهجرة[75] بعد بضع سنوات فقط من وفاة الأمير صالح بن إدريس الذي كان "يدعي أنه من حمير"[76]. ولقد كشف في مقدمة كتابه ليس فقط عن التزامه الدقة في انتقاء مصادره المعرفية والإخبارية وصرامته المنهجية ، بل وكذا عن مدى اهتمامه بتتبع أصول وأنساب المتأمرين في كل بلد ، فاحصا أصول من "يغلب عليه ويترأس فيه من قبائل العرب وأجناس العجم"[77].

ولعل في انتسابه "شيعيا معتزليا"[78] كما هو معروف ، ما حذا به الى البحث في هذا الموضوع والتدقيق في تفاصيله والتشكيك في صحة ادعاء أمراء نكور النسب الحميري اليمني . ولا غرابة في انفراد اليعقوبي بهذه الرواية ، علما بانه قلما "تقابلنا اقتباسات أو نقل من كتاب اليعقوبي لدى المؤلفين المتأخرين"[79].

عديدة هي الدوافع التي كانت ، على ما يبدو، وراء ادعاء أمراء نكور النسب العربي . فصالح بن سعيد السالف الذكر كان "يدعي انه من حمير"[80]، وهو الأمير على نكور خلال النصف الثاني من القرن الثالث الهجري . وخلال هذا التاريخ ، لم يعد الفكر الإسلامي عموما، والفكر السياسي ببلاد المغرب على وجه الخصوص ، متحمسا كما كان الى عهد قريب خلال نهايات القرن الأول وبدايات الثاني ، للآراء الداعية الى إمكانية تأمير غير العرب من مسلمي الشعوب الأخرى .

---

74 – نفس المرجع ، 160 .

75 – Isidro de Las CAGIGAS, *op. cit*, p. 51.

76 – اليعقوبي ، المصدر السابق ، 357 .

77 – نفسه ، 233 .

78 – كراتشكوفسكي ، المرجع السابق ، القسم 1 ، 158 . انظر كذلك : محمود اسماعيل ، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي ، البيضاء ، ج1 ، 287 .

79 – كراتشكوفسكي ، نفسه ، 161 .

80 – اليعقوبي ، المصدر السابق ، 357 .

ويبدو أن الدعوة العلوية الزيدية قد تجردت منذ منتصف القرن الثاني للهجرة لترسيخ فكرة وجوب الإمامة في آل البيت في أوساط عدد من بطون قبائل المغرب الأقصى [81]، مستفيدة من تراجع المذهب الخارجي بشقيه الصفري والإباضي بمجموع بلاد المغرب[82]. كما لا تعوز الدلائل الكاشفة عن انتشار الإعتزال بأعمال طنجة[83]، وبمناطق اخرى من المغرب الأقصى وبالمغرب الأوسط وإفريقية [84]، منذ أن وضع واصل بن عطاء أصول الدعوة التي عرفت باسمه، وتجرد على رأس القرن الثاني للهجرة لبث الدعاة الى الأمصار، بما في ذلك بلاد المغرب. وبينما يكشف البلخي [85] عن استمرار النشاط الإعتزالي الواصلي بشمال

---

81 - فعلى عكس ما هو شائع عن قيام الدولة الإدريسية مصادفة على إثر قدوم إدريس بن عبد الله العلوي هاربا من مذبحة فخ الشهيرة، تقدم المصادر العربية عددا من الدلائل الكاشفة عن التمهيد لقيام هذه الدولة من طرف الدعاة الزيدية منذ ما ينيف عن ربع قرن من الزمن قبل التاريخ المعروف لتأسيس الامارة. ذكر ابن ابي زرع الفاسي أن محمد النفس الزكية الثائر على بني العباس خلال سنة 145 هجرية قد "بعث أربعة منهم (اخوانه) دعاة الى الأمصار يدعون الى طاعته وبيعته، وبعث عيسا الى افريقية فأجابه بها خلق كثير من قبائل البربر، وبقي هناك الى أن توفي ولم يتم الأمر". الأنيس المطرب، الرباط، 1973، 15. وفي اعتقاد محقق الكتاب أن ابن ابي زرع قد وقع في الخلط بين ثورة النفس الزكية سنة 145 هجرية وثورة الحسين بن على اللاحقة سنة 169 هجرية. في حين أن التأريخ لبداية الدعوة العلوية الزيدية ببلاد المغرب خلال امامة محمد النفس الزكية ينسّجم تماما مع مضامين غيره من المصنفات القديمة، مما يدعو ليس فقط الى تصحيح هذه النقطة الجزئية بل والى إعادة النظر في مجموع الحيثيات التي رافقت تأسيس الدولة الإدريسية. راجع بهذا الخصوص: محمود اسماعيل، الأدارسة في المغرب الأقصى حقائق جديدة، الكويت، 1992.

82 - لمزيد من التفصيل عن تأثير المذهب الخارجي في بلاد المغرب منذ القرن الثاني الهجري انظر: محمود اسماعيل، الخوارج في بلاد المغرب، البيضاء، 1976.

83 - البلخي، مقالات الإسلاميين، ضمن كتاب فضل الإعتزال وطبقات المعتزلة للقاضي عبد الجبار، تحقيق فؤاد سيد، 110 وكذلك 119.

84 - انظر: ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، 64 و225. انظر كذلك: الشهرستاني، الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلاني، بيروت، 1982، 46؛ البلخي، المصدر السابق، 64 -66 و 109؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ليدن1967، 96؛ القاضي عبد الجبار، المصدر السابق، 227.

85 - المصدر السابق، 119.

المغرب الأقصى خلال القرن الثالث الهجري [86] ، يؤكد موقف معتزلة المغرب المدافع عن التصور الزيدي للإمامة ، إذ قال :"وأنصار إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب يومنا هذا بطنجة وما والاها من بلاد المغرب هم المعتزلة ".

وبالمشرق غدت الخلافة في الفرع العباسي من آل البيت منذ سنة اثنين وثلاثين ومائة للهجرة ، وتأمرت الأسرة الأموية القرشية بالأندلس في أقصى الجناح الغربي لدار الإسلام ابتداء من سنة ثمان وثلاثين ومائة هجرية . في حين أصبحت السلطة بإفريقية في يد الأغالبة الذين ينسبون الى " الأغلب بن سالم التميمي ، وهو عربي من قبيلة تميم"[87].

من الطبيعي في ظل هذه التحولات أن يلتمس أمراء نكور بعضا من المتانة لنظامهم السياسي ، عن طريق ادعاء النسب العربي الكفيل بجعل قمة السلطة فوق السخائم العصبية والقبلية التي انفرطت من عقالها خلال النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ، ليس بنكور فحسب[88] ، بل بمجموع ممالك العدوة المغربية وكذا بالأندلس والمشرق الإسلامي[89] .

ومن القرائن ما يدل على أن ادعاء النسب العربي قد غدا ظاهرة مألوفة خلال هذا القرن بمجموع الغرب الإسلامي. ذكر الخشني[90] أن المرء اصبح بإمكانه ادعاء"أشرف

86 - والجدير بالملاحظة أن الدارسين قد ركزوا على إبراز دور المعتزلة كفرقة كلامية ، من خلال القراءة في مقالاتهم ، علما بالصعوبات التي تكتنف البحث عن مواقعهم ضمن الخريطة السياسية خلال البدايات الأولى على رأس المائة الثانية للهجرة ، والإفصاح عن دورهم في صياغة الأحداث التاريخية بالمشرق والمغرب على السواء . ومن المعلوم أن معظم ما صنفه المعتزلة خلال هذه الحقبة يعتبر في حكم المفقود ، بما في ذلك مصنف واصل بن عطاء في "أصول الدعوة " . ولقد انتبه ثلة من الدارسين منذ مدة الى هذه الحلقة المجهولة من تاريخ الإعتزال محاولين في حدود ما تسمح به المادة المتوفرة تدارك بعض النقص في هذاالمجال . انظر على سبيل المثال بحث محمود اسماعيل عن دور المعتزلة في تاريخ المغرب الأقصى ضمن : مغربيات ، صفحات 123 -139 .

87 - محمود إسماعيل ، الأغالبة : سياستهم الخارجية ، فاس ، 1978 ، 23 .

88 - سنعود لاحقا لتناول هذه النقطة بمزيد من التفصيل .

89 - انظر : محمود اسماعيل ، الأغالبة ، المرجع السابق ، 191 - 92 وكذلك كتابه ، الخوارج في بلاد المغرب ، المرجع السابق ، 122 و 127 و 154 و162 وسوسيولوجيا الفكر الإسلامي ، ج 2 ، 73؛ احمد الطاهري ، عامة قرطبة في عصر الخلافة ، الرباط ، 1989.

90 - قضاة قرطبة ، القاهرة ، 1966 ، 112.

الأنساب ثم لا يجد في ذلك مكذبا". وليس من المستبعد أن يكون أمراء نكور ضمن من قصدهم ابن عبد البر النمري[91] بالقول :"وقد انتسب بعضم في حمير" . نجد تأكيد ذلك فيما أورده غيره من النسابة[92] إذ قال متحدثا عن البربر:"وادعت طوائف منم الى اليمن ، الى حمير" . ومن المعلوم أن زويلة كانت "تزعم انها من جرهم ، وهوارة أنهم من عاملة وأنهم انتقلوا من الشام"[93]، وطوائف غيرهم "من البربر يزعمون أنهم من قيس عيلان بن مضر"[94]. وهو ما اعتبره ابن حزم[95] "باطلا لا شك فيه...إلا في تكاذيب مؤرخي اليمن". وهو نفس الرأي الذي عبر عنه ابن عبد البر [96] بقوله متحدثا عن هذا الموضوع : وقد "أنكر ذلك أكثر الناس" .

والجدير بالملاحظة أن عددا من المصادر القديمة تحدثت بدون تحفظ عن الأصول اليمنية الحميرية للبطون القبلية الصنهاجية ، باعتبارها حقائق مسلمة . ذكر ابن خلكان [97] على سبيل المثال أن "صنهاجة ...قبيلة مشهورة من حمير". وفي سياق تناوله لقبائل لمتونة الملثمين ، ذكر غيره [98] "أصل هذه الطائفة أنهم قبيلة من حمير بن سبأ". بلغ هذا التأصيل من الشيوع أن عرفت مملكة غرناطة الطائفية البربرية الصنهاجية في بعض المصادر التاريخية [99] بـ" المملكة الشامخة الحميرية" .

وتزخر كتب التراجم والطبقات بأسماء الأعلام الصنهاجيين التي وردت مقرونة

91 - القصد والأمم في التعريف بأصول أنساب العرب والعجم ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، بيروت 1985، 36 .

92 - ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، 1983 ، 495 .

93 - ابن عبد البر النمري ، المصدر السابق ، 36 .

94 - نفسه ، 37 . انظر كذلك : ابن حزم ، الجمهرة ، 495 .

95 - نفس المصدر والصفحة .

96 - المصدر السابق ، 36 .

97 - وفيات الأعيان ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ، ج1 ، 266 .

98 - محمود مقديش ، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار ، تحقيق علي الزواوي/محمد محفوظ، ج1 ، 431 .

99 - انظر : ابن بسام ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق إحسان عباس ليبيا - تونس 1981 ، ق4 ، م1 ، 177 .

بالنسب الحميري ، نخص منهم بالذكر " المعز بن باديس الصنهاجي الحميري ملك إفريقية"[100] وكذا "الحميريين باديس وذي النون"[101] المتأمرين بالأندلس على التوالي بمملكتي غرناطة وطليطلة الطائفيتين . ينطبق نفس الشيء على صاحب الوثائق الفقيه الشهير علي بن يحيى بن القاسم الحميري الصنهاجي" إذ أن "أصله من بلاد الريف"[102] . ولا غرو، فعديد هم أهل نكور الذين نسبوا عربا في لخم[103] وفي غيرها من البطون القبلية العربية . وليس من المستبعد أن يكون "بنو صالح" الذين ذكرهم ابن حوقل[104] باعتبارهم من المنتمين في "قبائل صنهاجة الخلص"[105] هم ملوك نكور بالذات .

جميع المؤشرات تصب اذا في اتجاه ترجيح رواية عامة أهل البلد - التي أثبتها اليعقوبي في كتابه - الكاشفة عن الأصل الصنهاجي النفزي لمؤسس امارة نكور . ويبدو أن صالح بن منصور هذا من أوائل الذين اسلموا وتفقهوا بقيروان إفريقية ، ومنها توجه بإيعاز من الفاتحين غربا نحو نكور ، حيث تستقر فروع من بني جلدته نفزة ، للقيام بمهمة ادماج هذه المنطقة في دار الإسلام . وهو ما ذكره أحدهم بالقول : "وجهه حسان بن النعمان الغساني أميرعبد الملك بن مروان بافريقية لفتح المغرب فنزل الريف"[106] .

---

100 - القفطي ، إنباه الرواة على أنباء النحاة ، تحقيق ابو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، 1986 ، ج 1، 228 . وهو الذي أطراه أحد الشعراء بالقول :

وله ذؤابة حمير وسناؤهـــا   وسنام يعرب الرفيع العالـي
ويحل في قحطان أعلى ذروة   يعيا محاولها وليس بــــآل

ولقد رفع أحدهم نسبه الى أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام ، انظر : ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج1 ،304 .

101 - ابن خاقان ، قلائد العقيان ، القاهرة ، 1284 هجرية ، 143 .

102 - ابن عبد الملك المراكشي ، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة ، السفر الثامن ، تحقيق محمد بن شريفة ، الرباط ، 1984 ، ق1 ، 213 .

103 - انظر : القاضي عياض ، الغنية ، تحقيق ماهر زهير جرار، بيروت ، 1982 ، 155 وكذلك ابن الآبار، المعجم في أصحاب القاضي الإمام ابي علي الصدفي ، تحقيق كوديرا ، 1885 ، 204 .

104 - المصدر السابق ، 104 - 105 .

105 - نفسه ، 105 .

106 - الزياني ، المصدر السابق ، 79 .

وتؤكد مختلف المصادر المتداولة التي تعرضت للموضوع على اقتصار مهمة صالح بن منصور بالمنطقة على نشر تعاليم الإسلام . يذكر صاحب البيان [107] انه لما "نزل في بني تمسامان على يديه اسلم بربرها". ويضيف غيره[108] انه "عليه أسلم قبائل لواتة" . وهو نفس ما تواتر ذكره لدى كل من صاحب الإستبصار[109] وابن الخطيب [110] ومحمد بن عبد المنعم الحميري[111]. يبدو إذا أن صالح بن منصور عمل على استكمال مهمة الفقهاء الأوائل - الذين تركهم عقبة بن نافع بطنجة وما والاها - في التعريف بتعاليم الدين الإسلامي والتشريعات الجديدة ، اعتمادا على علاقة النسب التي تجمعه بفرع الريف من نفزة .

والملاحظ انه ، فضلا عن فروع نفزة التي استقرت بالمغرب الأقصى ، في منطقة الريف[112] وبأحواز فاس[113] وغيرها ، تكشف كتب التراجم والطبقات[114] وبعض المصنفات التاريخية[115] عن عدد من الأعلام المنتسبين في نفزة افريقية ، أشهرهم على الإطلاق ابو محمد عبد الله بن ابي زيد القيرواني ، المعروف بكونه "نفزي النسب" [116]. بالاضافة الى ذلك ، فمن المفيد التذكير بالروايات القديمة المتواترة في عدد من المصادر تنص على ان "

---

107 - المصدر السابق ، ج1 ، 176 .

108 - الزياني ، المصدر السابق ، 79 .

109 - المصدر السابق ، 136 .

110 - المصدر السابق ، 172 .

111 -المصدر السابق ، 134 .

112 - انظر : اليعقوبي ، المصدر السابق ، 357 . ويبدو ان قبائل " نفزة ولماية" المذكورتين من طرف ابن حيان في المقتبس ، ج5 ، 370 تقعان في الريف ، وهو ما سنتناوله بما يستحقه من تفصيل ضمن المباحث الاخيرة من هذا الكتاب .

113 - نفس المصدر والصفحة .

114 - ابن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، نصوص جديدة ، تحقيق عبد السلام شقور، طنجة ، 1988 ، 57 .

115 - انظر على سبيل المثال : الرقيق القيرواني ، المصدر السابق ، 103 .

116 - ابن فرحون ، الديباج المذهب في معرفة اعيان المذهب ، تحقيق محمد الأحمدي ابو النور ، القاهرة ، 1972 ، ج1 ، 427 انظر كذلك : الزياني ، المصدر السابق ، 74 .

افريقية سميت باسم افريقن بن قيس بن صيفي الحميري "[117] ، وانه هو الذي "افتتح افريقية وسميت به "[118] ، وذلك "في القديم منذ خرجوا من الشام في حروب بني اسرائيل ودخولهم لافريقية" [119] . هكذا يتجلى بوضوح من خلال هذه الروايات الارتباط بين الانتساب في حمير وافتتاح افريقية ، مما يدعو الى مزيد من التحفظ بخصوص ما أوردته المصادر السالفة الذكر عن افتتاح نكور .

ونتيجة لاستجابة اهل تمسامان والقبائل المجاورة لدعوة صالح بن منصور ، تأمر عليهم و"استخلص نكور لنفسه"[120] ، على حد تعبير ابن خلدون . وبدلا من الدخول في صراع مع الكيان الجديد ، آثرت الخلافة الأموية الإقرار بالأمر الواقع والاعتراف بصالح بن منصور سيدا على نكور فـ" أقطعه اياها الوليد بن عبد الملك في أعوام إحدى وتسعين من الهجرة"[121] كما سلف الذكر .

ومن المعروف أن " البلاد المغربية لم تجر في الإفتتاح على قانون واحد"[122] وذلك لان "منها ما افتتح عنوة ومنها ما افتتح صلحا"[123] . ويبدو من خلال مؤشرات دالة خضوع عدد من مناطق الصلح بالغرب الإسلامي لعقود الإقطاع . نخص منها بالذكر عقد"الصلح الذي كتبه عبد العزيز بن موسى بن نصير لتدمير بن غندرش الذي سميت باسمه تدمير إذ كان ملكها"[124]. ولقد احتفظت عدد من المصادر [125] بالنص الكامل لهذا العقد الكاشف عن

---

117 - ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج1 ،55 ؛ الزياني ، المصدر السابق ، 72 ؛البكري ، المصدر السابق ، 21 .

118 - ابن خلكان ، نفس المصدر والصفحة .

119 - الزياني ، المصدر السابق ، 72 .

120 - ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، 283 .

121 - نفس المصدر والصفحة .

122 - الونشريسي ، المعيار المعرب والجامع المغرب في فتاوي أهل افريقية والأندلس والمغرب ، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، الرباط ، 1981 ، ج6 ، 134 .

123 - نفس المصدر والصفحة .

124 - الضبي ، بغية الملتمس ، القاهرة ، 1967 ، 274 .

125 - انظر فضلا عن البغية السالفة الذكر ، محمد بن عبد المنعم الحميري ، المصدر السابق ، 231 -32 .

الاستقلال الفعلي السياسي والإداري والديني لهذه المنطقة الاندلسية ، في ظل الإرتباط المشروط بنظام الخلافة . ناهيك عما تحتفظ به غيرها من تفاصيل تتعلق باستقبال الخليفة الأموي بدمشق لأبناء آخر ملوك القوط ، فـ"أنفذ لهم عهد طارق في ضياع والدهم ، وعقد لكل واحد منهم سجلا "[126] .

ان في هذه النصوص ما يؤكد صحة التحليل السابق ، بان نكور انضمت الى دار الإسلام صلحا واختيارا ، وما يكشف عن ارتباطها عند التأسيس بدمشق في اطار علاقة الإقطاع التي ميزت سياسة الأمويين تجاه عديد من مناطق الصلح .

ولا تعوز القرائن الدالة على التزام الطرفين باحترام مقتضيات العقد طوال السنين اللاحقة . فلما بويع الوليد بن عبد الملك على إثر وفاة ابيه للخلافة في دمشق "وجه لافريقية موسى بن نصير وأوصاه ان لا يعزل ادريس بن صالح لعدله ، ويتركه على رأيه ويتوجه هو الى أقصى المغرب"[127]. وليس مصادفة أن يعمد موسى بن نصير ، في اطار تطبيق سياسة الوفاق والاستمالة مع اهل الصلح ، الى استعمال "مولاه طارق على طنجة وما والاها"[128] ، وتأميره ليس فقط على بني قومه من البربر ، بل وكذا على ثلة من رجالات العرب ، إن لم يكن على رايات من فرسانهم[129] .

---

126 - المقري ، المصدر السابق ، ج1 ، 266 . انظر كذلك ابن القوطية ، افتتاح الأندلس ، تحقيق ابراهيم الأبياري ، بيروت ، 1982 ، 30 .

127 - الزياني ، المصدر السابق ، 81 . والمقصود هنا صالح بن منصور وليس ادريس بن صالح كما ورد في النص . ولقد سلف ذكر حيثيات هذا الخلط الذي وقع فيه جملة من النقلة .

128 - ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج1 ، 42 ، انظر كذلك : ج2 ، 6 .

129 - تختلف الروايات التاريخية حول تقدير عدد الفرسان العرب الذين أسندت قيادتهم لطارق بن زياد . يذكر صاحب البيان ، ج1 ، 42 انهم كانوا "سبعة عشر ألفا" ، بينما لا يتعدون في رواية أخرى "سبعة وعشرين رجلا" ، حسين مؤنس ، رواية جديدة عن فتح المسلمين للأندلس ، مجلة المعهد المصري للدراسات الاسلامية ، المجلد 18 ، مدريد ، 1974 - 1975 ، 100 . ولقد علق ابن عبد الحكم على رواية اخرى تحددهم في "ستة عشر رجلا من العرب" بان ذلك ليس بالصحيح ، مؤكدا أن مروان بن موسى بن نصير على إثر انسحابه من الرباط على سواحل بلاد طنجة "خلف على جيشه طارق بن عمرو وكانوا الفا وسبعمائة" ، المصدر السابق ، 71 .

والجدير بالملاحظة أن طارق بن زياد ينتمي الى نفس المجموعة القبلية التي ينحدر منها صالح بن منصور صاحب نكور ، فهو "بربري من نفزة"[130] ومتأصل في صنهاجة . ولقد اثبت المقري[131] رواية بالغة الدلالة في الكشف عن تصدي احفاد طارق بن زياد للمزاعم التي نسجت حول انتساب جدهم في العرب بواسطة رابطة الولاء اذ قال : «وقد كان بعض عقبه بالاندلس ينكرون ولاء موسى انكارا شديدا» . ومن المعلوم ان ثمة اشكالا مختلفة من الولاء[132] لا تفيد بالضرورة التبعية والارتباط الشخصي ، كفيلة بمراجعة اكثر من تصور حول طبيعة العلاقات التي نسجت بين عشائر العرب والبربر في خضم عصر الفتوحات . وفي نص فريد لابن حزم[133] ما يؤكد الاصل الصنهاجي لبني عبد الوهاب «وهم من ولد ميمون بن ابي جميل وهو ابن اخت طارق بن زياد وكان لهم ثروة وعدد وكان منهم قواد وكتاب وفقهاء» .

كل المؤشرات تصب في اتجاه ازالة اللبس عن هذا اللغز الذي طالما احيط بنسب

---

130 - ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج 1 ، 43 . ذكره بعضهم باسم "طارق بن عمرو" ابن عبد الحكم ، المصدر السابق ، 71 ، بينما يطلق عليه معظم الرواة "طارق بن زياد" . ولقد نص عبد الواحد المراكشي ، المعجب في تلخيص اخبر المغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان/محمد العربي العلمي ، القاهرة 1949 ، 9 على هذا الاختلاف في الروايات "اذ قيل ابن زياد وقيل ابن عمرو" . وفي رواية اخرى نسب كالتالي : «طارق بن زياد الليثي» ، انظر: الزياني ، المصدر السابق ، 94 . اما ابن عذاري البيان ، ج 2 ، 5 فيقدم سلسلة نسب زعيم فتح الاندلس بالقول :"طارق بن زياد بن عبد الله بن رفهو بن ورفجوم بن ينزغاسن بن ولهاص بن يطوفت بن نفزاو". في حين يعمد صاحب أخبار مجموعة الى الخلط ، اذ يقر من جهة بانه مولى لموسى بن نصير ، ثم يعود فيذكر ان "طارق بن زياد فارسيا همذانيا ، ويقال انه ليس لمولاه وانه من موالي صدف "، اخبار مجموعة ، مخطوط المكتبة الوطنية ، مدريد ، رقم 4995 ، 3 . عن شذوذ الرواية التي ترجع نسب طارق الى الفرس ، انظر ، ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج2 ، 5 . انظر كذلك : المقري ، المصدر السابق ، ج 1 ، 254 .

131 - المصدر السابق ، ج 1 ، 254 .

132 - راجع بهذا الخصوص : ابن رشد ، كتاب الولاء والمواريث ، مخطوط المكتبة العامة ، الرباط ، رقم 592 ق ، ورقات : 159 - 166 . لمزيد من التفاصيل عن سياسة الامويين المغربية في دمج المتنفذين من ملوك البربر والقوط والروم ممن مال الى المسالمة والصلح ، راجع : ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج 1 ، 44 - 45 .

133 - الجمهرة ، 502 .

طارق بن زياد الذي لا يخالجنا شك في انتمائه النفزي وتاصله في بلاد نكور التي التحقت بدار الاسلام طوعا وتجردت على التو لترسيخ المشروع الحضاري الجديد بمجموع بلاد طنجة. ولعل في رواية ابن عبد الحكم[134] الذي نص على ان موسى بن نصير وجه «ابنه مروان بن موسى الى بلاد طنجة مرابطا على ساحلها فجهد هو واصحابه فانصرف وخلف على جيشه طارق بن عمرو وكانوا الفا وسبعمائة»، ما يؤكد ذات الحقيقة . والى جانب رباط نكور السالف الذكر ، لا يستبعد ان تتظافر جهود صالح بن منصور ومروان بن موسى بن نصير وطاق بن زياد في تشييد غيره من الرباطات لاقامة الجند ببلاد طنجة استعدادا لفتح الاندلس .

وبينما احتفظ صالح بن منصور بنفوذه في قبائل "صنهاجة وغمارة"[135] ، في اطار عقد الاقطاع المذكور آنفا الموقع مع دمشق ، استمر يليان صاحب سبتة [136] متربعا على السلطة في بحر الزقاق بمنطقة المجاز الى الأندلس، في ظل مقتضيات الصلح والمسالمة مع الفاتحين . أما طارق بن زياد فقد آثر الاقامة "يومئذ بتلمسين"[137] لادارة شؤون مجموع بلاد طنجة ، التي تمتد في ظل التقسيم الاداري المعتمد حينئذ من الأحواز الغربية لتيهرت الى " مدينة سلا وهى آخر المغرب " [138] يصاقبه الى الجنوب السوس الأدنى وبلاد تامسنا .

---

134 - المصدر السابق ، 71 .

135 - البكري ، المصدر السابق ، 91 .

136 - فهو صاحب سبتة حسب بعض الروايات ، وصاحب سبتة وطنجة كذلك حسب أخرى ، بل وهنا من يشير الى ان المدينة التي كانت على المجاز الى الأندلس المعروفة بالخضراء وبمرسى أم حكيم ايضا ، نسبة لاحدى جواري طارق بن زياد ، كانت تابعة له ايضا . ابن عبد الحكم ، المصدر السابق ، 72؛ عبد الواحد المراكشي ، المعجب ، 9 - 10 ؛ ابن عذاري ، البيان ، ج 2 ، 5 - 6 ؛ مجهول ، أخبار مجموعة ، المخطوط ، 2 . ابن الكردبوس وابن الشباط ، تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط ، نصان جديدان ، تحقيق احمد مختار العبادي ، مدريد 1971 ، 43 . وينص ابن خلدون على ان "يليان أمير غمارة" العبر ، ج6 ، 193؛ وهو ما أكده في مكان آخر: ج6 ، 281 .

137 - ابن عبد الحكم ، المصدر السابق ، 72 . أورد ابن القطان روايات مختلفة حول المدينة التي اتخذها طارق بن زياد قاعدة له عند استعماله على بلاد طنجة ، بين قائل مدينة طنجة وقائل سجلماسة الى جانب ما تم ذكره عن تلمسين وهي الأرجح .

138 - ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج 1 ، 5 .

برهن طارق بن زياد منذ البداية عن قدرات فذة في ادارة بلاد طنجة ، إذ أفلح في استدراج يليان صاحب سبتة والمجاز للانخراط بفعالية في توجهات السياسة الأموية تجاه العدوة الأندلسية [139] ، كما نجح بايعاز من موسى بن نصير في اشراك بلاد تامسنا المجاورة - على ما يبدو - في أول سرية استكشافية الى السواحل الأندلسية ، بقيادة طريف [140] ، كما تمكن من استنفار القوة اللازمة لفتح الأندلس من القبائل البربرية الضاربة بالمنطقة [141] . ان في هذا ما يفصح ليس فقط عن رغبة النظام الاموي في تحاشي الانخراط في الصراعات الجانبية ، والتدخل في الشوون الداخلية لمناطق النفوذ المحلية بمناطق الصلح ، بل وكذا عن فعالية تأمير بربري صنهاجي من نفزة ، للانخراط عن طواعية في أكبر مشروع لتوسيع نفوذ دار الاسلام نحو الضفة الأخرى .

وفي هذا السياق أكد صاحب أخبار مجموعة [142] أن معظم قوة طارق بن زياد تكونت من "البربر والموالي ليس فيهم عرب الا قليل" . ولا يستبعد أن يكون أهل نكور وتمسامان ونفزة احد أهم الفروع القبلية بالمنطقة - باعتبارهم الى جانب أتباع يليان ومصمودة الساحل من أحواز طنجة ، أعلم الناس بأحوال العدوة الأندلسية وبأمور الملاحة فيما بين الضفتين - قد ساهموا بفعالية في فتح الأندلس . حقيقة ان نواة القوة التي وضعت تحت امرة طارق كانت في الأصل من "رهائن المصامدة جمعهم موسى مع رهائن البربر الذين أخذهم من افريقية والمغرب" [143] عامة . وبعدما كانت لا تتجاوز في البداية "ألفا وسبعمائة" [144] رجل ، تضاعفت

---

139 - انظر : ابن عبد الحكم ، المصدر السابق ، 72 ؛ ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج2 ، 4 -7 ؛ عبد الواحد المراكشي ، المصدر السابق ، 9 - 10 ؛ ابن الكردبوس وابن الشباط ، المصدر السابق ، 42 - 46 .

140 - اختلفت المصادر العربية في نسبه ، فهو حسب ابن الكردبوس عربي الاصل يدعى "ابا زرعة طريف بن مالك المعافري" ، المصدر السابق ، 45 .

141 - اجتمع اليه حسب بعض التقديرات " اثنى عشر الفا من البربر" ، ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج 2 ، 6 .

142 - المصدر السابق المخطوط ، 3 .

143 - ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج1 ، 42 و ج2 ، 5 .

144 - ابن عبد الحكم ، المصدر السابق ، 71 .

الى ما يقارب "سبعة آلاف"[145] نفر، تقاطروا عليه من مجموع أنحاء بلاد طنجة ليرتفع عددهم بعدئذ حسب بعض الروايات المحتملة للمبالغة الى حوالي "اثني عشر الفا من البربر"[146] .

ومن المعلوم أن مصير طارق بن زياد قد آل بعد بطولاته في فتح الأندلس الى الخمول ، إذ "وبخه موسى وغضب عليه ، وقيل انه وضع السوط على رأسه وقيل انه ضربه اسواطا كثيرة وحلق رأسه"[147]، أردف ذلك بعزله واسناد عمالة " طنجة لابنه عبد الملك"[148]. وهو ذات المصير الذي كان ينتظره هو نفسه "وولده وكل من تلبس به ، واستئصال أموالهم وتعذيبهم"[149] من طرف الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك وواليه على افريقية والمغرب محمد بن يزيد. مما يكشف عن احدى الخصائص الملازمة للسياسة الأموية في ادارة الأقاليم البعيدة ، وضمان استمرار ارتباطها بسلطان دمشق .

سرعان ما انقلبت السياسة الأموية تجاه بلاد المغرب ابتداء من خلافة يزيد بن عبد الملك ، الذي أسند ولاية افريقية ليزيد بن أبي مسلم الذي اشتهر بكونه "ظلوما غشوما"[150]. بلغ الأمر بعدئذ مداه على يد عمر بن عبد الله المرادي ، الذي استعمله عبيد الله بن الحبحاب صاحب افريقية على بلاد طنجة وما والاها ، إذ "تعدى في الصدقات والعشر وأراد تخميس البربر وزعم أنهم فيء المسلمين وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله"[151].

لم تكن نكور لتسلم من تبعات هذا التحول . ويبدو أن عمر بن عبد الله المرادي قد وطد العزم على النيل من عامة أهل البلد بواسطة الضغط على أميرهم بمزيد من المغارم والمطالبات . وهو السبب الذي أدى في الغالب الى حدوث ما تناقلته ثلة من المصادر التاريخية بالقول :"ثم ارتد أكثرهم لما ثقلت عليهم شرائع الاسلام"[152] .

145 - مجهول ، أخبار مجموعة ، 3 .
146 - نفسه ، 4 ؛ ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج2 ، 6 .
147 - ابن عبد الحكم ، المصدر السابق ، 80 ؛ ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج2 ، 16 .
148 - ابن عذاري ، نفسه ، ج1 ، 44 .
149 - نفسه ، ج1 ، 74 . لمزيد من التفاصيل انظر: ج2 ، 20 - 21 .
150 - نفسه ، ج1 ، 48 .
151 - نفسه ، ج1 ، 52 . ومن المعلوم ان عبيد الله بن الحبحاب قدم افريقية واليا عليها من قبل هشام بن عبد الملك ابتداء من سنة 116 هجرية .
152 - نفسه ، ج 1 ، 176 ؛ البكري ، المصدر السابق ، 91 .

لم تتحفظ الدراسات المعاصرة التي تناولت الحدث عن مسايرة هذا التعليل والاقرار بالطابع العقائدي للحركة المرتبط بالايمان وبالموقف من الدعوة . ويبدو ان الأمر يتعلق على العكس تماما بثورة اجتماعية انخرط فيها "بشر كثير"[153] من العامة وسواد الخلق لما " ثقلت عليهم الشرائع والتكاليف"[154] ، في مواجهة قلة من المتنفذين المستظلين بالادارة الأموية . خصوصا وأن الحركة قد أسفرت عن اسقاط الأمير صالح بن منصور واخراجه من البلد وتقديم أحد الزعماء ممن ينتمي هو الآخر في نفزة ، والمعروف باسم داوود الرندي[155] ، قاطعين بذلك ما تبقى من الأواصر مع النظام الأموي .

ولعل في نعته بالرندي، ما يفصح عن الروابط المبكرة بين تمسامان ورندة الواقعة بكورة تاكرنا بالأندلس التي اشتهرت فيما بعد بكونها من أحصن القواعد البربرية بالعدوة الأندلسية ، وما يفصح من جهة أخرى عن صحة التحليل السابق المؤكد على المشاركة الفعلية لأهل نكور وتمسامان في فتح الأندلس إذ لا يستبعد أن يكون داوود الرندي هذا من أقطاب جيش طارق بن زياد وممن تعرض مثله للتهميش والاقصاء فرجع الى بلده الأصلي حانقا على بني أمية ، فاعتنق على غرار طريف البرغواطي المذهب الصفري . وبعدئذ حاول كلاهما اقامة كيانات صفرية محلية الأول بنكور والثاني بتامسنا .

ولا تعوز الدلائل الكاشفة عن تأثر ثورة عامة أهل نكور برياح المذهب الخارجي[156] التي هبت على مجموع بلاد المغرب منذ نهايات القرن الأول وبدايات القرن الثاني الهجري . ففي تاريخ ابي زكريا [157] بعض التفاصيل عن دخول داعيتين الى القيروان راكبين جملا واحدا "سلمة بن سعد يدعو الى الاباضية وعكرمة بن عباس يدعو الى الصفرية"، إذ بث الأتباع لنشر أصول المذهب نحو بلاد طنجة وأنحاء المغرب الأقصى .

---

153 – مجهول ، كتاب الاستبصار ، 136 .

154 – ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، 283 .

155 – البكري ، المصدر السابق ، 91 ؛ ابن عذاري ، البيان ، ج1 ، 176 ؛ ابن خلدون ، العبر ، ج 6 ، 283 .

156 – ولقد سبق لأحد الدارسين أن أشار الى هذه الحقيقة ، أنظر : ابو ضيف ، المرجع السابق ج1 ، 242 .

157 – كتاب سير الأئمة واخبارهم ، تحقيق اسماعيل العربي ، بيروت 1982 ، 41 .

ومن المظاهر الدالة على انتشار الدعوة الخارجية في أوساط القبائل التابعة لصاحب نكور ، ما أورده مؤلف كتاب الاستبصار[158] عن تخلي أهل غمارة عن تقاليدهم القديمة في اسدال الشعر واتخاذ الظفائر وتطييبها ، حتى دخل الاسلام "فحلقوا رووسهم" . وهو ما وضحه صاحب أخبار مجموعة [159] بالقول : "فما بال التحكيم فشا فيهم ورفع المصاحف وحلق الرؤوس اقتداء بالأزارقة وأهل النهروان".

ومن المعروف أن ميسرة المدغري رأس الصفرية قد خرج بالمغرب الأقصى "وقام على عمر بن عبد الله المرادي بطنجة فقتله ، وثارت البربر كلها مع أميرهم ميسرة"[160] سنة 121 هجرية . وليس أدل على ارتباط حركة عامة أهل نكور بقيادة داوود الرندي بثورة ميسرة المدغري الصفرية ، من قول صاحب أخبار مجموعة [161] بهذا الخصوص : " وثب كل قوم من البربر على من يليهم فقتلوا وطردوا" . وقد سلفت الاشارة الى قيام أهل نكور على أميرهم صالح بن منصور وطردهم اياه من البلد .

ولعل في وسم حركتهم هذه بالردة وايعاز أسبابها الى ثقل شرائع الاسلام ، مايؤكد ذات الحقيقة . علما بدأب مؤرخي أهل السنة على التحامل على الخوارج ونعتهم بالمروق والزندقة[162] ، في سياق الخلافات المتأصلة بين الملل والمذاهب الاسلامية ، المفصلة في مقالاتهم المختلفة [163]. والجدير بالذكر ان نفس المصادر التاريخية المعتمدة تقر بغلبة الاسلام على المغرب جميعه ، منذ نهايات القرن الأول الهجري[164] وان أكثر أهل المغرب الأقصى قد "أسلموا طوعا" قبل هذا التاريخ . وهو نفس المنحى الذي ترسخ بعدئذ ، كما

158 – المصدر السابق ، 193 .

159 – المصدر السابق المخطوط، 16 – 17 .

160 – ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج1 ، 52 .

161 – المصدر السابق ، 15 .

162 – ويقدم ابن أبي زرع بهذا الخصوص مثالا نموذجيا مشفوعا بجملة من عبارات القذف والسب ، كما داب على ذلك المخالفون من الملل الاخرى مما امتلات بمثله بطون كتب الفرق الاسلامية ، المصدر السابق ، 130 .

163 – راجع على سبيل المثال : ابن حزم ، الفصل في الملل والأهواء والنحل ، تحقيق محمد ابراهيم نصر /عبد الرحمن عميرة ، بيروت 1985 ، ج5 ، 15 – 56 .

164 – النويرى ، المصدر السابق ، 211 .

يتجلى من نص الرسالة الجوابية التي بعثها عبد الرحمن بن حبيب الى الخليفة العباسي ابي جعفر المنصور إذ قال :"ان افريقية اليوم اسلامية كلها وقد انقطع السبي منها"[165] .

وفي رواية لابن عذاري [166] ما لا يترك مجالا لمسايرة التفسيرات العقائدية والعرقية [167] ، اذ تكشف بوضوح عن ارتباط ثورات الخوارج في المغرب الأقصى بالسياسة الاقتصادية [168] التي دأب عامل بني أمية عمر بن عبد الله المرادي على تطبيقها بعموم بلاد طنجة ، "فكان فعله الذميم هذا سببا لنقض البلاد ووقوع الفتن العظيمة" . والجدير بالملاحظة ان الثوار انفسهم وعامة المتضررين لم يخفوا هذه الحقيقة اذ دافعوا عن تصرفهم بالتصريح "انهم إنما خرجوا ضيقا من سير عمالهم [169] ، وليس ردة عن معتقداتهم .

والحقيقة ان في مضامين النصوص السالفة التي تتناول دوافع ثورة أهل نكور ، ما يفصح عن ضعف الجانب العقائدي وعدم رسوخ الانتماء الخارجي وسطحية القناعات المذهبية . خصوصا وأن نكور - على عكس بلاد تامسنا والسوس الأدنى - قد نعمت بالاستقرار ككيان مستقل في ظل عقود الصلح والمسالمة ، وظلت الى حدود العقد الثاني من القرن الثاني الهجري ، في منآى عن تبعات السياسة الجبائية الأموية ، اللهم ما يقتضيه عقد الاقطاع السالف الذكر من التزامات .

والراجح ان أهل نكور سرعان ما عمدوا الى التنصل من بيعة ميسرة المدغري رأس الصفرية ، بعد انصرافه الى طنجة عقب لقائه بجند الوالي الأموي على افريقية عبيد الله بن الحبحاب بقيادة خالد بن أبي حبيب الفهري [170] ، إذ "أنكرت عليه البربر سيرته وتغيره عما

165 - ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج 1 ، 42 .

166 - نفسه ، ج 1 ، 52 .

167 - ذهب أحد الدارسين الى ان السبب في قيام أهل نكور على أميرهم صالح بن منصور يرجع الى "ادراك البربر ضعف العرب في جميع أنحاء المغرب فثاروا عليهم" ، مصطفى ابو ضيف ، المرجع السابق ، 242 ، مسايرا بذلك التفسير العرقي الشائع الذي يختزل حركية تاريخ الغرب الاسلامي الوسيط في التعدد الاثني والاختلافات العشائرية .

168 - راجع بهذا الخصوص محمود اسماعيل ، التفسير الاجتماعي لثورات المغاربة ضمن كتابه: قضايا في التاريخ الاسلامي ، بيروت 1974 ، 117 - 118 .

169 - مجهول ، أخبار مجموعة ، المخطوط ، 15 .

170 - انظر التفاصيل لدى : محمود اسماعيل ، الخوارج ، 64 - 65 .

كانوا بايعوه عليه"، حسبما تواترته بعض المصادر التاريخية[171]. وبدل الاستمرار في ركوب التيار الصفري الذي آلت قيادته بعدئذ الى خالد بن حميد الزناتي[172]، آثرت نكور قطع الدعوة الخارجية والعودة الى الانتظام في سلك الخلافة الأموية . وهو ما عبرت عنه المصادر المتداولة[173] بالقول : ثم «تابوا من شركهم وقتلوا الرندي واستردوا صالحا».

ويقدم ابن عبد الحكم[174] رواية فريدة تنص على ان البربر لما تغيروا على قائدهم الصفري ميسرة المدغري وثاروا عليه و "قتلوه وولوا أمرهم عبد الملك بن قطن الفهري" . وهو ما اعتبره الدارسون[175] خطأ جليا لا يركن الى أي أساس تاريخي ، باعتبار ان عبد الملك بن قطن هذا من ولاة الأندلس وليس من ثوار الخوارج ، وعلما من جهة أخرى بان صفرية المغرب الأقصى قد أمروا عليهم حينئذ خالد بن حميد الزناتي السالف الذكر .

والغالب على الظن ان المقصود بالبربر في سياق هذا النص ، أهل نكور بالذات وقبائل بلاد طنجة الدائرة في فلكهم ، دون بقية بربر المغرب الأقصى . واذا استحضرنا القاعدة القبلية لامارة نكور المكونة حينئذ من صنهاجة وغمارة ، اضافة للحدث الهام المتمثل في انسحاب طريف هو الآخر خلال نفس الفترة من ميدان الثورة مع قبائل برغواطة الصنهاجية قصد التفرغ لتنظيم بلاد تامسنا المجاورة في كيان مستقل[176] ، ندرك السر في اقصاء ميسرة المدغري وانتقال زعامة الثورة الى زناتة ، ممثلة في شخص خالد بن حميد الزناتي . أسفر ذلك عن تحول ثقل الثورة الصفرية جملة من المغرب الأقصى نحو المغرب الأوسط وافريقية . وهي الحقيقة التي ابرزها ابن عذاري[177] بوضوح بقوله ان الخوارج بالمغرب الأقصى قد " تشتت جمعهم" .

171 – ابن عبد الحكم ، المصدر السابق ، 95 ؛ ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج 1 ، 53 .
172 – الرقيق القيرواني ، المصدر السابق ، 74 .
173 – البكري ، المصدر السابق ، 91 ؛ ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج 1 ، 176 ؛ مجهول ، الاستبصار ، 136 ؛ ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، 283 .
174– المصدر السابق ، 95 .
175 – راجع : الرقيق القيرواني ، المصدر السابق ، الهامش رقم 10 ، 74 – 75 ؛ محمود اسماعيل ، الخوارج ، هامش رقم 43 ، 65 .
176 – محمود اسماعيل ، مغربيات ، 25 .
177 – ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج1 ، 57 .

والجدير بالذكر ان معظم الأحداث المرتبطة بهذه الحقبة دارت رحاها أساسا ببلاد طنجة . فنقض الطاعة "لعبيد الله بن الحبحاب [تم] بطنجة وأقاليمها"[178] ، كما هو معلوم، وبالمثل فقتل عامله " عمر بن عبد الله المرادي [حدث] بطنجة"[179] ايضا . ومن جهة اخرى ، فلما عزم ميسرة المدغري على اجتثاث النفوذ الأموي من المغرب الأقصى وزحف الى اسماعيل بن عبيد الله بن الحبحباب القائم على بلاد السوس ، خلف "على طنجة عبد الأعلى بن حديج"[180] عاملا ، لحماية قواعده وركائز حركته . وبعدئذ، وجه ابن الحبحاب قوتين من افريقية : الأولى تحت قيادة حبيب بن أبي عبدة ، نزلت بمقربة من تيهرت الواقعة على التخوم الشرقية لبلد طنجة كما سلف الذكر ، لتكون بمثابة قاعدة خلفية . أما القوة الثانية فقد مضت تحت قيادة خالد بن ابي حبيب الفهري "حتى لقي ميسرة دون طنجة"[181] .

ويبدو ان أهل نكور عندما قتلوا داوود الرندي وقطعوا الدعوة الخارجية ، آثروا الانضواء من جديد في سلك الخلافة القائمة بواسطة إعلان التبعية الاسمية لوالي الأندلس . مما يشكل سابقة مثيرة للانتباه ، فالمعروف ان عمال بلاد طنجة وما والاها كانوا مرتبطين في اطار النظام الاداري الأموي بصاحب افريقية . الا ان الأمور كانت قد اختلت تماما على صاحبها ابن الحبحاب ، فاجتمع الناس عليه فعزلوه[182] على اثر هزيمة جند بني أمية في معركة الأشراف الشهيرة التي قتل فيها "حماة العرب وفرسانها وكماتها وأبطالها"[183] . ازداد الأمر سوءا بعدئذ في عهد خلفه كلثوم بن عياض الذي حصد احدى أكبر الهزائم في تاريخ بني أمية ببقدوره على ضفاف نهر سبو ، إذ آل مصير الجيش الذي بعثوه لردع الخوارج الى

---

178 – نفسه ، ج 1 ، 52 .

179 – نفس المصدر والصفحة .

180– نفس المصدر والصفحة ؛ ولدى ابن خلدون ان اسمه " عبد الأعلى بن جريج الافريقي رومي الأصل ومولى العرب" ، العبر ، ج6 ، 144 – 45 ؛ ولمزيد من التفاصيل عن الانتماء الخارجي الصفري لعبد الأعلى هذا انظر: نفسه ، ج6 ، 156 .

181 – الرقيق ، المصدر السابق ، 74 ؛ ولقد ذكر ابن عذاري بهذا الخصوص ان ذلك حدث «بمقربة من طنجة» ، المصدر السابق ، ج 1 ، 53 .

182 – ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج1 ، 54 .

183 – نفس المصدر والصفحة .

"ثلث مقتول وثلث منهزم وثلث مأسور"[184] . ما كان أمام صاحب نكور للحفاظ على الحياد في ظل الاضطراب العام للأوضاع بمجموع بلاد المغرب، مع الرغبة في الالتزام برأي أهل السنة حول وجوب البيعة لامام ، الا الانخراط ولو شكليا في النظام عبر الولاية الأندلسية ، واضعا بذلك الأسس المبكرة للاندماج الحضاري بين الضفتين .

لم تكن الأوضاع لتستقر بقرطبة في يد الوالي عبد الملك بن قطن ، فسرعان ما طالبه بلج بن بشر بالولاية ، وكتب اليه من مرسى أم حكيم بالجزيرة الخضراء "يعلله انه خليفة كلثوم"[185] بن عياض صاحب افريقية من قبل الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك ، شهد له بذلك ثلة من أهل الأندلس منهم ثعلبة الجذامي وأصحابه . ويكشف الحميدي[186] ان بلج بن بشر "كان واليا على طنجة وما والاها" أيضا . وقد اضطر كما هو معلوم الى الانسحاب بطالعة الجند الشامي الشهيرة مفلولا ضمن الثلث المهزوم من طرف الخوارج ، الى سبتة ، ومنها استغاث صاحب قرطبة ليسمح له بالمجاز فـ "شرط عليه مقام سنة بالأندلس ، ثم يخرجون عنها"[187] جميعا .

ان في هذه النصوص ما يؤكد اضطرار صاحب افريقية في ظل الارتباك الشامل للنفوذ الاموي بالمغرب الأقصى الى ربط عمالة طنجة وما والاها بولاية الأندلس ، وما يكشف من جهة أخرى عن صحة ما ذهبنا اليه من اقرار صاحب نكور بالتبعية الاسمية لقرطبة .

استمر العبد الصالح صالح بن منصور أميرا على تمسامان وقبائل صنهاجة وغمارة بشمال المغرب الأقصى الى حين وفاته سنة 132 هجرية / 749 م فدفن على شاطئ البحر،

184 - مجهول ، أخبار مجموعة ، المصدر السابق المخطوط ، 18 .

185 - ابن عبد الحكم ، المصدر السابق ، 100 .

186 - المصدر السابق ، 180 .

187 - ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج 2 ، 30 .

188 - ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، 284 . ذكر البكري ، المصدر السابق ، 92 ، ان قبره بها يعرف الى اليوم أي الى زمنه خلال القرن الخامس الهجري ؛ انظر كذلك : مجهول ، الاستبصار ، 136. والملاحظ ان موضع دفنه ما زال لحد الآن معروفا في قبيلة تمسامان بـ"سيدي صالح" بل وحتى القرية المذكورة في نص البكري لم تفقد اسمها ، إذ ما زالت الى اليوم من ضمن التجمعات القروية الهامة بالمنطقة وتحتفظ بنفس التسمية ، التي ينطقها أهل المنطقة بلكنتهم : "إيذي" ، انظر خريطة رقم 7.

[188] على مقربة من القرية التي مازالت الى اليوم تحتفظ باسمها القديم : إقطي. وتوافق وفاته تاريخ سقوط الخلافة الأموية وقيام الدولة العباسية[189] . من ثم ، لم يعد لعقد الاقطاع الذي كان يربط امارة نكور بدمشق أية فعالية . وبذلك أصبحت نكور أول امارة غير مفارقة بالغرب الاسلامي ، مقدمة بذلك نموذجا فريدا للانتظام الاقليمي [190] في الحضارة العربية الاسلامية .

---

189 – عن شجرة انساب امراء بني صالح انظر: رسم رقم 9 الملحق في آخر الكتاب الذي انجزناه اعتمادا على المادة المتناثرة في جملة من المصادر العربية المعتمدة . ومن الملاحظ ان سلاسل النسب المنجزة لحد الآن عن امراء نكور غيرمستوفية انظر: *Encyclopédie de l'Islam,* Leiden 1993, Vol. VII, p. 943 . بل ومن الدارسين من عمد خطا الى ادراج بني صالح ضمن سلسلة انساب بني عاصم اصحاب سبتة ، مما يدل على درجة الغموض الذي مازال يكتنف ابجديات الموضوع . راجع : ادوارد فون زامباور ، المرجع السابق ، 112.

190 – عن الأقسام المعروفة للامارة على البلدان في الفكر السياسي العربي الاسلامي الوسيط : العامة والخاصة ، الاستكفاء والاستيلاء ، راجع : الماوردي ، الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، بيروت 1978 ، 30 – 32 .

الفصل الثاني

نكور في عصرها الذهبي

أولا : طور الازدهار .

على إثر وفاة العبد الصالح مؤسس الامارة صالح بن منصورتبدأ مرحلة جديدة من تاريخ البلد . فبانتقال الملك الى أحد ابنائه الثلاثة [1] المعتصم ، يتم وضع القواعد الأولى للحكم والأخذ بمبدأ الوراثة في النظام السياسي للامارة الفتية . ويضيف البكري[2] ان أهل البلد هم الذين "ولوا المعتصم" دون أخويه ، بمعنى أن ثمة أهل حل وعقد كانت لهم سلطة اختيار الامير ضمن المرشحين في اطار المبدأ السابق .

ولا غرو ، فالمعتصم هذا اشتهر بكونه "شهما شريف النفس كثير العبادة"[3] ، مما يدل على اقتران النظام السياسي لبني صالح بالطابع الأخلاقي والديني[4] المرتبط بتفقيه

---

1 – وهم كالتالي : المعتصم وادريس ، أمهما صنهاجية وعبد الصمد . البكري ، المرجع السابق ، ج1 ، 176. والملاحظ ان ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، 172 يسقط عبد الصمد سهوا على ما يبدو .

2 – المصدر السابق ، 92 ؛ ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج1 ، 176 .

3 – ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، 384 .

4 – ولقد تفطن أحد الدارسين الى هذه الحقيقة ، ولم يعمد مع ذلك الى متابعة جذورها ، انظر : Guillermo GOZALBES , *op.cit*, p. 45.

الناس وتعليمهم والسهر على اقرار العدل [5] في ظل الشرائع الجديدة . لذلك وسم سلفه "بالعبد الصالح" منذ حل بتمسامان داعيا الى الاسلام . ينم ذلك عن قرائن اضافية تستبعد حلول جيش حميري يمني فاتح الى المنطقة حسبما بيناه في التحليل السابق . ولعل في احتفاظ خلفه المعتصم بولاية "الصلاة والخطبة لهم" [6] الى جانب مهام الامارة ما يعكس ذات الحقيقة . لكن سرعان ما عاجلته المنية لأيام يسيرة في نفس عام ولايته .

أسندت الامارة بعدئذ لاخيه ادريس بن صالح الذي ترتبك الروايات التاريخية بخصوص ما أوردته عنه من أخبار . فالبكري [7] الذي يعتمد على كتب محمد بن يوسف الوراق المفقودة ، أوفى ما كتب عن تاريخ نكور، يسقطه من ضمن لائحة أمراء نكور ، إذ يذكر ان الامارة انتقلت بعد وفاة المعتصم مباشرة الى يد ابن أخيه سعيد بن ادريس . وبينما تجمع بقية الروايات [8] على تولية المعتصم ، ينص ابن خلدون على ان ادريس بن صالح قد استمر في الحكم بعدئذ الى غاية وفاته عام 143 هجرية / 760 م ، وهو الأرجح . في حين ، تقتصر مدة ولايته حسب ابن الخطيب في ثلاث سنوات فقط ، توفي بعدها . وهو ما لا يستقيم مع ما تواترته المصادر حول مدة ولاية خلفه سعيد بن ادريس .

والراجح ان أعمال ادريس بن صالح هذا كانت من الأهمية في استكمال أسس نظام الامارة وتوسيع قاعدة نفوذها ان اختلط الأمر على كثير من الرواة ، الى حد عدم التمييز بينه وبين سلفه العبد الصالح . فقد سلفت الاشارة الى أن المؤرخ المغربي المتأخر الزياني [9] قد ذكر انه "في أيام عبد الملك بن مروان دخل المغرب من افريقية ادريس بن صالح الحميري ونزل الريف وهو الذي بنى النكور" . بينما يقر صاحب الاستبصار [10] ان مدينة نكور

---

5 – الزياني ، المصدر السابق ، 81 .

6 – ابن خلدون، العبر، ج6 ، 284. يقدم ابن أبي زرع، المصدر السابق، 20 بخصوص السلطات المخولة للأمير امكانية المقارنة مع الامارة الادريسية التي تأسست لاحقا بمنطقة وليلي، فادريس الأول كذلك بايعته القبائل على " الامارة ...وصلواتهم وغزوهم وأحكامهم" .

7 – المصدر السابق ، 92 .

8 – ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، 184 ؛ ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج1 ، 176 ؛ ابن الخطيب اعمال الاعلام ، 172 .

9 – المصدر السابق ، 81 .

10 – المصدر السابق ، 136 .

"أزلية افتتحها سعيد بن ادريس بن صالح الحميري" . ويبدو الخلل والارتباك واضحين من خلال رواية محمد بن عبد المنعم الحميري[11] بقوله : انها "قديمة أزلية افتتحها سعيد بن ادريس بن صالح الحميري أو بناها" . وربما في تناقض المصادر الأصلية المعتمدة والخلط فيما يتعلق بعدد من الروايات ، ما حذا بالبكري الى اسقاط ادريس بن صالح احلالا لبعض الانسجام في سلسلة نسب امراء بني صالح .

ويرجع أصل الخلط فيما يبدو الى ادماج أوائل الرواة بين عمليتين متباعدتين ، الأولى : نشر الاسلام والتعريف بقواعده بتمسامان والقبائل المجاورة خلال الافتتاح الأول ، وهي التي باشرها صالح بن منصور العبد الصالح المؤسس للكيان . والثانية : وضع القواعد الأولى لبناء مدينة نكور ، التي اقترن اسم الامارة بها طوال القرون اللاحقة ، وذلك خلال الثلاثينيات من القرن الثاني الهجري الى حدود وفاة ادريس بن صالح سنة 143 هجرية / 760 م . أكد ابن خلدون[12] ذلك بقوله في رواية فريدة : ان ادريس هذا قد "اختط مدينة نكور في عدوة الوادي ولم يكملها" .

ومن المعلوم ان الضفة اليسرى لعدوة الوادي تقع خارج دائرة النفوذ القبلي لبني يصليتن . ولقد سبق لصالح بن منصور ان "أنزل [بها]نفرا من البربر"[13] ، غالبا بهدف تقوية مركز الامارة وتعضيدها ، بعدما حل بها من الوهن الناتج عن الاضطرابات التي تلت قيام داود الرندي ثم مقتله واجتثاث انصاره من الخوارج . ولقد كان هذا النفر "يقيمون هناك سوقا"[14] ، يبدو انها كانت بمثابة النواة الأولى للتبادل بين الضفتين والمجموعتين القبليتين

---

11 - المصدر السابق ، 577 .

12 - العبر ، ج6 ، 284 .

13 - البكري ، المصدر السابق ، 92 .والمقصود بالانزال "نزول الناس بعضهم على بعض ، ومعنى أقمت لهم نزلهم أي أقمت لهم غذاؤهم وما يصلح معه ان ينزلوا عليه ، ابن منظور ، لسان العرب ،ج6 ، 4399 – 4400 والنزل الريع والفضل . للمقارنة عن انزال الجند الشامي في نفس الفترة تقريبا ببعض كور الأندلس التي اشتهرت لذلك باسم الكور المجندة ، انظر : ابن القوطية ، المصدر السابق ، 44 . وهناك أساسا صنفان من الانزال : الاول انزال الاستغلال على فائدة المال ، والثاني انزال التمليك على رقبة أصله . راجع لمزيد من التفاصيل : ابن رشد ، الفتاوى ، تحقيق المختار بن الطاهر التليلي ، بيروت 1987 ج1 ، 244 و 294 ؛ الونشريسي ، المصدر السابق ، ج 6 ، 198 .

14 - البكري ، المصدر السابق ، 92 .

المصاقبتين . من ثم بواكير التحول الحضري ، الذي بادر ادريس بن صالح لبلورته بوضع اللبنات التأسيسية لما أصبح لاحقا عاصمة .

بفضل هذه الأعمال ، نال ادريس بن صالح واضع أسس مدينة نكور من تمجيد أهل بلده ، أن فاقت شهرته شهرة والده مؤسس الامارة صالح بن منصور . وليس أدل على صحة ذلك ، من إقدامهم على تخليد ذكره باعداد قبر له عند وفاته على شط البحر بالموضع الذي ما زال لحد اليوم يعرف بـ "سيدي ادريس" . من ثم فلا غرابة فيما حدث من خلط لدى المتأخرين عند نقل بعض ما يتعلق بأخبارهما .

نستشف من خلال القراءة في بعض النتف المتعلقة بممهدات قيام الامارة الاموية بالأندلس على إثر سقوط دولتهم بالمشرق ، ما يفصح عن دعم ادريس بن صالح لهذا المشروع إن لم يكن الاسهام في تحقيقه . يذكر ابن حزم[15] اعتمادا على رواية يعقوب بن اسحق الكندي ان عبد الرحمن بن معاوية اختفى في أول دولة بني العباس "بقنسرين أربعة أشهر، عند فرج بن أبي دؤاد جد القاضي المعتزلي أحمد بن محمد بن ابى دؤاد . ثم التحق بعدئذ عبر مصر بنواحي افريقية فاقام "في أخواله نفزة من قبائل البربر"[16] المتاخمة لطرابلس . ومن المعلوم ان "أمه بربرية من سبي المغرب"[17] ، تتأرجح المصادر على تسميتها "راح" و "راحا" ورداحا . الا ان عيون صاحب افريقية سرعان ما شعرت به[18] ، مما اضطره الى الاختفاء عن الأنظار "فلم يزل مستترا ينتقل في بلاد المغرب"[19] خلال ما يقرب من خمس سنوات الفاصلة عن دخوله الأندلس سنة 138 هجرية / 755 م .

من الطبيعي ان تتضارب الروايات إن لم يكن الشائعات المقصودة ، حول المكان الحقيقي الذي أقام فيه عبد الرحمن بن معاوية بعد مغادرته افريقية ، فقيل بمغيلة وقيل

---

15 - الجمهرة ، 328 .

16 - ابن الأبار ، الحلة السيراء ، تحقيق حسين مؤنس ، القاهرة 1963 ، ج1 ، 35 ؛ انظر كذلك ، ابن خلدون ، المقدمة ، تحقيق خليل شحادة ، ج4 ، 155 .

17 - ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج2 ، 47 . عن الاختلاف في رسم الاسم راجع ايضا : عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق ، 16 ؛ ابن الابار ، الحلة السيراء ، ج1 ، 35 .

18 - المقري ، المصدر السابق ، ج 1 ، 328 .

19 - عبد الواحد المراكشي ، المعجب ، 16 .

بمكناسة أو بمليلة "ويقال نزل على قوم من زناتة"[20] ، بل وذكر انه سار حتى تادلا . والراجح انه ذهب مع مرافقيه رأسا الى تمسامان حيث الفرع الآخر من أخواله نفزة ، ليحتمي بامارة نكور من مخاطر العباسيين والخوارج على السواء . والغالب على الظن انه قد باشر اتصالاته بزعماء العصبيات ووجوه الموالي الامويين بالأندلس لترتيب أمر دخوله انطلاقا من تمسامان بمساعدة وتشجيع أميرها ادريس بن صالح .

كشف عن ذلك بوضوح تام اليعقوبي[21] إذ قال متحدثا عن نكور: "ومن هذه المدينة جاز رجل من ولد هشام بن عبد الملك بن مروان ومن معه من آل مروان الى جزيرة الأندلس لما هربوا من بني العباس" . نجد تأكيد ذلك في رواية ثانية أوردها ابن عذاري [22] مصرحا ان عبد الرحمن بن معاوية عند دخوله على بعض قبائل المغرب الأقصى ناله عندهم تضييق "ثم هرب من عندهم حتى أتى نفزة وهم أخواله" . ومن المعلوم انه عندما تجرد لدخول الأندلس ،"نزل بساحل المنكب"[23] باعتباره أقرب الموانئ الأندلسية الى تمسامان ، والواقع في نفس خط طول ميناء وادي البقر[24]، الذي من المرجح ان يكون منطلق هذه الرحلة التي بصمت بعمق مجموع تاريخ الغرب الاسلامي الوسيط .

وهو نفس الخط البحري الذي استعمله مولاه بدر مع ثلة من الموالي المساعدين في عدد من الرحلات التحضيرية التي ترددت بين العدوتين طوال السنتين السابقتين لقيام الامارة الاموية . فقد ورد على لسانه القول : "جزت الى الأندلس واجتمعت بعبيد الله بن عثمان بساحل البيرة في آخر سنة 136 ثم انصرفت في سنة سبع بعدها وأقمت عنده مدة ثم كررت منصرفا الى الأندلس في موالي عبد الرحمن"[25] ، مما يكشف عن سهولة وقرب المجاز.

20 - المقري ، المصدر السابق . ج 1 ، 328 ؛ ابن خلدون ، المقدمة ، ج4 ، 155 .
21 - المصدر السابق ، 347 .
22 - المصدر السابق ، ج 2 ، 41 .
23 - المقري ، المصدر السابق ، ج 1 ، 328 .
24 - الحميري ، المصدر السابق ، 128 . ويقع عند مصب "اغزار أمقران" الذي ما زال يحتفظ الى اليوم بنفس الاسم . ويبدو ان المصادر العربية او لربما النساخ قد حرفوا "أمقران" الذي يعني الكبير الى كلمة البقر ، بينما أفلحوا في ترجمة "أغزار" الى الوادي .
25 - ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج 2 ، 14 .

آلت الامارة بعد وفاة ادريس بن صالح الى ابنه سعيد عام 143 هجرية/ 760 م، فشرع لأول ولايته في استكمال مشروع بناء مدينة نكور لتكون بدل تمسامان الحاضرة الجديدة للامارة ، في الموقع المعروف لدى عامة أهل البلد الى اليوم بالمدينة[26] على بعد خمسة أميال من شط البحر .

وبغض الطرف عما سلف ذكره عن الأعمال التمهيدية الأولى ، تجمع المصادر التاريخية [27] على الاقرار بان سعيد بن ادريس هو الذي أسس مدينة نكور وبناها واختط عمرانها ، ثم نزلها ونقل اليها خاصة رجاله ومقر الامارة من مدينة تمسامان . أردف ذلك بنقل التجار والحرفيين ممن كانوا يقيمون سوقا مجاورة منذ عهد جده صالح بن منصور الى داخل "المدينة التي أسس"[28] ليصبحوا بذلك بمثابة النواة الاولى لطبقة العامة بالحاضرة . مما يفصح عن التكامل بين النمو السياسي والنشاط التجاري والحرفي في توفير الاسس

---

26 – وينطقونها "تمدينت" ، وتعرف ايضا لديهم بـ "أزرو نتسريث" أي صخرة العروس. وقبل اقامة سد محمد بن عبد الكريم الخطابي ، كانت الأحواض السفلى على يمين المدينة ، في شكل سبخة تتجمع فيها مياه السقي ، وتعرف لدى الفلاحين باسم " ثندا حوا" أي سبخة حواء . ولقد ارتبط هذين الاسمين وموقع المدينة في الذاكرة الشعبية بعدد من الحكايات الرمزية والأحاجي الأسطورية التي استمرت الى عهد قريب موضوعا مفضلا في ليالي السمر المحلية. ومن المعروف لدى المعمرين وذوي الأسنان أن جزءا من سورالمدينة ظل الى منتصف القرن الحالي قائما . وبصرف النظر عما التقط من قطع أثرية دالة ، على إثر بعض المعاينات الأركيولوجية التي أجريت بالمنطقة ، انظر: Ahmed MEKNASI , "Reconocimientos arquelógicos en el Rif ",*Tamuda,* Año VII, Tetuán,1959,159 فما زالت أرضية المدينة زاخرة بقطع الفخارالمحلية مما يجعل الشكوك التي عبر عنها بعض الدارسين بخصوص تحديد موقع المدينة بدون معنى .

27 – البكري ، المصدر السابق ، 91 ؛ ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج1 ، 176 ؛ ابن خلدون ، العبر ، ج 6 ، 284 ، الحميري ، المصدر السابق ، 134 و577 ؛ مجهول ، كتاب الاستبصار، 136 . وفي سياق الخلط العام في التواريخ لدى ابن الخطيب ، يذكر ان سعيد بن ادريس قد بنى نكور سنة 123 هجرية .

28 – البكري ، المصدر السابق ، 92 . انظر رسم رقم 8 .

لبواكير التحول الحضري[29]. ولعل في اعتبارها "أول مدينة بنيت بالمغرب"[30] في الاسلام ، ما يؤكد جذورها السابقة قبل أن تصبح على يد سعيد بن ادريس "مدينة كبيرة"[31] وحاضرة "عظمى"[32] إن لم يكن من "أعظم" [33]حواضر دار الاسلام الى حدود القرن الثالث الهجري على الأقل . بذلك يكون بنو صالح هم الذين أصلوا القواعد لما أصبح لاحقا عرفا سياسيا جرى عليه كافة مؤسسي الدول المستقلة ببلاد المغرب قاطبة ، ببناء عاصمة جديدة لكل دولة مستحدثة[34].

لم يعد في ظل الظروف الجديدة من أهمية لرباط نكور الذي سبق لصالح بن منصور أن أقامه عند ملتقى نهري نكور وغيس بأكدال[35] ليكون منارة لنشر الاسلام في القبائل المجاورة . والغالب على الظن أن سعيد بن ادريس قد عمد الى تجديد هذه المعلمة العمرانية وتوسيعها وتطوير وظيفتها ، فأقام على أنقاضها "مسجدا على صفة مسجد الاسكندرية بمحارسه وجميع منافعه"[36] ، سرعان ما أصبح بمثابة مركز للعبادة والتبتل ومجمعا للعلم والاقراء وموقعا متقدما للاتصال ولحراسة الحاضرة من مخاطر الهجمات البحرية .

29 – زعم احد الدارسين Guillermo GOZALBES, *op.cit*, p. 45 ان لذلك ارتباط بالتجارة مع المرية اعتمادا على قول ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، 172 ان نكور مدينة عظيمة حافلة آهلة تقصدها المراكب من مرسى المرية . مع العلم ان المرية لم تنشأ الا لاحقا خلال عصر الخلافة .

30 – الزياني ، المصدر السابق ، 79 .

31 – الاصطخري ، المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال / محمد شفيق غربال ، القاهرة ، 1961 ، 34 ؛ الحميري ، المصدر السابق ، 576 .

32 – اليعقوبي ، المصدر السابق ، 357 ؛ ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، 172 .

33 – ابن حوقل ، المصدر السابق ، 78 .

34 – راجع التفاصيل لدى محمود اسماعيل ، الأدارسة ، 64 .

35 – لا يستبعد أن يكون أكدال هذا المنصوص عليه لدى البكري في مسالكه هو أصل تسمية السفح المجاور لملتقى النهرين المعروف اليوم بـ "أجدير"، علما بان نطق الجيم يستحيل في كثيرمن الأحيان الى كيم . ومن الشائع في نطق أهل البلد تحويل اللام راء .

36 – البكري ، المصدر السابق ، 91 . من المفيد أخذ هذه المعطيات بعين الاعتبار للقيام بمعاينات أركيولوجية في السفوح اليسرى لوادي غيس المواجهة للبحر المتوسط قبالة جزيرة نكور، بهدف تحديد موقع هذه المعلمة .

لعل في توجهات سعيد بن ادريس الحضرية ورغبته في تمتين خطط الدولة وتركيز نفوذها السياسي والاداري والمالي في أوساط القبائل الموالية ، ما حذا بقبائل غمارة[37] التي شكلت الى جانب بطون صنهاجة عماد الامارة ، الى الخروج عن الطاعة ، و"انتفضت غمارة... على سعيد فخلعوه وولوا عليهم رجلا منهم اسمه مسكن"[38] . والملاحظ ان المصادر المعتمدة قد اضطربت بخصوص هذه الواقعة اضطرابا بينا واختلطت عليها الأحداث وتشابكت التواريخ ، ان لم يكن قد تدخل النقلة بالحذف والتعديل في نصوص الروايات الأصلية أملا في تحقيق بعض الانسجام بين العناصر المكونة للسياق .

فبدل غمارة ، يذكر البكري[39] ان البرانس هي التي قامت على سعيد بن ادريس وقدموا على أنفسهم رجلا يسمى سكن" أو مسكن[40] كما ورد في النص السابق . ويستمر في ايراد تفاصيل تشبه ان لم يكن تطابق في الرسم والمعنى الأحداث الواردة لدى ابن خلدون ، الذي ينفرد بذكر اجتماع البرانس الى سعيد بن ادريس لاعانته على اخراج المجوس من المدينة وليس للثورة عليه ، ثم "انتفضت غمارة بعدها"[41] .

وحتى تنسجم روايته تاريخيا مع عهد هذا الأمير الذي توفي حسب النص عام 188 هجرية بعد 37 سنة من الحكم ، لم يتردد ابن خلدون عن اسقاط قرن من الزمن في تأريخه دخول المجوس الى المدينة ، فجعله بدل سنة 244 هجرية كما هو معلوم عام 144 ، معتقدا انه بذلك يكون قد صحح تصحيفا في الرواية الأصلية المعتمدة من طرفه ، حتى تغدو منسجمة مع الحقائق التاريخية .

ومع اقرار البكري بان المجوس قد دخلوا نكور سنة 244 هجرية ، يسقط حدث اجتماع البرانس الى سعيد لاخراجهم من المدينة ، ويصمت عن ذكر انتقاض غمارة . وإذ يكتفي بذكر المدة التي قضاها سعيد بن ادريس في الحكم وهي 37 سنة ، متفقا في ذلك

---

37 – وهم من بطون المصامدة . راجع ابن خلدون ، العبر ، ج6 ،280 .

38 – نفسه ، ج6 ، 284 .

39 – المصدر السابق ، 92 .

40 – وهو الراجح . عن شيوع هذه التسمية في القبائل البربرية ، أنظر : ابن خلدون ، العبر ، ج 6 ، 191 .

41 – نفسه ، ج6 ، 284 .

مع رواية ابن خلدون ، يغض الطرف عن ذكر تاريخ الوفاة. أما ابن عذاري فيقتصر على نقل المادة الواردة لدى البكري نصا ومضمونا مع ميل طفيف الى التلخيص. في حين آثر ابن الخطيب اهمال الحديث جملة عن هذه الحركة .

وبالرجوع الى سياق مختلف هذه الروايات، يتضح ان الخلل راجع الى ارتباك النقلة عند معالجتهم للمصادر الأصلية ، نتيجة الميل الشديد الى تلخيص أخبار نكور ودمجها في سياق تواريخ عامة لبلاد المغرب . فبعد التطرق لحدث بناء نكور من طرف سعيد بن ادريس ، تصبح المدينة محور الحديث الذي سرعان ما ينعرج على ذكر تفاصيل احتلال المجوس لها بعدمضي ما ينيف على قرن من الزمن ، خلال سنة 244 هجرية . ثم يتم الرجوع بعدئذ على بدء الى امارة المؤسس سعيد بن ادريس لاستكمال أحداث ولايته بثورة غمارة ، التي اختلط أمرها على البكري ومن نقل عنه فاعتبرها ثورة البرانس .

ويبدو ان سياق الروايات الأصلية المفقودة المعتمدة من طرف هؤلاء تنتهي في تأريخها لدخول المجوس الى نكور بحدث تخليصها من طرف أميرها صالح بن سعيد بمساعدة البرانس ، وهؤلاء سوف يثورون بعدئذ على غرار غيرهم من القبائل على خلفه سعيد بن صالح . ولعل في اشتباه أسماء الأميرين سعيد بن ادريس وسعيد بن صالح ، ما أوقع البكري في الخطأ عندما عمد الى تلخيص التفاصيل التي أوردها الوراق في كتابه المفصل عن أخبار ملوك نكور .

والملاحظ ان ما قدمه البكري من تفاصيل هامة، منسوبا للبرانس يوافق تماما ما ذكره ابن خلدون عن ثورة غمارة المضبوطة تاريخيا بولاية سعيد بن ادريس . وتقدم رواية ابن الخطيب نموذجا بينا عن شيوع الخلط في الروايات المتأخرة المتعلقة بهذين الأميرين اللذين يحملان نفس الاسم : سعيد بن ادريس الذي ملك الى حدود وفاته عام 188 هجرية سبعا وثلاثين سنة حسب أغلب الرواة ، وسعيد بن صالح الذي تأمر الى حين مهلكه سنة 250 هجرية ما ينيف عن ستين سنة . يتجلى ذلك في انفراده برواية مبالغة تذكر ان سعيد بن ادريس "ملك سبعا وستين سنة" [42] ، مما كان له أبلغ الأثر في تضليل الدراسات

42 - اعمال الأعلام ، 174 .

المعاصرة [43] التي تناولت هذه الحدث . كادت حركة هذه القبائل الجبلية الضاربة في السفوح والمسالك الوعرة بالجهة الغربية أن تعصف بالامارة ، إذ زحفت على مقرها بنكور وتألبت على ادريس بن صالح "من كل جهة وغزوه في عقر داره"[44] . والملاحظ انه في سياق ارتباك أحداث هذه الثورة على البكري والناقلين عنه [45] ، عمدوا الى دمج ما يتعلق بها من تفاصيل مع ما يرتبط بأحداث ثورة البرانس التي يبدو انها حدثت لاحقا في عهد سعيد بن صالح الذي يحمل نفس اسم جده كما سلف الذكر .

لا يستبعد ان تكون ثورة غمارة هذه قد تأثرت بالدعوة الواصلية التي ركزت نشاطها في المغرب الأقصى بالأجزاء الغربية من بلاد طنجة منذ وقت مبكر . والراجح ان الاعتزال قد وجد طريقه الى هذه الأصقاع على يد دعاة واصل بن عطاء خلال العقود الثلاثة الأولى من القرن الثاني الهجري [46]. يذكر ابو القاسم البلخي [47] انه عندما فرق الرسل الى الآفاق "أنفذ الى المغرب عبد الله بن الحارث فأجابه الخلق" . على غراره ، يشير القاضي عبد الجبار [48] الى هذه الحقيقة ، اعتمادا على رواية أبي الهذيل الذي يؤكد ان واصل بن عطاء "بعث عبد الله بن الحارث الى المغرب" ، ثم يضيف بانه على إثر مقتل بشير الرحال أحد أقطاب الاعتزال بالمشرق "لحق بعض أولاده وأصحابه بالمغرب"[49] لائذين .

لا تعوز القرائن الدالة على حلول الاعتزال محل المذهب الخارجي الصفري في كثير من المناطق الواقعة بأقصى شمال غرب المغرب الأقصى ، قبل دخول ادريس بن عبد الله العلوي اليها بعقود . يتجلى ذلك من خلال اعتناق احدى اكبر القبائل الضاربة حول وليلي

---

43 – منهم من ذهب الى حد الاقرار بحدوث تحالف بين قبائل البرانس وقبائل غمارة وتنظيم ثورة بهدف الاجهاز على امارة نكور ، مع تحديد تاريخ ذلك في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ، أبوضيف ، المرجع السابق ، 250 - 253 .

44 – البكري ، المصدر السابق ، 92 .

45 – انظر : ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج1 ، 176 .

46 – لمزيد من التفاصيل راجع البحث الذي خصصه محمود اسماعيل لهذا الموضوع ضمن : مغربيات ، 126 . وعن الروابط التي انعقدت بين الاعتزال والحركة العلوية الزيدية بالمغرب الأقصى انظر : محمود اسماعيل ، الأدارسة ، 49 – 57 .

47 – المصدر السابق ، 66 – 67 .

48 – ضمن نفس الكتاب : فضل الاعتزال ، 237 .

49 – نفسه ، 227 .

لهذا المذهب، إذ تجمع المصادر المتاحة[50] ان شيخ قبيلة أورية كان معتزليا. ينطبق نفس الشيء على عدد من البطون الزناتية القاطنة ببلاد تامسنا ، كما يتضح مما ذكر عن بعض أوائل الأقطاب من أمثال "زيدبن سنان الزناتي صاحب الواصلية"[51] ، بل وهناك اشارات هامة تكشف عن المناطق التي غلب عليها الاعتزال بالمغرب الأقصى . فاضافة للبيضاء[52] التي كان "فيها مائة ألف تحمل السلاح يقال لهم الواصلية" ، فان أهل "طنجة وما والاها من بلاد المغرب هم المعتزلة"[53]. أكد ذلك الشهرستاني [54] أحد أشهر مؤرخي المذاهب الاسلامية بالقول : والواصلية «بالمغرب الان منهم شرذمة قليلة» في بلاد الادارسة .

وفي صياغة هذه العبارة ما يفصح عن تناقصهم التدريجي طوال الفترة الفاصلة بين الجذور خلال بداية القرن الأول الهجري الى أيام الشهرستاني ، الذي توفي كما هو معلوم خلال القرن الخامس سنة 479 هجرية . ويقدم كل من الجغرافي ابن حوقل[55] والفقيه الأندلسي الظاهري ابن حزم المتضلعين في علم الأنساب لوائح عن عدد من البطون القبلية البربرية المعروفة بتأصل الاعتزال في أوساطها ، تفيد في القاء بعض الأضواء على جوانب من هذا الموضوع ، من خلال التأصيل الجغرافي لمضاربها .

ومهما يكن من أمر، فان سعيد بن ادريس قد تمكن من القضاء على ثورة غمارة وفرق جماعتهم وقتل مقدمهم ، فلم يجد من بقي منهم بدا من الرجوع الى الطاعة [56]

---

50 - ابن أبي زرع ، المصدر السابق ، 19 ؛ مجهول ، الاستبصار ، 195 ؛ البكري ، المصدر السابق ، 118 .

51 - ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج1 ، 225 .

52 - البلخي ، المصدر السابق ، 119. لا ندري أي بيضاء يقصد ، ومن المعلوم أن عديدة هي المراكز التي عرفت بهذا الاسم ، منها بيضاء المغرب التي يحددها الادريسي على الساحل الأطلسي في موضع جون على بعد ثلاثين ميلا من مزيغن ، مكتبة الثقافة الدينية ، م1 ، 240 لمزيد من التفاصيل : معلمة المغرب ، الجمعية المغربية للتاليف والترجمة والنشر سلا 1992 ، ج6 ، صفحات 1950 - 1951 . والراجح ان المقصود بالبيضاء هنابلاد طنجة بالذات .

53 - نفس المصدر والصفحة .

54 - المصدر السابق ، ج1 ، 46 .

55 - المصدر السابق ، 97 .

56 - ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج1 ، 176 ؛ ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، 284 .

والانخراط في سلك الجماعة . ويبدو انه قد استغل هذا الانتصار لتوسيع نفوذ الامارة من جهة الغرب الى قبيل من غمارة يعرفون ببني مروان وبني حميد[57] . ويمكن من خلال تتبع مواطن العصائب القبلية من ضبط أقصى الحدود الغربية لامارة نكور في أحواز تيكساس حيث يقيم بنو مسارة أحد الفروع المتقدمة من قبائل بنى حميد[58] المنضوية في سلك الدولة الادريسية ، إذ يبدو انهم كانوا بمثابة الحد الفاصل من هذه الجهة بين الامارتين[59].

وتتعمق مناطق نفوذ آل صالح الى الداخل مصاقبة الفروع المتقدمة من قبائل أوربة ، الواقعة خارج حدود الامارة . أقصاها من هذه الناحية "مدينة يقال لها مرحايه على جبل تحتها انهار وأودية وعمارات ثم يصير منها الى مملكة بني ادريس بن ادريس"[60] .

ومن الناحية الشرقية ، تمتد الامارة مسيرة خمسة أيام الى مواطن زواغة[61] الواقعة

---

57 - البكري ، المصدر السابق ، 90 . ما زالت مواطنهم الى اليوم بناحية مدينة الشاون تعرف بنفس الاسم "بني حميد" وتمتد فروعهم شرقا الى موقع تيكساس على البحر المتوسط ، وتوجد جماعة أخرى مصاقبة لبني بشير وبني عمرت باقليم الحسيمة تحمل نفس الاسم "بني حميد" ، انظر: Patrice CRESSIER , *Prospection archéologique dans le Rif , Zone de l'ancien royaume de Nakur* , thèse de 3è cycle presentée à l'Université de Paris-Sorbonne, fig.3 ويشيرابن خلدون بهذ الصدد الى ان بنو حميد من أشهر بطون المصامدة ، العبر، ج6 ، 281 .

58 - البكري ، المصدر السابق ، 108 .

59 - يذكر ابن أبي زرع ، المصدر السابق ، 20 غمارة من ضمن الوفود القبلية التي وفدت على ادريس بن عبد الله بوليلي يوم الجمعة 4 رمضان عام 172 لتقديم البيعة له . وبعد وفاة ادريس الثاني وتجرد خلفه الامير محمد لتقسيم الامارة ، ولى أخاه عمر مدينة تيكساس وترغة وما والاهما ، نفسه ، 51 . عن انضواء تيكيساس ضمن نفوذ آل صالح ثم اتجاهها بعدئذ الى الارتباط بالادارسة ووقوعها اخيرا ضمن نطاق هيمنة الخلافة الاموية بقرطبة راجع : Ahmed MEKNASI, "Campaña de excavaciones y exploración arqueológica", *Tamuda,* Tetuán 1957, año V, Tremestre I, pp 163-64.

60 - اليعقوبي ، المصدر السابق ، 357 .لم نتمكن من قراءة الرسم المذكورضمن هذا النص للتعرف على اسم المدينة المقصودة .

61 - أقر ابن خلدون بفقر المادة المعرفية المتعلقة بهذه القبائل وبجهله أخبارها إذ قال : " وأما زواغة فلم يتـاد الينا من أخبارهم وتصاريف أحوالهم ما نعمل فيه الأقلام" ، يضيف مع ذلك ان منهم بطون بنواحي فاس ، العبر ، ج6 . 170 .

بالموضع الذي أنشئت فيه لاحقا مدينة جراوة [62] ، على بعد مرحلة شرق مجرى وادي ملوية . وتنكسر حدود الامارة شمالا نحو مصب النهر حيث تمتد على ضفته اليسرى مساكن كبدانة ، ثم تنعرج بعدئذ في اتجاه مضارب غساسة [63] بجبل هرك ومواطن بني ورتردين بقلوع جارة [64] .

وبصرف النظر عن مرنيسة الذين «لا يعلم لهم موطن» حسب ابن خلدون [65] ، فمن القبائل المنضوية في سلك امارة نكور بهذه الجهة الشرقية نذكر بني يرنيان وبني مراسن وزناتة [66] الضاربة نحو الداخل في السهوب الجافة طول المجرى الأوسط لنهر ملوية . تتعمق

---

62 - أسست حسب رواية الحميري ، المصدر السابق ، 162 - 163 من طرف ابو العيش عيسى بن ادريس بن محمد بن سليمان الحسني الادريسي سنة 259 هجرية .

63 - وهم بطن من بطون نفزاوة ، استمروا بموضعهم على ساحل بطوية الى وقت متأخر يحملون نفس الاسم ، انظر : ابن خلدون ، العبر ، ج 6 ، 152 وكذلك صفحات 133 و150 .

64 - ما زالت طوبونيميا المنطقة تحتفظ بنفس الأسماء القديمة مع تعديلات طفيفة في اللفظ والرسم . فهرك المذكور في المصادر يقع شرق مدينة الناظور الحالية بمقربة منها ، ويعرف لدى أهل البلد باسم "بوعاك" . أما قلوع جارة ، فمن المعروف انها أصل التسمية الحالية لسكان المنطقة المعروفين بقلعية . ولقد ورد اسم بني ورتدي في بعض المصادر وورتردين او "ورتندي" حسب ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، 283 . وسوف نتطرق في الفصول اللاحقة لرسم هذا الموقع بمزيد من التدقيق .

65 - العبر ، ج6 ، 150 - 152 . وهم كذلك بطن من نفزاوة ، مع ذلك يصعب تحديد موطنهم من خلال توضيحات البكري ، المصدر السابق ، 94 وربما كان لهم فرع قديم في المنطقة المصاقبة من جهة الداخل لجبل هرك وقلوع جارة . مع ذلك فالراجح حسب ما ورد عنهم في مصادر اخرى ان مضاربهم كانت تقع خلف كزناية في اتجاه مواطن زناتة تابريدا انظر : البكري ، المصدر السابق ، 94 . عن مرنيسة انظر كذلك البادسي ، المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف ، 144 .

66 - مواطنهما حول صاع والكدية المعروفة بتاوريرت ، البكري ، المصدر السابق ، 90 ، 93 . وما زال اسم صاع يطلق الى اليوم على فرع وادي ملوية مع بعض التحريف في النطق : "واد زا" ، وبالمثل احتفظت تاوريرت حرفيا باسمها القديم . أما المقصود هنا بزناتة فهم "أهل تابريدا" الى الغرب من تاوريرت ، انظر : البكري ، المصدر السابق ، 88 - 90 .

مناطق النفوذ بعدئذ نحو الجنوب والوسط شاملة الفروع الشمالية لقبائل مكناسة [67] ، الى أن تتصل من هذه الناحية الثانية بتخوم الدولة الادريسية . هكذا غدت امارة بني صالح عندما بلغت أقصى درجات اتساعها ، تمتد من الشرق الى الغرب "مسيرة عشرة أيام"[68] . كما بلغ صاحبها ادريس بن صالح من السطوة والنفوذ بمجموع هذه المناطق أن قيل : "فاستوسق له أمره بتلك البلاد"[69].

وسواء على مستوى الرقعة الجغرافية أو فيما يتعلق بالحضارة والنظم وبمستويات النمو الاقتصادي والعمراني ، بلغت امارة بني صالح لهذا العهد أقصى درجات التطور وأثرت بعمق في ماجريات الأحداث على صعيد مجموع الغرب الاسلامي . وهو ما عبر عنه ابن خلدون[70] في عبارة مقتضبة دالة بالقول ان سعيد بن ادريس قد "استفحل أمره" . وسنتناول مختلف هذه المستويات بما تستحقه من عناية ضمن الفصول اللاحقة .

بعد وفاة سعيد بن ادريس عام 188 هجرية / 804م [71] خلفه ابنه صالح على رأس الامارة . وقد تمكن خلال العقود الأولى من حكمه من الحفاظ على ما تحقق من منجزات ، وهو ما يتجلى من خلال ما ذكر عنه من "تقبل مذهب سلفه في الاستقامة والاقتداء"[72] . كما يتضح ذلك من خلال شهادة اليعقوبي[73] الذي عاين أحوال نكور إثر زيارته لها ، فلم يتردد عن اعتبارها "مدينة عظمى" ، مقدما بذلك تفاصيل غاية في الأهمية عن أميرها صالح

67 - يمكن تحديد مواطنها بما يكفي من الدقة من خلال ما أورده البكري ، المصدر السابق ، 88 - 93. ويبدو ان حملة ادريس الاول نحو تلمسان قد مرت عبر ممر تازة ثم بعدئذ بمحاذاة فروع مكناسة المنتظمة في امارة نكور ، تلافيا للصراع بين الطرفين حول مجالات النفوذ بهذه لمنطقة . وفي اعتقادنا ان ثمة اتفاق سياسي قد حدث بين الامارتين منذ اعلان القبائل المغربية بيعة ادريس الاول بمدينة وليلي ، مما جعلهما في وفاق تام على هذا المستوى رغم الاختلاف المذهبي بين امارة نكور السنية المالكية والامارة الادريسية الزيدية العلوية الاعتزالية.

68 - اليعقوبي ، المصدر السابق ، 357 .

69 - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، 172 .

70 - العبر ، ج6 ، 284 .

71 - من المرجح ان تكون وفاته قد حدثت قبل ذلك عام 180 هجرية ، التي توافق ما تواترت المصادر عن كونه ملك 37 سنة .

72 - نفس المصدر والصفحة .

73 - المصدر السابق ، 357 .

وعن اتساع رقعة البلاد واستبحار العمران ، رغم كونه على مذهب مخالف لما عليه البلاد .

وينفرد ابن القوطية [74] برواية عن إغارة النورمان المعروفين في المصادر العربية بالمجوس ، القادمين من بلاد اسكندنافيا خلال هجومهم الاول سنة 230 هجرية / 844 م على العدوة المغربية ، فبعد انصرافهم من اشبيلية "توجهوا الى ناكور وأسروا بها جد ابن صالح وفداه الأمير عبد الرحمن بن الحكم" صاحب قرطبة . كما يشير البكري[75] الى ان المجوس قد ظهروا بالعدوة المغربية في ساحل أصيلة وخرجوا "في مرساها مرتين" ، مضيفا انهم قد دخلوها في المرة الأولى سنة 229 قبل انصرافهم الى الأندلس وهجومهم على اشبيلية. وبرغم شك بعض الدارسين[76] في صحة بلوغ النورمان خلال هذه الغارة الأولى الى نكور، لم يتحفظ البعض الآخر[77] عن اعتباره حقيقة مسلمة .

ولعل فيما قيل عن توجههم بعد وقعة طلياطة وانسحابهم من اشبيلية نحو لبلة ، ثم التوجه بعدئذ الى الأشبونة شمالا في طريق العودة ، ما يدعو الى الاعتقاد في اختلاط الأمر على ابن القوطية ، خصوصا وأنه لم يذكر هجومهم على نكور عند تأريخه لاغارتهم الثانية ، التي تمت لاحقا عام 244 هجرية / 858 م ، وكذا لما تواتر عن "انقطاع خبرهم حين أقلعوا من أشبونة"[78] في بعض المصادر المغربية الأندلسية . ولعل في اقدام الأمير الأموي عبد الرحمن الثاني على إنفاذ الكتب المطمئنة الى الآفاق بخبر انكسار المجوس ، ما يؤكد خطأ رواية ابن القوطية .

ولقد اثبت ابن عذاري[79] في هذا السياق نصا بالغ الأهمية ، إذ قال :"وكتب الأميرعبد الرحمن الى من بطنجة من صنهاجة ، يعلمهم بما كان من صنع الله في المجوس ، وبما انزل بهم من النقمة والهلكة ، وبعث اليهم برأس أميرهم وبمائتي رأس من أنجادهم" .

---

74 - المصدر السابق ، 81 .لمزيد من التفاصيل عن غارة المجوس ، راجع ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج 2 ، 78 – 88 .

75 - المصدر السابق ، 111 .

76 - Guillermo GOZALBES , *op.cit*, p. 48.

77 - ابو ضيف ، المرجع السابق ، 248 .

78 - المقري ، المصدر السابق ، ج 1 ، 346 ؛ ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج2 ، 88 .

79 - المصدر السابق ، ج2 ، 88 .

فمن عسى ان يكون المقصود بمن بطنجة من صنهاجة ؟ ومن عسى ان تكون له من الأهمية في نظر عبد الرحمن الثاني صاحب قرطبة وأحد أشهر أمراء بني أمية حتى يبعث له برأس زعيم المجوس ورؤوس كبار خاصته ممن سقط صريعا على يد جند الامارة الأموية ؟ لا يخالجنا شك في ان المعنيين هنا صنهاجة نكور بالذات وان المخاطب أميرها صالح بن سعيد .

ان في مضامين هذا النص ما يدل على صحة ما سلف ذكره عن مكانة نكور الى حدود هذا التاريخ ، باعتبارها حاضرة عظمى بالغرب الاسلامي ، وما يؤكد سلامة التحليل السابق الكاشف عن دور بني صالح في شد أزر عبد الرحمن بن معاوية الداخل وجماعة الأمويين الهاربين من بطش بني العباس ، وعن يدهم الطولى في دعم تأسيس امارتهم بالأندلس . وهوما يستحقون عليه هذه الايماءة ، اعترافا بالجميل وترسيخا لعلاقات الود ودعما للتحالف في مواجهة الأخطار.

لم يذخر عبد الرحمن الثاني وسعا في استرضاء صاحب نكور بما عساه ان يعتبر بمثابة "يد بنى أمية عند بني صالح"[80] . وعلما بان العادة جرت في بعث رؤوس الزعماء المارقين والأعداء المقتولين من طرف الأمراء والمتنفذين الى من هو أعلى منهم درجة ، أو نحو الحواضر المتحكمة في أزمة المبادرة ، طلبا للرضى أو مجاملة ، ندرك المكانة الحقيقية لنكور خلال هذا العهد ويتضح بان محور الفعل الحضاري لم يكن قد انتقل بعد الى قرطبة بالضفة الأخرى . مما يجعل داب بعض الدارسين[81] على نعت نكور باقطاعية بني صالح الصغيرة ، تقليلا من مكانة العدوة المغربية مقارنة بالأندلس ، مجرد اسقاط لحيثيات عصر الخلافة اللاحق على هذه المرحلة التاريخية ، وهو ما سنتناوله ببعض التفصيل لاحقا .

---

80 - ابن القوطية ، افتتاح الأندلس ، 81 .

81 - Guillermo GOZALBES, *op.cit*, p. 50 .

ثانيا : بدايات الاختلال

تجلت بوادره الأولى بمجموع البلاد على إثر الاغارة النورماندية الثانية التي خرجت في اثني وستين مركبا[82] . ومن المؤكد انه بعدما سدت في وجهها الطريق عبر مصب الوادي الكبير الى اشبيلية ، انصرفت نحو الجزيرة الخضراء فتغلبت عليها ثم جازت الى العدوة المغربية وحلت بنكور . وتكاد تجمع المصادر [83] التي أرخت لهذا الحدث بان المجوس غزوا مدينة نكور عام 244 هجرية /858 م ، فتغلبوا عليها وانتهبوها وسبوا من فيها الا من خلصه الفرار . استغرق مقامهم لنهب المدينة وتخريبها وطمس معالمها ثمانية أيام كاملة[84] . مما يؤكد مرة أخرى ان الأمر يتعلق بحاضرة تجارية كبرى وثرية احتوت نظرا لنشاطها واستبحار العمران بها منذ العصر السالف وطوال النصف الأول من القرن الثالث على ما لا يحصى من الأموال والثروات .

بلغت عمليات التخريب من الشمولية والعمق أن خلت نكور من أهلها . فبعدما انهارت المقاومة ووضع السيف في العامة وتخلص من تمكن من الهرب بعيدا نحو الأماكن الآمنة ، أخذ الأسر من تبقى . بل وحتى أفراد أسرة بني صالح الحاكمة لم يسلموا من الأسر إذ "كان فيمن سبي أمة الرحمن وخنعولة ابنتا واقف بن المعتصم بن صالح"[85] مما يدل على

---

82 - انظر تفاصيل أحداثها لدى : ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج 2 ، 96 97 ؛ ابن القوطية ، المصدر السابق ، 83 ؛ لاحظ خلط العذري بين الغارتين الأولى والثانية بذكره ان هذه الاخيرة كانت بمشاركة 80 مركبا ، ترصيع الأخبار ، تحقيق عبد العزيز الأهواني ، مدريد 1965 ، 118 - 119 وبخصوص تاريخ خروجهم يضيف سنة على ما هو معروف لدى الأغلبية إذ يجعله عام 245 هجرية .

83 - البكري ، المصدر السابق ، 92 ؛ ابن عذاري ، المصدر السابق ،ج1 ، 176 وفي مكان آخر، ج 2 ، 96 يذكر ابن عذاري غارة المجوس ضمن أحداث سنة 240 هجرية ؛ وقد أخطأ ابن خلدون ، العبر، ج6 ، 284 كما بينا ذلك سلفا حين أرخ لهذا الحدث بعام 144 هجرية . وينفرد العذري برواية تؤرخ للحدث بعام 245 هجرية .

84 - حسب جل المصادر باستثناء ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، 173 - 174 الذي جرت عادته على تقديم معلومات وأرقام وتواريخ خاطئة أو مبالغ فيها ، إذ يحدد مقامهم بنكور في ثمانية أعوام .

85 - البكري ، المصدر السابق ، 92 .

هول الكارثة وأخذ المدينة غرة دون أن تتمكن من ترتيب وسائل التحصين والمقاومة . والغالب على الظن انها كانت على غرار قرطبة واشبيلية الخلافيتين حاضرة مفتوحة وغير مسورة .

أما الأمير صالح بن سعيد[86] ، فقد تمكن من الافلات مع خاصة ووجوه الامارة ، ليشرع توا في تجميع القوى والتهيئ لتخليص المدينة من الغزاة ، يذكر ابن خلدون[87] انه "اجتمع الى [صالح بن] سعيد البرانس وأخرجوهم عنها" . وبرغم عدم توفرنا على المعلومات الكفيلة بتوطين هذه القبيلة جغرافيا ضمن مجال نفوذ نكور ، فمن المفيد مع ذلك الاشارة الى ما أورده صاحب العبر من خبر عن ازداجة ومسطاسة . فبعد التأكيد على انتمائهما في البرانس ، يضيف انهما غالبا ما "كانوا مجاورين في بطونهم لصنهاجة "[88] وأنهم في المغرب الأقصى بطون كثيرة "منتبذون عن مواطنهم"[89] .

من ثم ، لا يستبعد ان يكون البرانس الذين عضدوا صالح بن سعيد وساعدوه على التخلص من المجوس وطردهم من الحاضرة قد تم انزالهم من طرف الأميرعلى شط البحر بمسطاسة[90] ، آخر امتدادات الامارة على الحدود الفاصلة بين صنهاجة وغمارة ، عند التخوم الساحلية الشمالية الغربية ، فأصبحت منذ ذلك الحين تحمل اسمهم . ولعل في موقعها الحصين وسط السلسلة الجبلية والأجراف المنحذرة ، في مسافة متوسطة تسمح بمراقبة الغزاة القادمين بحرا من جهة الغرب ، ما يؤكد صحة هذا الاعتقاد .

انسحبت مراكب المجوس ، بعدما تمكن صالح بن سعيد من دخول نكور وطردهم

---

86 – تم سلفا توضيح الارتباك الذي مس مختلف الروايات المتعلقة ببعض الحلقات في سلسلة أمراء بني صالح الى عهد سعيد بن ادريس . وقد أصاب أحد الداريسين ، ابو ضيف ، المرجع السابق ، 250 في ربط غزو المجوس لمدينة نكور بامارة صالح بن سعيد ، بينما ساير غيره Guillermo GOZALBES, *op.cit*, p. 49 الخطأ مقدما تحليلات تقر بان أميرنكور حينئذ هو سعيد بن ادريس ، وهو ما لا يستقيم تاريخيا .

87 – العبر ، ج6 ، 284 . الاضافة بين معقوفتين من عندي بناء على التحليل السابق .

88 – نفسه ، ج6 ، 190 – 192 .

89 – نفسه ، ج6 ، 196 .

90 – ومسطاسة ما زالت الى اليوم تعرف بنفس الاسم ، على بعد اقل من يوم عن موقع بادس ، ولقد اشتهرت بكونها حصنا منيعا ، انظر : الادريسي ، نزهة المشتاق ، نابولي ، 532 .

منها محملة بـ "الذهب والفضة والسبي والعدة...والأموال العظيمة"[91] . و في طريق العودة ، مرت بالسواحل الأندلسية ، فما كان على الأمير الأموي محمد بن عبد الرحمن الا ان عقد العزم على تخليص أميرات بني صالح أمة الرحمن وخنعولة ابنتي واقف بن المعتصم من الأسرففداهن منهم سيرا على سنة سلفه في الاعتراف بالجميل لأمراء نكور، ودعما لعلاقات الود بين الطرفين .

انصرف صالح بن سعيد بعد هذه المحنة الى اعادة تعمير المدينة واصلاح الخرائب وازاحة الأنقاض . ويبدو انه قد ركز معظم الجهود على رفع التحصينات وبناء الأسوار واتخاذ الأبواب الكفيلة بضمان حصانة الحاضرة في حالات الغزو والحصار . الا ان ما تعرضت له نكور من نهب كان له مع ذلك أبلغ الأثر في مجمل أوضاع البلاد، إذ انحل المحور المتحكم في شرايين المواصلات والتبادل الرابطة بين مركز الامارة واطرافها نحو الافاق ، واختلت الأسواق ووحدات وأدوات الانتاج الحرفي ، وقل المال ونضبت موارده ، كما ضعفت سلطة الامارة التي اضطرت الى الاستعانة بالقبائل الهامشية لمواجهة الأخطار المحدقة . والواقع ان تردي الأوضاع واختلال الأمور والشلل العام للدواليب المحركة للاقتصاد والتجارة والأسواق والمتحكمة في العمران لم يقتصر على نكور فحسب ، بل شمل ابتداء من أواسط القرن الثالث الهجري ليس فقط مجموع الامارات المستقلة بالغرب الاسلامي ، بل عموم دار الاسلام ، في موجة ردة بصمت بعمق مختلف مناحي الحياة .

انعكس ذلك على المستوى الداخلي بانفراط السخائم العصبية والقبلية التي هددت في الصميم وحدة الامارة . وهو ما تجلى في اجتماع قبائل بني ورياغل وكزناية في كتلة معارضة ، وتحصنت بالمرتفعات المحيطة بجبل كوين بالحوض الأعلى لوادي نكور معلنة العصيان . لم يتوقف الأمر عند هذا الحد ، بل سرعان ما طمحت الى التحكم في مقاليد السلطة باعتبارهما مجتمعتين القوة القبلية الضاربة في قلب الامارة واحدى الأركان المؤسسة لها . أقدم المنتزون طلبا للشرعية على تأمير ادريس بن سعيد احد اخوة الأمير ، الذي لم يتردد عن قيادة الحركة ، فاتحا بذلك عهدا من الاضطراب والصراع على السلطة داخل البيت الحاكم .

---

91 - ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج2 ، 96 - 97 .

والراجح ان انتزاء قبائل بني ورياغل وكزناية ثم اعلانهما المفارقة كان نتيجة ما لحق بها من تهميش على إثر تصاعد نجم القبائل الهامشية من البرانس الذين كانت لهم اليد الطولى في طرد المجوس من الحاضرة ، وكذا قبائل بنويرنيان وبنومراسن التي أصبح مقدمهما قاسم الوسناني صاحب صاع والكدية بتاوريرت من أخص خاصة الامارة .

ما كان على صالح بن سعيد الا الاقدام على تجميع جنده وتجييش القبائل الموالية وتنظيم الهجوم على المعاقل الثائرة بجبل كوين والمرتفعات المجاورة ، تاركا زمام المأمور بالحاضرة لأحد ثقاته . مع ذلك ، تمكن المخالفون من انزال الهزيمة بجند الامارة ووضع السيف في اتباع صالح بن سعيد الذي ولى مفلولا ، بعدما انتهب معسكره وأخذ سلاحه ومتاعه ، مما اضطره الى الفرار متسللا في طريق العودة الى مقر الحكم في خاصة من أصحابه والاختفاء عن الأنظار بالبادية المجاورة للعاصمة .

ارتد الثوار في حملة مضادة يتابعون الفلول المنهزمة من جند الامارة الى أن شارفوا مدينة نكور بجموعهم ، زاعمين ان صالح بن سعيد قد قتل ومطالبين ببيعة دعيهم ادريس بن سعيد . ويبدو ان صالحا لما لاحت له بوادر الهزيمة ، بعث رقاصا على وجه السرعة الى الحاضرة لاتخاذ اجاءات التحصن والمقاومة في انتظار وصوله . لذلك لم يتردد مخلفه ونائبه الذي ترك لادارة شؤون الحاضرة عن اعلان الامتناع عن تسليم المدينة ، طالبا مهلة للتأكد من صحة خبر مقتل الأمير ، مما اضطر المهاجمين الى قضاء ليلتهم في العراء بسفح الجبل المطل قبالة المدينة .

ان في عدم تمكن المهاجمين من الدخول رأسا الى المدينة واحتلالها ، ما يؤكد صحة ما ذهبنا اليه من اقدام الامير بعد طرد المجوس على بناء أسوار المدينة وإعلاء تحصيناتها مما جعلها على عكس العصر السابق صعبة المنال وممتنعة . ولعل في هذا ما يقدم مؤشرات اضافية عن تصاعد اهمية الطابع العسكري والدفاعي في المجال المعماري على حساب المظاهر المرتبطة بالتجارة والأسواق .

تمكن صالح بن سعيد من التحايل على عيون الثوار والخروج من مخبئه والتسلل في جوف الليل الى داخل المدينة لمعاودة الامساك بزمام المبادرة وتهيئ الشباك للإيقاع بدعي الامارة . وفي صباح الغد ، سمح للدعي ادريس بن سعيد بالدخول الى المدينة مدرعا

ومسرجا على فرسه يشيعه الحرس من فتيان الأمير الذين سرعان ما أرجلوه وأدخلوه على صالح بمجلسه في دار الامارة ، فأمر على الفور بسجنه . بذلك يكون صالح بن سعيد قد سحب البساط من تحت أقدام الثوار الرابضين خارج الأسوار وأفسد عليهم ما كانوا عقدوا عليه عزائمهم .

والجدير بالملاحظة ان قاسم الوسناني صاحب صاع والكدية لم يقتنع بما آلت اليه الأمور وتاق امعانا في اذلال خصومه الى سفك دم الأسير وألح في ذلك على الأمير . ما كان على صالح بن سعيد الا الرضوخ لضغوط عامله هذا فأصدر الأمر لمواليه باغتيال الدعي، الا انهم تقاعسوا عن التنفيذ وامتنعوا ، مما اضطره الى اللجوء الى أحد أخص فتيانه يدعى عسلون ، فلم يتردد عن الاجهاز على ادريس في مطبقه[92] .

ان في هذه التفاصيل ، ما يكشف عن بوادر الوهن الذي مس قمة السلطة فلم تعد تتحكم كما كانت في مقاليد الأمور، كما تدل عن تفتيت مركز القرار الذي غدا هدفا لضغوط المصالح وأطماع المتنفذين من قادة الجند وشيوخ القبائل ، الذين انفتحت أمامهم أبواب التنافس والعراك .

من الطبيعي ان يفضي هذا الاضطراب الى اضعاف نفوذ الامارة في المناطق التابعة ، خاصة بالأطراف البعيدة . تجلى ذلك في تجرؤ قبائل مكناسة وامتناعها عن اداء المستحقات "وحبسوا مغارمهم"[93] . لم يكن بمقدور صالح بن سعيد في ظل الظروف الجديدة ان يغامر بارسال حملة تأديبية الى القبائل الممتنعة ، فآثر اللجوء الى أسلوب التهديد والاقناع ، خصوصا وان جرأتهم لم تصل الى حد اعلان المفارقة لنظام الامارة . يقدم البكري بهذا الخصوص التفاصيل عن رسالة كتبها "اليهم يوعدهم وختم على الكتاب وأدخله مخلاة وشدها على حماره وبعثه مع ثقة من ثقاته وقال : اذا توسطت بلاد مكناسة فاترك الحمار بما عليه وانصرف ففعل وأصابت مكناسة حمار صالح وكان معروفا بينهم"[94] .

ليس لدينا أية فكرة عن مضمون الرسالة ، لكنها أثمرت المراد منها في انقسام آراء زعماء مكناسة على إثر اطلاعهم على محتواها ، بين فريق دعا الى "عقر الحمار والتمادي

92 - البكري ، المصدر السابق ، 92 -93 ؛ ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج1 ، 178 .

93 - البكري ، نفسه ، 93 .

94 - نفس المصدر والصفحة .

على امتناعهم"[95] ، وفريق آثر الرجوع الى الصواب والعودة الى الطاعة . ثم مال الجدال بهم أخيرا الى استحسان الرأي الثاني وجمع ما كان عليهم من واجبات "وأتوا صالحا بالحمار مجللا ومغارمهم موفاة"[96] .

تمادت حركات القبائل بعدئذ وعم الانتزاء بلاد بطوية ومرنيسة وبني ورترديين الى أقصى نواحي جبل هرك وقلوع جارة ، وامتد شاملا أنحاء البلاد حتى غدت الفتن سيدة الموقف . وهو ما عبرت عنه المصادر بالقول ان صالح كانت له "مع البربر حروبا ووقائع الى ان هلك سنة 250 "[97] هجرية / 864 م .

أسندت الأمور بعده لأصغر أبنائه سعيد بن صالح ، مما يؤشر على أن ثمة قوى تطمع الى الاستئثار بالحكم وتباشر السلطة في الخفاء وتحرك الأمير على هواها . سرعان ما اتضحت هذه النوايا ، إذ تكتل خاصة الامارة ورؤساء الخدم والجند وأرباب الدواوين من العبيد الصقالبة [98] في جبهة قوية ، مستفيدين من اختلال الأوضاع وضعف سلطان الأمير

---

95 – نفس المصدر والصفحة .

96 – نفس المصدر والصفحة .

97 – ابن خلدون ، العبر ، ج 6 ، 284 ؛ مجهول ، الاستبصار ، 136 . اختلف في تاريخ وفاته ومدة ولايته . فبينما يحددها البكري في 26 سنة ، فهي لا تتجاوز 20 عاما فقط حسب رواية ابن عذاري ، وتصل الى 28 سنة في رواية ابن الخطيب . مع ذلك ، تبدو رواية ابن خلدون التي تنص على تملكه مدة 72 سنة ، رغم ما تنم عليه من مبالغة ، الأقرب الى الصحة . والراجح ان مدة ملكه قد بلغت تحديدا 62 سنة .

98– للمقارنة مع تعاظم دور الصقالبة ببلاط قرطبة لاحقا خلال القرن الرابع الهجري انظر : أحمد الطاهري ، عامة قرطبة في عصر الخلافة ، 190 --191 ، 199 - 200 . وقد كانت لهم كما هو معلوم سوق نافقة بالبلاد الأندلسية يتسابق الملوك والأمراء في اقتنائهم لاتخاذهم بطانة . ولفظ الصقالبة نسبة لبلاد صقلبة بالأرض الكبيرة في أروبا ، وهم من العبيد البيض الذين يستقدمون من مواطنهم الأصلية بروسيا وبلاد البلغار في اطار تجارة الرقيق التي يمارسها على الخصوص التجار اليهود الرهدانية . وسرعان ما غدا مصطلح الصقالبة يطلق على كل العبيد البيض ، بمن فيهم الذين يستقدمون من بلاد جليقية بأقصى شمال شبه الجزيرة الايبيرية . ويتضح ان بني صالح كانوا يرسلون في طلبهم الى قرطبة لتشغيلهم كما جرت العادة بذلك في الخدمات الادارية والعسكرية . لكنهم تمكنوا من خلال متانة تكوينهم ومع مداومة العمل من التسلق في حلبة الدواوين فأصبحوا من خاصة الخاصة تسند لهم جلائل الأمور .

تقدموا اليه و"سألوه العتق فقال لهم انتم جندنا وعبيدنا وانتم كالأحرار لا تدخلون في المواريث ولا تجرى عليكم المقاسم ، فما طلبكم للعتق ، فألحوا عليه في ذلك فأبى"[99].

كان ذلك ايذانا ببداية العصيان من داخل النظام بتحول أجهزته الادارية والعسكرية الى قوة سياسية متجاسرة على الأمير الذي "ناله منهم جفاء وغلظة"[100] . ولما لم يتحقق مرادهم في الامساك به لعبة طيعة ، أعلنوا التمرد وقدموا أخاه عبيد الله لمنصب الامارة ، يؤازره عمه ابو علي الرضا في رئاسة حركة الصقالبة الذين زحفوا على دار الامارة حيث تحصن سعيد بن صالح في خاصة فتيانه وحريمه وناشبوهم القتال من أعلى السطوح بمشاركة نساء القصر .

ويقدم ابو عبيد الله البكري اشارة بالغة الأهمية عميقة الدلالة على حركة العامة بنكور، في سابقة مثيرة للانتباه الى بواكير الثورات الاجتماعية الحضرية بالغرب الاسلامي. فالصقالبة من جند الامارة وأرباب الدواوين المحدقون بالقصر يشكلون لا محالة خطرا على أرباب المعايش والسوقة وسواد العامة ، في حالة تمكنهم من زمام الأمر. فما كان عليهم الا ان تداعوا من أرباضهم وأسواقهم لفك الحصار عن الأمير، وثاروا بالصقالبة وقاموا عليهم من كل ناحية وأخرجوهم من المدينة . وبقدرما تنبه العامة الى تعاظم دورهم في حماية الحاضرة والذب عن حرمة الامارة، انتبه الأمير سعيد بن صالح الى أهمية الاستناد على العامة لفك طوق العزلة وتأمين مركز السلطة ومباشرة استئصال رؤوس الفتنة من قواد الجند وشيوخ القبائل المنتزية .

والمدهش ان الأوضاع بقرطبة حاضرة الامارة الأموية المجاورة بالأندلس ، كانت تمر بنفس الظروف الى حد التطابق ، ليس فقط في المظاهر العامة بل وفي أدق التفاصيل . فعلى غرار نكور ، سرعان ما تطورت علاقة الأميرعبد الله بعامة قرطبة من مجرد التقارب المحتاط الى التحالف الصريح . وذلك كما في نكور ، تحت تأثير الاختلال السياسي العام الذي هز أركان الامارة "فالأمور تفاقمت في ولايته وتفاوتت بعد قرب تداركها فتفرقت أجناده وعجز عن نصرته قواده"[101] .

---

99 - البكري ، المصدر السابق ، 93.
100 - نفس المصدر والصفحة .
101 - مجهول ، أخبار مجموعة ، نشر لافوينتي القنطرة ، مدريد 1967، 150.

وتماما كما تصرف سعيد بن صالح بنكور، لم يجد صاحب قرطبة نتيجة تخلي الجميع عنه من مخرج لحكمه سوى الاستناد على العامة . وبالمثل ، فقد لقي معارضة شديدة من أسرته وأهل بيته الذين لم يترددوا هم كذلك عن الكيد له . ومثلما اضطر صاحب نكور الى سجن أخيه وقتل ابناء عمه ، لم يجد الأمير عبد الله الأموي غضاضة في الاقدام على اغتيال "أخيه المنذر...ثم قتل ولديه معا"[102] . مما يقدم أبرز مثال على وحدة الظاهرة المرتبطة بنفس البنية المتحكمة في السير التاريخي العام . وهو ما لم يذخر أحد الدارسين جهدا لكشف معالمه على صعيد عموم دار الاسلام .[103]

لم يجد الصقالبة ومن انضم اليهم من الخاصة بدا من الانسحاب مهزومين والتحصن في احدى القرى المجاورة فوق المدينة ، عرفت منذ ذلك الحين بقرية الصقالبة[104] ، علما بانه خارج أسوار نكور، لم تكن لهم مضارب ولا مواطن كما هو الشأن بالنسبة للقبائل . تداعت العامة من كل ناحية نحو الأمير الذي يبدو انه لم يذخر وسعا في تسليحهم وتنظيمهم بمساعدة فتيانه ، ثم "حشر" هم على حد تعبير البكري[105] ، لمهاجمة الصقالبة في حصنهم ، مقدما بذلك أروع مثال على تحول الامارة الى قيادة العامة في مواجهة الخاصة .

استمرت الحرب سجالا بين الطرفين لمدة سبعة أيام ، وكانت شديدة الوقع حامية الوطيس ، انتهت بخمود مقاومة المتحصنين والاستيلاء على قرية الصقالبة والظفر بالمنهزمين الذين طالهم حد السيف ، بمن فيهم أبناء عمومة الأمير : الأغلب وأبو الأغلب وغيرهما ممن كان ضمن الوجوه وخاصة القوم مؤازرا حركة الصقالبة . أما أخوه عبيد الله المؤمر وعمه ابو علي الرضا الذي كان في نفس الوقت صهره وأبو زوجته "طالت" التي في كنفه ، فقد آثر اطباقهم في السجن ، ثم سرعان ما عمد الى نفي أخيه الى مكة حيث لبث الى أن مات .

---

102 – ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج2 ، 156 .لمزيد من التفاصيل بهذا الشأن راجع دراستنا عن عامة قرطبة ، 52 ، 184 .

103 – نحيل هنا على الدراسات التي أنجزها محمود اسماعيل ، سواء المتعلقة بسوسيولوجيا الفكر الاسلامي في أجزاءه المختلفة أو بالمواضيع المتعلقة ببلاد المغرب أو بجوانب من تاريخ الجناح الشرقي لدار الاسلام .

104 – ذكرها ابن الخطيب باسم " قلعة الصقالبة" ، أعمال الأعلام ، 174 .

105 – المصدر السابق ، 94 .

أثار هذا التمييز في درجات العقاب الذي مس افراد البيت الحاكم أهل المقتولين السالفي الذكر، فرتب كبيرهم سعادة الله بن هرون مكيدة للاجهاز على الأمير . يتلخص ذلك في ابرامه أمر القيام والثورة على سعيد بن صالح سرا مع كبار مشيخة بني يصليتن ، وهم من أقوى الفروع القبلية لذلك الحين في تمسامان ، العصبية المركزية التي اعتمدت عليها الامارة عند التأسيس . ومواطن بني يصليتن تمتد على السفوح المحيطة بجبل ابي الحسن[106] ، في الحوض الأوسط والادنى لمجرى نهر تمسامان[107] . وبالفعل ، سرعان ما أعلن التمرد في المنطقة المذكورة ، وهب سعيد بن صالح لاخمادها في عدد من فرق الجند على رأس جزء هام منها سعادة بن هرون مدبر المكيدة ، الذي انضم بجموعه الى الثوار بمجرد التحام المعركة . بذلك تمكن المتمردون من وضع السيف في أتباع الأمير ومواليه فقتل منهم نحو الألف ، كما استولى بنو يصليتن على بنوده وطبوله فانهزم سعيد بن صالح شر هزيمة تاركا في الميدان عدته وعتاده .

وحتى يتمكنوا من قطف ثمار الانتصار ، طارد الثوار الأمير وفلوله المهزومة الى أسوار الحاضرة فضربوا عليها الحصار وناشبوها القتال . الا ان استناد سعيد بن صالح على العامة وركونه اليهم ضمنا له ركائز قوة متجددة ، سرعان ما رجحت الكفة لصالحه في مواجهة المتمردين من أفراد بيته ومشيخة الفروع القبلية ، التي أخذت بمجامعها السخائم العصبية . بذلك كانت "لسعيد الكرة عليهم فهزمهم وأسر ميمون بن هرون"[108] ، بينما هرب أخوه سعادة الله متزعم التمرد الى تمسامان . وبعدما استئصلت أملاكه وأحرقت دوره وصودرت أمواله ، آثر الأمير العفو عنه ومصالحته فأمنه ودعاه الى الاقامة بالحاضرة نكور لخدمة الامارة .

وسواء بالنسبة لأرباب الخطط العسكرية والادارية أو لرؤساء ومتنفذي البطون القبلية ، سرعان ما تجلت قوة الأمير سعيد بن صالح في سياسته العامية ، فما كان عليهم بعدما أعيتهم محاولات النيل منه الا ان استسلموا لسطوته ودخلوا في عترته ، ليتم

---

106 - ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، 284 .

107 - البكري ، المصدر السابق ، 99 . وهذا النهر يعرف اليوم باسم "أغزار أمقران" أي الوادي الكبير الذي سلف ذكره .

108 - نفسه ، 94 ، ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، 284 .

الشروع توا في التهيئ لاعادة ترسيخ نفوذ الامارة في المناطق المتمردة ودمجها من جديد في حظيرة الطاعة .

بالفعل ، سرعان ما عمد سعيد بن صالح الى تجميع جنده وتجييش أهل ايالته من القبائل الموالية في صنهاجة وغمارة وتنظيم حملة واسعة النطاق على الامتدادات الشرقية للامارة ، اسندت قيادتها لسعادة الله الثائر بالأمس، المشهور بالشجاعة والبأس . انطلقت الحركة من نكور وتمسامان لغزو بلاد بطوية المصاقبة ثم عرجت على معاقل بني ورتردين في قلوع جارة ونهدت بمن اجتمع اليها من القبائل الى مرنيسة وزناتة. بذلك توطأت جميع تلك النواحي وانقاد اهلها لسلطة الأمير وعادوا من جديدللانتظام في سلك الجماعة [109] .

للحفاظ على هذه المنجزات ودعم علاقات الود وحسن الجوار مع المناطق المحيطة المنخرطة في سلك الدعوة الادريسية ، عمد سعيد بن صالح الى عقد المصاهرة مع الشرفاء الحسنيين ، فزوج اخته أم السعد بنت صالح "لأحمد بن محمد بن سليمان بن عبد الله بن الحسين بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، الذي أقام معها بمدينة نكور الى ان مات" [110] . وهو ما أشارت اليه بعض المصادر [111] بالقول : ان بني صالح "قد تصاهروا مع الحسنيين من بني ادريس ملوك المغرب" .

ومن المعلوم ان محمد بن سليمان جد احمد بن ادريس صهر صاحب نكور كان ينزل بتلمسان [112] . وحسب رواية ابن أبي زرع فان والده سليمان بن عبد الله اخو ادريس الاول كان قد دخل منذ فترة مبكرة الى بلاد المغرب ونزل تلمسان واستوطنها "فكان له بها أولاد

---

109 - البكري ، نفس المصدر والصفحة ؛ ابن خلدون ، نفس المصدر والصفحة .

110 - البكري ، نفس المصدر والصفحة . مما يكشف عن أصول هذا الفرع من الشرفاء الحسنيين المستقرين ببلاد نكور.

111 - مجهول ، الاستبصار ، 136 .

112 - راجع التفاصيل لدى : نفسه ، 122 ؛ ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج1 ، 65 . لذلك نستبعد ميل أحد الدارسين الى الاعتقاد بان احمد بن ادريس هذا كان من ضمن الشرفاء الادارسة اللاجئين الى نكور نتيجة للخلافات التي دبت في أوساط البيت الادريسي منذ وفاة ادريس الثاني .

كثيرون فكل حسني هناك من نسل سليمان بن عبد الله"[113] هذا . يضيف المسعودي[114] ان محمد بن جعفر بن يحيى بن عبد الله بن الحسن بن علي بن ابي طالب قد حل هو الآخر ببلاد المغرب في خلافة أبي جعفر المنصور العباسي واتصل ببلاد تاهرت السفلى واظهر فيها العدل والاستقامة فاجتمع اليه الخلق والعامة الى ان قتل بايعاز من صاحب بغداد مسموما . مما يكشف عن تأصل دعوة آل البيت في هذه المناطق المتاخمة لنكور من جهة الشرق[115] .

والجدير بالملاحظة ان الأدارسة قد حافظوا منذ البداية على علاقات ودية مع بني صالح . فسواء لدى إقدامهم على ضم تلمسان في حملة ادريس الأول الشهيرة، أو بعدئذ لما ترسخ نفوذهم في تيكساس وترغة وبكثير من البطون الواقعة الى الغرب من "بلاد صنهاجة"[116] ، ليس هناك ما يؤشر على حدوث أي توتر بين الطرفين[117] . على العكس ، فقد اضطر عدد من الشرفاء الادارسة ، على اثر اجلائهم من طرف موسى بن ابي العافية عن مدينة فاس وحصارهم بقلعة حجر النسر ومتابعتهم باصناف من التضييق ، الى الهروب فـ« تحيزوا الى جبال غمارة وبلاد الريف» حسب رواية ابن خلدون[118] الذي يضيف بان جملة من بني

---

113 - المصدر السابق ، 16 . ما زال تاريخ دخول سليمان بن عبد الله هذا الى المغرب يثير جدالا بين الدارسين ، والسبب راجع الى شيوع الاعتقاد بان الدعوة العلوية الزيدية لم تصل الى المغرب الا لاحقا مع وفادة ادريس الاول وان دولة الأدارسة قامت بمحض الصدفة وعلمامن جهة أخرى بالروايات التي تؤكد مقتل سليمان هذا في موقعة فخ الشهيرة عام 169 . والواضح ان هناك جملة من القرائن الدالة على بداية النشاط العلوي الزيدي ببلاد المغرب قبل مجيئ ادريس بن عبد الله بعقود من الزمن كما سلف الذكر ، وذلك خلال امامة محمد بن عبد الله النفس الزكية الذي ثار بالعباسيين سنة 145 هجرية ، وكان قد بعث اخاه سليمان هذا داعية الى بلاد المغرب ، والراجح انه رجع بعدئذ الى المشرق للمشاركة في ثورة فخ حيث قتل .

114 - مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد مفيد قميحة ، بيروت 1986 ، ج3 ، 419 .

115 - لمزيد من التفاصيل عن سريان التشيع لآل البيت في تيهرت وتلمسان واحوازهما ، راجع ابن خرداذبه ، المسالك والممالك ، نشر دي خويه، ليدن 1967 . 88 - 89 ؛ المسعودي ، المصدر السابق ، ج1 ، 168 - 69 ؛ ابن الفقيه الهمذاني ، المصدر السابق، 80 - 81 .

116 - ابن أبي زرع ، المصدر السابق ، 51 .

117 - وهو نفس الراي الذي عبرعنه احد الدارسين : Guillermo GOZALBES, *op.cit*, p. 51

118 - العبر ، ج6 ، 289 .

محمد وبني عمر قد اتخذوا املاكا بـ«نكور وبلاد الريف» .

مع ذلك ، فثمة استثناء يدعو الى التحفظ بشان استمرار علاقة الود بين الادارسة وبني صالح . ففي سياق حديثه عن امارة ادريس الثاني ، ذكر البكري[119] بانه «غزا نفزة وتلمسان ورجع سنة تسع وتسعين ومائة». ولعل فيما تناولناه سابقا بخصوص اعتزالية ثورات غمارة الموجهة ضد نكور، ما يدعو الى مزيد من التدقيق في الحلقات الموجهة للعلاقات بين نكور وفاس، على ضوء ماجريات التطور العام بمجموع الغرب الاسلامي . وبالخصوص ما يتعلق بمكايد الخلافة العباسية في سياستها المغربية ، وبقيام دولة الاغالبة على اثر ذلك ، ثم بعدئذ ما يرتبط بالتشيع الفاطمي واعلان الخلافة العبيدية بالمهدية ثم الاموية بقرطبة .

والراجح ان أمير نكور بعقده المصاهرة مع آل البيت ، كان يتلمس بعض الشرف لأسرة بني صالح الحاكمة ، دعما لمكانتها المعنوية في أوساط القبائل . وبذلك يكون قد أضاف حلقة أخرى الى ما أقدم عليه منذ عهد قريب والده صالح بن سعيد بادعائه النسب العربي الحميري قصد لمّ الشروخ القبلية واحتواء غلوائها ، وحتى يتمكن البيت الحاكم من التعالي عن السخائم العصبية التى أصبحت سيدة الموقف .

وبالنظر الى التحولات الشاملة والعميقة التي مست الفكر السياسي والخريطة المذهبية بمجموع الغرب الاسلامي ابتداء من منتصف القرن الثالث الهجري ، ندرك سبب ارتباك بني صالح ومحاولة تحصين نظامهم وان كان بواسطة الانتساب عن طريق المصاهرة الى آل البيت . فالتشيع قد أصبحت له سوق نافقة ، إذ نال من أقوى "قبائل البربر بالمغرب وأشدهم بأسا وقوة"[120] وأصبح له من الأتباع ان شكل على اثر اعلان الخلافة الفاطمية الشيعية بافريقية سنة 297 هجرية / 909 م ، خطرا داهما هدد الجميع بقرب المآل الى الانقراض .

119 - المصدر السابق ، 123 .

120 - ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، 195 .

الفصل الثالث

التدخل الأموي-الفاطمي بنكور وانقراض الامارة

من الطبيعي في ظل الظروف الجديدة ان يسعى سعيد بن صالح الى تقوية أواصر التعاون مع أمويي الاندلس ، ويعمل جاهدا على كسب ود الأمير عبد الرحمن الناصر الذي وطد العزم منذ تولى منصب الامارة خلفا لجده عبد الله سنة 300 هجرية /912 م ، على اعادة توحيد الأندلس تحت سلطة مركزية قوية واجتثاث المتمردين والمنتزين عليه بالمعاقل والثغور واعادة الهيبة للامارة في الممالك المسيحية . ولتجسيد الرغبة في خلق قاعدة مشتركة لمواجهة المخاطر المحدقة ، لم يتردد سعيد بن صالح عن دعم هذه الجهود التي شرع الناصر لدين الله في بذلها بالأندلس .

بالفعل ، فما ان نبذت عوامل التفرقة والتأم الشمل من جديد حول قاعدة الامارة بنكور ، حتى انطلقت أول بعثة للجهاد في دار الحرب بالأندلس ، شملت صفوة من أهل

الفضل والورع والتقوى ، على رأسهم عم الأمير عبد الرحمن بن سعيد الملقب بالشهيد[1].

أبحرت البعثة في الغدير من مرسى نكور بالمزمة تحت قيادة عبد الرحمن الشهيد الى ساحل البيرة في بر العدوة ، فقطع عليها "ابن حفصون[2] الطريق فقتل من كان معه وتخلص عبد الرحمن على فرسه"[3] لائذا في اتجاه قرطبة . وفي مستهل شهر صفر من عام 305 هجرية / 917 م ، كانت الاستعدادات على قدم وساق لانفاذ احدى أشهرالصوائف الى دار الحرب ، فانتظم عبد الرحمن الشهيد ضمن "طبقات الناس من المجاهدين"[4] الموسومين بـ"المطوعين"[5] تمييزا لهم عن عامة الجند "المدونين"[6]. أسندت قيادة هذه الصائفة لأحد أبرز رجالات الناصر لدين الله ، وهو الوزير الشهير أبو العباس أحمد بن أبي عبدة ، الذي آثر -لما انكسر الجيش وجرت فرقة أهل الثغر الهزيمة - طلب الشهادة "مداعسا في جماعة من حماة المسلمين"[7] ، من ضمنهم عبد الرحمن بن سعيد فقتلوا جميعا ، لذلك وسم مبعوث صاحب نكور تكريما لشخصه بلقب الشهيد .

سرعان ما تأكدت مخاوف سعيد بن صالح على مستقبل الامارة . فبعدما أحكم

---

1 - ذهب أحد الدارسين الى الاعتقاد بان عبد الرحمن هذا الملقب بالشهيد والمتفقه بمذهب مالك والمتردد أربعا على بلاد المشرق للحج قد دخل البلاد الأندلسية بقصد الجهاد في امارة عبد الله الاموي خلال السبعينات من القرن الثالث الهجري ، أبو ضيف ، المرجع السابق ، 260 ، وهوما لا ينطبق مع منطق الأحداث التاريخية . وضمن النصوص المعتمدة في الفقرات اللاحقة ما يفصح عن ذلك .

2 - وثورته بالمرتفعات الجنوبية للأندلس بكورجيان و البيرة والمناطق المجاورة تعتبر من أشهر حركات التمرد ضد الامارة الاموية منذ النصف الثاني من القرن الثالث الى ان تم القضاء عليها من طرف عبد الرحمن الناصر خلال بدايات القرن الرابع الهجري . ولقد كتب عنها الكثير وفسرت جذورها وطبيعتها واسبابها وفق تصورات متباينة ، ومن المفيد الرجوع بهذا الخصوص الى آخر ما صدرحول هذا الموضوع :

Manuel ACIEN ALMANSA, *Entre el feudalismo y el Islam: Umar Ibn Hafsun en los historiadores, en las fuentes y en la historia*, Universidad de Jaen 1994.

3 - البكري ، المصدر السابق ، 92 ؛ ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج1 ، 177 .

4 - ابن عذاري ، نفسه ،ج2 ، 170 .

5 - ابن حيان ، المصدر السابق ، ج5 ، 135 .

6 - نفس المصدر والصفحة . ويسمون كذلك "أهل الديوان" انظر : ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج2 ، 170 .

7 - ابن حيان ، المصدر السابق ، ج5 ، 136 .

الشيعة الفاطميون سيطرتهم على افريقية وصفا لهم ملك "اطرابلس وجربة وصقلية"[8]، وتداعت تحت ضرباتهم الامارات الخارجية المدرارية بسجلماسة والرستمية بتيهرت[9] ، انفتحت لهم أبواب التوسع في اتجاه مصر شرقا[10] ونحو المغرب الأقصى غربا .

وبحلول سنة 304 هجرية / 916 م كتب الامام الفاطمي عبيد الله الشيعي من حاضرة الخلافة برقادة[11] الى صاحب نكور يدعوه الى "الدخول في طاعته والتدين بامامته"[12] والانخراط في سلك الدعوة العبيدية . وبقدرما تم التنبيه على ان ذلك هو السبيل الوحيد لاستمرار سلطة بني صالح في نكور، كان التهديد باستعمال قوة السيف والوعيد بدخول نكور بالقهر والغلبة . يتجلى ذلك من خلال محتوى البيتين الشعريين اللذين تواترتهما المصادر التاريخية[13] من ضمن قصيدة طويلة ألحقت بالرسالة .

لم يتردد سعيد بن صالح عن رفض عرض الخليفة الفاطمي ، وأسند مهمة الرد على خطابه لأحد شعراء الامارة امعانا في اذلاله والنيل من امامته وعدم الاعتراف بدعوته ، على ما أصبح لها ببلاد المغرب من قوة وجبروت . ولم يذخر هذا الشاعر المرتسم ضمن

---

8 - ابن حماد ، اخبار ملوك بنو عبيد وسيرتهم ، تحقيق التهامي نقرة /عبد الحليم عويس ، تونس ، 1987 ، 48 .

9 - ابن الأبار ، الحلة السيراء ، ج 1 ، 192 .

10 - بعثت أول حملة عبيدية الى الاسكندرية والفيوم عام 301 هجرية ، ابن حماد ، المصدر السابق ، 48 ، ابن الأبار ، الحلة السيراء ، ج1 ، 192 .

11 - التي اتخذت دارا للملك قبل بناء المهدية التي عهد للبنائين بانشائها ابتداء من سنة 303 . ومن المعلوم ان الأشغال لم تستكمل بها الا لاحقا خلال عام 308 ، وبذلك تم نقل الملك اليها وأصبحت منذ ذلك الحين حاضرة الخلافة العبيدية بالمغرب ، انظر : القاضي النعمان ، افتتاح الدعوة ، تحقيق فرحات الدشراوي ، تونس 1975 ، 327 – 328 ؛ ابن الأبار ، الحلة السيراء ، ج 1 ، 192 .

12 - البكري ، المصدر السابق ، 94 ؛ ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج1 ، 178 .

13 - ورد فيهما قول الخليفة الفاطمي مخاطبا صاحب نكور:

"فان تستقيموا استقم لصلاحكم ... وان تعدلوا عني ارى قتلكم عدلا

واعلو بسيفي قاهرا لسيوفكم ... وأدخلها عفوا وأملؤها قتلا"

البكري ، المصدر السابق، 95 ؛ ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج1 ،178 ؛ ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، 285 ؛ ابن الأبار ، الحلة السيراء ، ج1 ، 194 ؛ المقريزي ، كتاب المقفى الكبير ، تحقيق محمد اليعلاوي ، بيروت 1987 ، 99 .

ديوان شعراء آل صالح جهدا في صياغة عبارات القذف والتفنن في سب الخليفة الشيعي متهما اياه بالكذب والجهل والنفاق [14] .

لا غرابة في ذلك ، ما دامت نكور متأصلة على المستوى المذهبي منذ فترة مبكرة في رأي مالك امام المدينة ، منخرطة في المذهب الكلامي لاهل السنة والجماعة . من ثم لا يستبعد ان تكون رسالة عبيد الله الفاطمي قد اثارت حماس الفقهاء المالكية بنكور وربما بغيرها لدعم مواقف سعيد بن صالح وتحريض الناس للذب على الامارة والالتفاف بقوة حول الأمير استعدادا للمواجهة . لهم فيما حدث بافريقية من تخل عن سياسة الاعتدال واعلاء راية التحيز الكلامي والتعصب المذهبي وارغام الناس على التشيع واضطرار المالكية الى التقية والكتمان [15] ، أسطع مثال عما ينتظرهم من امتحان .

أسند الخليفة الفاطمي مهمة اسقاط امارة بني صالح لعامله على تيهرت مصالة بن حبوس ، وعهد اليه "بالمسير الى بلد نكور ومحاربة سعيد بن صالح"[16] . وبالفعل ، انفصلت الجيوش العبيدية عن مقر قيادتها الغربية بتيهرت في شهر ذي الحجة عام 304 هجرية وتقدمت نحو بلاد نكور الى أن شارفت السفوح الجبلية المصاقبة من جهة الجنوب الشرقي للحاضرة ولجبل ابي الحسن بتمسمان . وبدلا من الهجوم توا على مقر الامارة ، آثر القائد

---

14 – احتفظت المصادر المتداولة بثلاث ابيات فقط من قصيدة طويلة نظمها هذا الشاعر في الرد على عبيد الله الفاطمي قائلا :

"كذبت وبيت الله لاتحسن العدلا ... ولا علم الرحمن من قولك الفصلا

وما انت الا جاهل ومنافـــق ... تمثل للجهال في السنة المثلى

وهمتنا العليا لدين محمـــد ... وقد جعل الرحمن همتك السفلى"

والشاعر المذكورأندلسي الأصل من أهل طليطلة يدعى الأخمش كان يقيم بنكور في خدمة الامارة ضمن ديوان شعراء آل صالح . ابن الأبار ، الحلة السيراء ، ج1 ، 194 ؛ البكري ، المصدر السابق ، 95 .

15 – أفرد محمود اسماعيل لهذا الموضوع بحثا بعنوان : محنة المالكية في افريقية المغربية رؤية اجتماعية ، ضمن : مغربيات ، 57 – 83 .

16 – البكري ، المصدر السابق ، 95 ؛ ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج1 ، 179. اشارت بعض الدراسات الحديثة التي تناولت هذه الحقبة من تاريخ المغرب الى هذه الحملة العبيدية بتلخيص شديد انظر : Charles ANDRE JULIEN, *Histoire de l'Afrique du Nord de la conquête arabe a 1830*, Paris 1952, p.59.

الفاطمي النزول على بعد مسيرة يوم من الحاضرة حيث عسكر بقواه بموقع يعرف باسم "نسافت[17] ما أن علم الأمير بوصول الحملة ، حتى خرج على رأس قواته الى أن حل بجبل ابي الحسن المشارف لمعسكر مصالة بن حبوس ، فتحصن به[18] . استمرت الحرب سجالا بينهما لمدة ثلاثة أيام تكافئت خلالهما قوى الطرفين ، إن لم تكن كفة الصراع قد مالت لصالح أهل نكور كما يستفاد من رواية ابن خلدون[19] الذي ذهب الى القول : "فغلبهم سعيد وقومه أياما" .

استمر كلا المعسكرين متحصنين بمواقعهما دون القدرة على حسم المعركة . مما دعا صاحب نكور الى انفاذ فرقة انتحارية من سبعة فرسان من أشجع رجالاته ، على رأسهم قائد من أعلام المحاربين يدعى حمد بن العياش[20] ، وكلت اليها مهمة التسلل الى داخل المعسكر الفاطمي واغتيال القائد مصالة بن حبوس غرة . فشلت المحاولة وتم القبض على أعضاء الفرقة واصدرت الأوامر بضرب أعناقهم . ولقد تمكن قائدها حمد بن العياش من شراء حياته بعرض خطة لخيانة الامير والاقتحام عليه من جهة لا يعلمها سواه . ما كان على مصالة بن حبوس الا ان الطف مكانه وقربه اليه حتى انس به فأمره على قطعة من الجند لمباغتة سعيد بن صالح المتحصن في جبل ابي الحسن من حيث لا يظن . أما بقية الجيوش فقد تأهبت للاجهاز عليه . وفيما يشبه كماشة ، نجحت الخطة في "تفريق جمعه وغشى سعيدا ما لم يتأهب له وتتابعت عليه العساكر فنظر أمرا لا يستطيع المقام عليه"[21] .

17 - ان رسم هذا الموقع غير واضح في النص المنشور من كتاب البكري ، والغالب على الظن ان الحرف الاول كان في الاصل تاء حرفت فاستحالت نونا ، وبذلك يكون الرسم الصحيح للكلمة «تسافت» اى «المطمورة» بالترجمة العربية . وهو ما يتضح من خلال البادسي ، المصدر السابق ، 114 اذ قال ضمن ترجمة لاحد صلحائه :« وبلدة تسفت على عشرين ميلا من المزمة» ثم يضيف ان المترجم له ممن ينتمي في قبيلة بني توزين التي ما زالت تحمل نفس الاسم الى اليوم .

18 - ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج1 ، 183 .

19 - العبر ، ج6 ، 285 .

20 - حسب نص البكري المنشور ، المصدر السابق ، 95 ، وفي رواية ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج1 179 ورد اسمه كالتالي: أحمد بن العباس بالباء . و ما زالت اعقاب بني يطوفت الذين ينتمي فيهم هذا القائد تحمل نفس الاسم الى اليوم باقليم الحسيمة .

21 - البكري ، المصدر السابق ، 95 .

ولما لاح شبح الهزيمة ، بعث سعيد بن صالح الى مدينة نكور يأمر باخراج أهله وأمواله وكل ما في قصره الى الجزيرة التي بالبحر قبالة مرسى المزمة للابحار بهم نحو بر الأندلس . أما هو فقد آثر الثبات في ساحة المعركة الى ان استبيح عسكره وقتل مع جماعة من أهل بيته منهم ابن اخيه منصور بن ادريس بن صالح ، فدخل مصالة مدينة نكور يوم الخميس ثالث محرم عام 305 هجرية /917 م .

اعتبر الفاطميون هذا الانجاز من ضمن انتصاراتهم الهامة فخصصوا لها احتفالا مشهودا ، إذ طيف برؤوس بني صالح في مدينة القيروان ، ثم نصبت بعدئذ للعبرة على أسوار العاصمة رقادة . لم يتأخر الشعراء عن الاحتفاء بالحدث نظما ، ومن أشهر ما وضع فيه أرجوزة أحد شعراء الدولة العبيدية ابو جعفر أحمد بن المروذي التي احتفظ كل من البكري وابن عذاري[22] ببعض مقاطعها .

أما الناجون من أسرة بني صالح ، فقد تمكنوا من الحلول بمالقة وبجانة لاجئين بالأندلس ، مستجيرين بأميرها عبد الرحمن الناصر، الذي لم يذخر وسعا في انزالهم الأنزال الواسعة وتمكينهم من الكساء الرفيعة والصلات الجزيلة وبلغ الغاية في اكرامهم والحفاوة بمقدمهم[23]. وانطلاقا من مقامهم بمالقة شرعوا بمساعدة صاحب قرطبة في التهيؤ للكرة رجاء الفيئة وعودة المملكة .

ويبدو ان مصالة بن حبوس قد وجد صعوبة كبيرة في تثبيت نفوذ الخلافة الفاطمية بالمنطقة . يتجلى ذلك من خلال اضطراره الى المكوث بنكور نحو ستة أشهر دون طائل في تحويل انتصاره العسكري الى الحاق فعلي للبلاد بالنظام العبيدي. لم يجد مصالة بعدئذ بدا من العودة الى تيهرت قاعدة القيادة العبيدية في الجهات الغربية[24] ، مستخلفا على نكور

22 – نفسه ، 97 ؛ ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج1 ، 179 - 180. وعلى غرار هذا الشاعر، فمن المعلوم ان قاضي قضاة عبيد الله المهدي على القيروان نسب ايضا مروذيا نسبة الى مروذ بخراسان اذ عرف اسمه بمحمد بن عمر المروذي ، ولقد كان له تشيع قديم ونظر في الفقه على قول ائمة المذهب الشيعي . انظر ، القاضي النعمان ، المصدر السابق ، 246 ؛ قارن بما ورد لدى ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج 1 ، 151 .

23 – البكري ، المصدر السابق ، 97 ؛ ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، 285 .

24 – هاشم العلوي القاسمي ، مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري ، منشورات وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية ، الرباط ، 1995 ، ج2 ، 328 .

أحد رجاله يدعي دلول[25]. وليس أدل على صحة هذا التحليل مما لحق بالحامية الفاطمية من عزلة أفضت الى تفتت تلقائي لسلطتها فافترق عن دلول من كان معه من المشارقة "وانفض العسكر من حوله"[26]، وبقي دون حول ولا قوة " في فل من أصحابه"[27].

مافتئت الهوة تزداد اتساعا بين الحاكم الفاطمي وعامة أهل البلد الذين لم يخفوا امتعاضهم من الدعوة العبيدية و "ميلهم الى"[28] آل صالح . ولما تحقق لدى أبناء الأمير المقتول المقيمين بمالقة صحة الأنباء الواردة عليهم بما آل اليه الموقف بنكور، تأهبوا للعودة الى البلد وأخذ زمام المبادرة "ثقة بمحبة رعيتهم لهم"[29] . بمجرد نزول صالح بن سعيد وهو أصغرهم سنا في مرسى تمسامان تسارع اليه أهل البلد من كل ناحية فعقدوا له الامرة بها سنة خمس وثلاثمائة ولقبوه باليتيم [30] . لم يكن للحاكم العبيدي دلول طاقة للوقوف في وجه ما اجتمع عند صالح اليتيم من قوة بتمسامان ، ولم يتمكن من مقاومة زحفهم على مدينة نكور التي دخلوها بدون مقاومة "فظفروا به وبمن معه وقتلوهم"[31] ثم صلبوهم على ضفتي نهر نكور .

---

25 – ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، 285 .

26 – نفس المصدر والصفحة . اختلف الدارسون في تفسير عجز الفاطميين عن ترسيخ نفوذهم بنكور، منهم من ذهب الى ارتباط ذلك بتوجهات سياستهم العامة بالمغربين الاوسط والأقصى التي لا تهدف الى التوسع بهدف الاستقراربل فقط لضمان موارد التجارة وتحصيل المغارم والجبايات باعتماد الحملات المتكررة . محمود اسماعيل ، الأدارسة ، 174 ، ومنهم من عزا ذلك الى الصراع العرقي ضمن السلطة العبيدية بين كتامة وعلى رأسها القائد دلول وبين العرب المشارقة الذين آثروا الانسحاب ، ابو ضيف ، المرجع السابق ، 266 . يبدو مع ذلك ان الغائب من هذه التحاليل هم أهل البلد الذين شكلوا قوة عامية معادية للوجود الفاطمي كما سيتضح لاحقا .

27 – البكري ، المصدر السابق ، 97 .

28 – نفس المصدر والصفحة .

29 – نفس المصدر والصفحة .

30 – يقدم البكري ومن نقل عنه تفاصيل مشفوعة بهالة من التشويق تتعلق بحيثيات ابحار ابناء سعيد الثلاثة ادريس والمعتصم وصالح من بر الأندلس متفقين على ان الامارة تكون للأسبق الى حط الرحال ببر العدوة .نفس المصدر والصفحة ؛ ابن عذاري ، المصدر السابق، ج 1 ، 180 .

31 – ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، 185 .

أدرك العبيديون ان الطريق الى الحاق المغرب الأقصى بالخلافة الشيعية لا يمر عبر نكور التي برهن أهلها خاصة وعامة على التماسك في مواجهتهم ، بدعم من أمويي الأندلس ، فآثروا العدول الى اصطناع القبائل الضارية في أطراف الامارة بهدف تسخيرها للاجهاز ليس فقط على بني صالح ، بل وكذلك على الأدارسة ، فيما وصفه أحد الدارسين[32] بالعبارة المستعارة الشهيرة "فرق تسد".

والغالب على الظن أن مصالة بن حبوس قد استغرق ستة الاشهر التي قضاها بنكور للاغارة على المناطق التابعة ، مع الاهتمام بترتيب الأمور مع البطون القبلية المخالفة . وليس صدفة ان يعمد في ذلك الى قبائل مكناسة التي سبق ان امتنعت كما سلف الذكرعن أداء المغارم والمستحقات لصاحب نكور وهددت بالمفارقة . ومن المعلوم ان مصالة بن حبوس لم يذخر وسعا في استمالة زعيم مكناسة موسى بن أبي العافية ، مبالغا في اكرامه والاحسان اليه الى حد تقديمه " على ما استولى عليه من بلاد المغرب"[33] . ومما يدل على إيثار السير في مخطط تفتيت الامارة انطلاقا من أطرافها وارجاء ضرب القلب الى ان تتهيأ الظروف لذلك ، تفادي حملة مصالة بن حبوس الثانية الكرة بالهجوم عليها ، فمرت " قريبا من نكور"[34] في وجهتها الى غزو مدينة فاس .

---

32 – هاشم العلوي ، المرجع السابق ، ج2 ، 327 .

33 – ابن عذاري ، المرجع السابق ، ج 1 ، 212 .

34 – نفسه ، ج1 ، 183 .اختلفت المصادر في تأريخ هذه الحملة التي حدثت حسب ابن ابي زرع سنة 309 هجرية . أما ابن عذاري فيذكر حينا انها وقعت سنة 307 هجرية وحينا سنة 308 هجرية ، انظر ، البيان ، ج 1 ، 183 ، و 212 . الا ان الارتباك الاكثر تضليلا للدراسات المعاصرة فيكمن في اقدام بعض النقلة على الخلط بين أحداث حملتي مصالة بن حبوس الأولى والثانية .فبينما يقر ابن عذاري ، نفسه ، ج 1 ، 175 برجوع مصالة توًا الى قاعدته بتاهرت منصرفا عن نكور، يعود ليقدم بعض التفاصيل عن لقائه بموسى بن ابي العافية وتقريبه اياه ، دون الاشارة الى حدوث هجوم على الامارة الادريسية ولا لحصار فاس . وفي تأريخه لحملة مصالة بن حبوس الثانية سنة 308 هجرية ، يذكر تحصن صاحب نكورصالح بن سعيد وليس سعيد بن صالح بجبل ابي الحسن ثم يردف ذلك بالنص على احتلال مصالة لنكور وانعراجه بعدئذ في اتجاه مدينة فاس ، مما يكشف عن خلطه بين صالح بن سعيد وسعيد بن صالح وارتباكه بامر الحملتين . ويبدو ان هذا الخلط قد اثر على الروايات اللاحقة التي لم تتحفظ عند الاقتباس من كتابه . انظر : ابن ابي زرع ، المصدر السابق، 80 .

اما عبد الرحمن الناصرفقد استقبل خبر عودة آل صالح الى السلطة بنكور بالحفاوة البالغة ، واعتبره من الفتوح التي لا تقل أهمية عما هو بصدده من غزوات كاسحة للبلد الأندلسية لاستنزال المنتزين من الحصون الثائرة[35] . ونظرا للدور الذي أنيط بامارة نكور في مقاومة المد الشيعي بالعدوة المغربية ، اعتبر الحدث بمثابة انتصار لأهل الاندلس ايضا فقرئ كتاب صالح بن سعيد بجامع قرطبة وأمر بنسخه وتلاوته على منابر الطاعة بسائر البلاد الأندلسية . أردف ذلك بامداد آل صالح بالعدة والعتاد وبالدروع والسلاح وبالسروج والبنود والطبول تقوية لهم ، ولم يغفل اتحافهم بالحلي والحلل الثمينة والكساء الرفيعة والالات العجيبة والأخبية الشريفة استظهارا لأمرهم .

جميع الظروف كانت تصب في اتجاه تعديل العلاقة بين الامارتين عن مبدأ التعاون المتكافئ وحرية المبادرة ، الى الاندماج في سياق مشروع أموي يهدف الى تركيز محور التحكم بقرطبة وتحويل نكور الى منطقة تابعة .

وسواء على المستوى السياسي او الاقتصادي ، تجاذبت مراكز الثقل نحو افريقية حيث أعلنت الخلافة الفاطمية قبل بضع سنوات ، والى الأندلس التي تمكنت منذ ولاية عبد الرحمن الناصر من توفير الشروط لانجاز تحولات بنيوية شاملة [36] . سرعان ما تبلورت مع اعلان الخلافة الأموية بقرطبة سنة 316 هجرية معالم قطبين متصارعين [37] على الزعامة بالحوض الغربي للمتوسط . بينما آلت بلاد نكور ومجموع المغرب الاقصى الى ميدان لاختبار القوة وتشابك المصالح وتداخل اللفوف والتحالفات، فيما عرف بين الدارسين بالصراع الاموي - الفاطمي للهيمنة ببلاد المغرب .

لقد غدا واضحا ان العهد الذي كان فيه الأمراء الأمويون يبعثون كتب الفتح مشفوعة برؤوس الزعماء المقتولين في حروبهم الى حاضرة نكورقد ولى، وانعكست صيغة العلاقة مستلهمة فترة البدايات الأولى لما كانت نكور مجرد اقطاعية ضمن خلافة دمشق الأموية .

---

35 - وهو المجهود الذي أفنى في تحقيقه قرابة ربع قرن من ولايته إذ كان آخر المنتزين ممن استنزل من ثغره محمد بن هاشم التجيبي صاحب سرقسطة عام 322 هجرية ، انظر التفاصيل لدى : ابن حيان ، المقتبس ، ج5 ، 333 .

36 - كما تجلى من خلال الدراسة السالفة الذكر التي انجزناها في موضوع عامة قرطبة .

37 - انظر : محمود اسماعيل ، الأدارسة ، 177 وما بعدها .

لم يجد الأمير الصغير صالح اليتيم في ظل الظروف الجديدة بدا من العودة الى الارتباط بالولاء لأمويي الأندلس الذين كانوا بصدد وضع اللمسات الأخيرة الممهدة لاعلان الخلافة بقرطبة . فما كان عليه اعترافا بفضل الناصر لدين الله الا الانحياز الى قطبه فـ"أقام دعوته بأعماله"[38] وان على مضض . بذلك تكون نكور قد فقدت ما تبقى لها من هوامش المبادرة وأصبحت مجرد أعمال تابعة في الأطراف المضطربة .

وفي تقديرنا ان المرحلة اللاحقة ابتداء من هذا التاريخ كان لها أبلغ الأثر في طمس مكانة نكور السابقة كمحور هام في المبادرة الحضارية التي انتقلت جملة نحو الضفة الأخرى . وبقدرما تألقت قرطبة وامتد اشعاعها الى الآفاق البعيدة ، خفت ذكر نكور وطالها الاهمال .

ويعزى الفضل الى الخليفة الحكم المستنصر الذي تمكن لاحقا من شحذ الذاكرة في حركة ثقافية لم يسبق لها مثيل فعهد الى المؤرخ الشهير محمد بن يوسف الوراق للنبش في نصوص السلف وانتشال جملة من أخبار نكور من طي النسيان[39] ، أفاد منها المتأخرون فيما أثبتوه في مصنفاتهم من نتف ، لم تسعف في توجيه همم الدارسين الى تسليط الأضواء على فصول واسعة من تاريخ المغرب سرعان ما توارت بعد تألق نحو الزوايا المظلمة .

ومن جهة اخرى فجميع المؤشرات تفصح عن الاتجاه خلال السنوات الفاصلة بين الاحتلال العبيدي لنكور وولاية عبد السميع الملقب بالمؤيد خلفا لصالح اليتيم نحو اختلال نفوذ نكور في عدد من أعمالها. وانه لمما يدعو الى الانتباه ان يتخذ هذا الامير لقبا خلافيا خلال هذه الفترة التاريخية بالذات. ومن المعلوم ان اعلان الخلافة الفاطمية بافريقية خلال نهايات القرن الثالث واقدام عبد الرحمن الناصر بعدئذ على اعلان الخلافة الاموية بقرطبة يشكل سابقة سياسية مثيرة لاكثر من سؤال فى الفكر السياسي على صعيد عموم

38 – ابن خلدون ، العبر، ج6 ، 285 .

39 – المقري . النفح ، ج3 ، 163 .

دار الاسلام[40] . فاضافة لمكناسة وغيرها من القبائل التي انضوت تحت نفوذ موسى بن أبي العافية ، تداعت سلطة بني صالح في أحواز جراوة وفي الحوض الأسفل لنهر ملوية الى أطراف قلوع جارة التي انخرطت في سلك الحسن بن أبي العيش الحسني[41] وفي الحدود الغربية بلغ الأمر مداه ، إذ تفتتت الى عدة مناطق نفوذ محلية عليها "رؤساء قبائل غمارة وفيهم كثرة"[42] يندون عن الحصر . وفي نص لابن حيان[43] ، ما يكشف عن انكماش أعمال صاحب نكور الذي غدا مقارنة مع غيره من أمراء العدوة أقلهم "في سعة العمل واسعاد القدرة". لذلك اقتصر أهل العصر ممن تعرض لذكره على تسميته بـ"صاحب نكور ونفزة"[44] بعدما شاع في المصادر التاريخية وصف آل صالح بالمتحكمين في مجموع قبائل صنهاجة وغمارة التي بالمنطقة .

ومما ساعد على تهميش دور الامارة ، امتداد دائرة الصراع بين الخلافتين الفاطمية

---

40 - اختلفت المصادر في تسميته . يذكر البكري ، المغرب ، 97 انه المؤيد بن عبد البديع بن صالح ، بمعنى انه حفيد الهالك صالح اليتيم ، بينما يروي ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، 177 انه ابن عم صالح اليتيم هذا . أما ابن خلدون ، العبر، ج 6 ، 285 فينص على ان اسمه عبد البديع وليس ابن عبد البديع وقد لقب بالمؤيد وأنه الابن المباشر لصالح اليتيم . في حين يسميه ابن حيان ، المقتبس ، ج5 ، 290 المؤيد بن عبد السميع ، بدل عبد البديع ، وربما تكون ايدي النساخ قد صحفت في النقل كما دأبت على ذلك بخصوص عدد من اسماء الاعلام والمواقع . ومن جهة أخرى يذكر ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، 285 ان صالح بن سعيد اليتيم قد توفي سنة 315 هجرية بينما يكتفي البكري ، المصدر السابق ، 97 بالقول انه ملك عشرين سنة ، مما يؤرخ حدوث وفاته بعدئذ بعشر سنوات ، وهو ما لا ينطبق مع السياق التاريخي العام . ويتضح من خلال رواية ابن حيان ، المقتبس ، ج5 ، 261 ان صالح بن سعيد كان حيا في بدايات عام 317 هجرية . ويذكرفي نص آخر ان الامير على نكور سنة 319 هو المؤيد بن عبد السميع ، مما يجعلنا نرجح حدوث وفاته في وقت ما بين التاريخين ، وفي الغالب خلال نهايات سنة 317 .

41 - ابن ابي زرع ، الأنيس ، 84؛ انظر كذلك : ابن القاضي ، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس ، الرباط ، 1973 ، 341 .

42 - ابن حيان ، المقتبس ، ج5 ، 297 .

43 - نفسه ، ج5 ، 261 .

44 - نفسه ، ج5 ، 290 .

والأموية نحو المغرب الأوسط ، اضافة لتألق قبائل مغراوة وبني يفرن الزناتية [45] بزعامة محمد بن خزرالذي تمكن من الوقوف في وجه الشيعة العبيديين وقتل زعيمهم بالمناطق الغربية مصالة بن حبوس السالف الذكر سنة 312 هجرية / 924 م ، ومن ثم الشروع في "بث دعوة الأموية في أعمال المغرب الأوسط"[46] . من الطبيعي ان ينال بذلك الحظوة ويصبح في المرتبة الأولى بين أهل الطاعة "من أمراء البربر عند الناصر لدين الله الأموي"[47] .

لم يكن موسى بن أبي العافية أقل تألقا . فبعد تملكه مدينة فاس وبسط سيطرته على تسول وبلاد تازة، دخل مدينتى البصرة وطنجة وتابع فلول الأدارسة بالاستئصال والمصادرة، فحاصرهم بقلعة حجر النسر حيث حال رؤساء المغرب ووجوه البلاد بينه وبين الاجهاز التام عليهم لما لآل البيت من مكانة [48]. أردف ذلك بالسيطرة على تلمسان وبسط نفوذه على صاع وعلى مضارب زواغة والمناطق المجاورة ، مضطرا صاحبها الحسن بن ابي العيش الى النجاة بنفسه هاربا "الى مرسى جراوة المعروف بأكاس فدخل البحر ولاذ بجزائر ملوية"[49] ، ثم انتقل عنها "الى مدينة مليلة...فتمنع بها"[50] ، لينتهي به المطاف الى جزيرة أرشقول وهي منيعة لا ترام فتحصن فيها بأهله وولده ومواليه . بلغ موسى بن ابي العافية من النفوذ أن تواتر في المصادر التاريخية [51] القول انه قد "استولى على جميع المغرب"

---

45 – عن أصول مغراوة وبني يفرن ودور بطونهم في تاريخ الغرب الاسلامي ، راجع ابن خلدون ، العبر ، ج7 ، 15 – 38 . ويقدم هاشم العلوي بهذا الخصوص بعض التفاصيل عن انقسام قبائل المغرب الأوسط بين الولاء للعبيديين (قبائل مكناسة) والعداء لهم (قبائل بني يفرن ومغراوة) ، المرجع السابق، 328 – 329 .

46 – ابن خلدون ، العبر ، ج 7 ، 35 .

47 – ابن حيان ، المقتبس ، ج5 ، 307 . عن مبادرته محمد بن خزرالى الاقرار بخلافة عبد الرحمن الناصر بعد الاعلان عنها بقرطبة ، انظر نص بيعته سنة 317 هجرية لدى ابن حيان ، المقتبس ، ج5 ، 265 – 266 .

48 – راجع التفاصيل لدى البكري ، المغرب ، 127 – 128 ؛ ابن ابي زرع ، الأنيس ، 83 – 84 .

49 – ابن عذاري ، البيان ، ج1 ، 194. وهي المعروفة اليوم بالجزر الجعفرية الواقعة قبالة رأس الماء على الضفة اليسرى لمصب نهر ملوية .

50 – ابن أبي زرع ، الأنيس ، 84 ؛ الناصري ، الاستقصا لاخبار المغرب الاقصى ، تحقيق جعفر الناصري / محمد الناصري ، الدار البيضاء 1954 ، ج1 ، 187 ؛ ابن القاضي ، جذوة الاقتباس ، 341 .

51 – البكري ، المغرب ، 127 ؛ ابن ابي زرع ، الأنيس ، 83 ؛ ابن عذاري ، البيان ، ج 1 ، 194 .

وصارت جميع المناطق الممتدة من أحواز تاهرت الى السوس الأقصى في ملكه .

واضح ان مكانة نكور وموقع صاحبها قد تدحرجت الى مرتبة ثانوية في اهتمامات مراكز القرار بقرطبة والمهدية ، مما جعل الظرف مناسبا لموسى بن أبي العافية لاستكمال الفصل الأخير من خطته بالاجهاز على الامارة . وبالفعل فقد جهز جيشا وزحف به الى نكور لملاقاة صاحبها المؤيد عبد السميع "فحاصره حتى تغلب عليه فقتله واستباح المدينة وانتهبها وهدم أسوارها وخرب ديارها ونسف اثارها وتركها بلاقع تسفى عليها الرياح وتعاوي فيها الذئاب ، ويلغ منها ما لم يبلغ بعضه مصالة بن حبوس"[52] .

ان الاسراف في تخريب مدينة نكور والمبالغة في طمس معالمها واتلاف منشآتها من طرف قبائل مكناسة البدوية كان على ما يبدو بهدف تقويض الأسس التجارية والحرفية التي شكلت عماد الامارة ومحور اشعاعها الحضاري والعمراني . والجدير بالملاحظة ان الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر لم يتحرك كما دأب على ذلك أسلافه لنصرة بني صالح الذين أبدوا بعض التحفظ -كما سلف الذكر- من الانخراط جملة في سلك التبعية لنظام الخلافة بقرطبة . ولعل في ذلك ما يؤشر على التعديلات الجوهرية التي مست السياسة الأموية تجاه العدوة المغربية منذ اعلان الخلافة الاموية بالأندلس .

ويبدو ان عبد الرحمن الناصركان يراقب عن كثب انتصارات موسى بن أبي العافية

---

52 - حدث ذلك حسب روايات كل من البكري ، المغرب ، 97 وابن خلدون ، العبر ، ج6 ، 285 وابن عذاري ، البيان ، ج 1 ، 194سنة 317 هجرية . بينما يقدم ابن الخطيب تاريخا مغايرلا ينطبق مع الماجريات العامة إذ يحدد وقوع الحدث في سنة 339 هجرية . ولقد سلفت الاشارة الى ان امير نكور المؤيد عبد السميع كان حيا عام 319 هجرية . وبمراجعة السياق التاريخي العام حسبما ورد في مختلف المصادر، وبالنظرلتفاصيل تحركات موسى بن ابي العافية بالمغرب ، ابن أبي زرع ، الأنيس ، 84 وتوجهات عبد الرحمن الناصر صاحب قرطبة في سياسته المغربية ، ابن حيان ، المقتبس ، ج5 ، 287 – 315 ، يتجلى ان دخول موسى بن أبي العافية نكور حدث عام 319 هجرية. وهو ما يتأكد من خلال عدد من الروايات المتأخرة ،انظر: ابن القاضي ، جذوة الاقتباس ، 341 ؛ الناصري ، الاستقصاء ، ج1، 187 بل وحتى لدى ابن عذاري الذي يقدم تاريخا مسايرا لهذا التحليل ومخالفا لما اورده سلفا ، ج1 ، 205 . بينما يقر ابن أبي زرع ، الأنيس ، 84 – 85 ان ابن أبي العافية زحف "الى مدينة نكورفملكها وجميع أحوازها وذلك في شهر شعبان من سنة عشرين وثلاثمائة" .

وجهوده في اجتثاث نفوذ الشرفاء الأدارسة ، أحد أبرز العقبات في سياسته تجاه العدوة المغربية . وحتى يتمكن من ثني أمراء البربر على السير في ركاب العبيديين واستمالتهم للانخراط في سلكه ، لم يتردد عن توهيمهم - على حد تعبيرعيسى الرازي - بعقده العزم على القيام لطلب دولة أسلافه الأمويين بالمشرق ، غاية رجائه من ذلك أن "يضربهم على عداوة أعدائه من بني عبيد الله ملوك الشيعة الظاهرين على بلد افريقية" . ولم يبخل لتحقيق ذلك من بذل "الأموال الجسيمة"[53] . سرعان ما انتقل بعدما توطدت له الأمور بالأندلس الى الفعل في المجال العسكري بتجريد الأسطول لاحتلال سبتة فرضة العبور الأسهل الى بلد العدوة لتكون بمثابة القاعدة المتقدمة لفرض الطاعة على من ببلاد المغرب وذلك في مستهل ربيع الأول من عام 319 هجرية . كان لهذا الحدث الذي روع نفوس أمراء العدوة أبلغ الأثر في اعادة صياغة مواقفهم من الصراعات الجارية ، بمن فيهم حليف بني عبيد الله بالأمس ورأس حربته بالمغرب الأقصى موسى بن أبي العافية الذي لم يتردد عن مخاطبة عبد الرحمن الناصرمهننا اياه بالفتح[54] .

من الطبيعي والحالة هذه ان يقف الخليفة الاموي موقف الخذلان لحلفائه بالأمس أمراء بني صالح في نكور، تاركا اياهم كما سلف الذكر خولا لخيل موسى بن أبي العافية ، تدوس حريمهم وتمرغ وشيجهم في الذل - على حد تعبير بكر بن حماد الشاعر[55] ، خصوصا وان هذا الأخير على ما أصبح له من نفوذ وسطوة بمجموع المغرب الأقصى قد بادر الى مكاتبة عبد الرحمن الناصر متنصلا من الشيعة الفاطميين وراغبا "في موالاته والدخول في طاعته"[56] . وما أن حلت سنة 320 هجرية حتى "أظهر موسى بن ابي العافية الدعوة لأمير

53 - ابن حيان ، المقتبس ، ج5 ، 305 . لمزيد من التفاصيل عن اصرار عبد الرحمن الناصرعلى ترسيخ هذا الاعتقاد لدى أمراء العدوة المغربية انظر نص رسالة محمد بن خزر المغراوي الجوابية ، إذ قال مخاطبا الخليفة الأموي : "...حتى يفتح الله لامير المؤمنين مشارق الأرض ومغاربها ... وتتصل طاعته ان شاء الله الى أقصى العراق ويرد تراث خلافة آبائه" نفسه ، 302 . وفي مكان آخر يفسرابن حيان محاولات الناصر ترسيخ هذا الوهم لدى أمراء العدوة بانها كانت "على سبيل احكام السياسة" نفسه ، 310 .

54 - نفسه ، ج5 ، 290 .

55 - انظر : ابن عذاري ، البيان ، ج1 ، 200 .

56 - نفسه ، ج1 ، 199

المؤمنين الناصر وقام بها ، وذلك في شعبان بعد أن تغلب على نكور"[57] ، وغدا بذلك "التالي لمرتبة محمد بن خزر من أمراء البربر عند"[58] صاحب قرطبة .

لم يكن ذلك ليثني أهل نكور عن الاستمرار في المقاومة اعتمادا على قدراتهم الذاتية لتنحية نفوذ موسى بن أبي العافية الذي تألقت منزلته بشكل ملحوظ في بلاط الخلافة الأموية[59] . والملاحظ ان هذه المقاومة لا نجد لها صدى في المصادر المتاحة التي تصمت عن ذكر تفاصيلها . مع ذلك نستشف بعض خيوطها من خلال اجتماع اهل نكور على بيعة ابا أيوب اسماعيل بن عبد الملك الشهيد الذي قتل كما سلف الذكرمحاربا الى جانب أحد أبرز قواد الناصر الوزير ابي العباس أحمد بن أبي عبدة ، موجهين بذلك عتابا غير مباشر لصاحب قرطبة على خذلانهم والتمكين لعدوهم المشترك بالأمس من الامساك بمخنقهم .

بمجرد توليه الحكم ، تجرد الأمير الجديد أبو أيوب اسماعيل لأعادة بناء " المدينة القديمة التى أسسها صالح بن منصور وعمرها وأعاد السوق فيها وسكنها"[60]، في محاولة لاعادة الحياة الى دواليب الامارة وبث النشاط فيما اختل من شرايين التجارة .

ويرغم وفاة الخليفة الفاطمي عبيد الله المهدي سنة 322 هجرية ، لم يتقاعس خلفه ابو القاسم القائم عن السير في نهجه ومحاولة اعادة نفوذ العبيديين من جديد بالمنطقة . ولتحقيق ذلك ، بعث احدى أشهر الحملات الفاطمية الى المغرب الأقصى تحت قيادة

---

57 – نفسه ، ج1 ، 205 .

58 - ابن حيان ، المقتبس ، ج5 ، 307 .

59 - انظر تفاصيل ذلك في رسالة الناصر لدين الله الذي خاطب موسى بن أبي العافية بالقول : "كل ما توسعت فيه وفتح الله عليك به كان لك ولولدك ولعقبك اقطاعا من امير المؤمنين لك وتوسعا عليك ومكافأة لمحبتك" ، نفسه ، ج5 ، 302 .

60 - البكري ، المغرب ، 97 – 98 ؛ ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، 285 ؛ ابن الخطيب ، أعمال الاعلام 177 .

ميسورالفتى الخصي[61] لغزو مدينة فاس . وسرعان ما تم تدعيم هذه الحملة كما هو معلوم بامدادات جديدة تحت قيادة صندل الفتى الأسود الذي خرج من المهدية في جمادي الآخرة سنة 323 هجرية فنزل بمدينة جراوة ، ومنها تقدم نحو نكور الى ان حل بموضع هراس حيث عسكر بجموعه . من هذا الموقع بادر صندل الفتى الى مخاطبة صاحب نكور الذي كان قد انفصل عن حاضرته وحل بقلعة اكرى[62] يستحثه على اللحاق به . لعل في هذه التفاصيل ما يدل على محاولة القائد الشيعي استغلال جفاء العلاقات بين نكور وقرطبة لجر الامارة الى الانخراط في الدعوة العبيدية والزج بها في مسلك العداء لأموي الأندلس وحلفائهم الجدد بالمنطقة .

وهو ما كان ينتظرة موسى بن أبي العافية الذي أحجم عن مواجهة الجيش الفاطمي وآثر التحصن باحدى القلاع ، تاركا نكور وفاس لمصيريهما لقمة سائغة لفرقتي الجند الشيعي تحت قيادة صندل وميسور . والراجح ان صاحب نكور قد تنبه الى مخاطر هذه المناورة على مستقبل الامارة فعمد الى قتل رسل صندل الفتى ، الذي ما ان علم بالخبر حتى زحف لملاقاة قوات الأمير المتحصنة بقلعة اكرى . على غرار سابقيه من القواد الفاطميين ، عسكر صندل بموضع نسافت ، ومنه ناشب اهل نكور القتال وأحكم عليهم الحصار .

استمرت المعارك سجالا بين الطرفين لمدة ثمانية ايام وانتهت في احدى جمع شهر

61 -وهو من العبيد الصقالبة الذين ادرجوا في الخدمة العسكرية بالدولة الفاطمية ، ونال بذلك الحظوة الواسعة والمرتبة العالية حتى وسم تقديرا لجهوده بميسور الكبير . ولقد انتهى به الأمر الى القتل في حرب ابي زيد كيداد الخارجي المعروف بصاحب الحماربافريقية عام 333 هجرية .

62 - وهي القراءة المرجحة علما بالمعنى الذي للكلمة في لسان اهل البلد اذ تطلق على المسطحات الطبوغرافية في المناطق المرتفعة التي تتخذ شكل منحنيات او هضاب صغرى . ورد اسم هذه القلعة ايضا في كتاب العبر مصحفا بالدال "اكدي" ، ج6 ، 286.

شوال من السنة المؤرخة بمقتل ابي ايوب اسماعيل[63] ووضع السيف في أكثر أصحابه . بذلك تمت السيطرة على القلعة بعد سبي ما كان بها من نساء آل صالح وأسر طفلين من ابناء الأمير المقتول . على اثر ذلك عمد صندل الفتى الى تقديم احد رجالات كتامة يدعى مرمازوا وأمره في فرقة من الجند على نكور ثم جد السير للالتحاق بميسورالخصي المحاصر لمدينة فاس[64].

ما أن غادر القائد الشيعي صندل قلعة اكرى التي يبدو انها قد تحولت - على اثر تخريب مدينة نكور - الى ما يشبه قاعدة مؤقتة للبلد ، حتى اجتمع اهل البلد على تأمير موسى بن المعتصم بن محمد بن قرة بن المعتصم بن صالح بن منصور الملقب بابن رومي ، فوثبوا - سيرا على سنة سلفهم - بعامل الشيعة مرمازوا وقتلوه وبعثوا برأسه بعدما استأصلوا شأفة الحامية الى الخليفة الأموي بقرطبة[65].

ويبدو من خلال ما آلت اليه الأوضاع ، انهم ما قصدوا بذلك مخاطبة ود عبد الرحمن الناصرالذي اعطى لهم بظهر المجن ، بقدرما رغبوا في تبليغه رسالة عتاب على انقلابه عليهم ، مؤكدين مع ذلك على استمرارهم في الوفاء بالعهود في مواجهة المشروع الشيعي بينما آثر صنيعته الجديد موسى بن أبي العافية التقاعس عن المواجهة .

انعكست هذه الصراعات سلبا على مجمل الأوضاع الداخلية بنكور . يتجلى ذلك من خلال عودة النعرات القبلية والسخائم العصبية للفعل من جديد في ولاية موسى بن رومي الذي انحاز لعشائر بني يصليتن ، اذ كان مقيما معها بجبل ابي الحسن في تمسامان قبل توليته مقاليد الحكم . ولعل في تحويل قاعدة الامارة في ظل اضطرابات العصر ولو مؤقتا الى قلعة اكرى الواقعة في احواز بني يصليتن ما يكشف عن تصاعد ثقلهم في توجيه دفة الامور. أسفر ذلك عن قيام ثورة بقيادة عبد السميع بن جرثم بن ادريس بن صالح بن ادريس

63 - ما زال ضريح هذا الامير معروفا الى اليوم بسيدي اسماعيل ويقع عند قدم السفح الجبلي المقابل لمركز بودينار، مما يقدم مؤشرا فائق الاهمية في توجيه السبر الاثري والمعاينات الاركيولوجية بالمنطقة قصد تحديد موقع «قلعة اكرى» ، وهو ما نتمنى ان تتوفر لنا شروط انجازه في المستقبل القريب بحول الله .

64 - البكري ، لمغرب ، 98 ؛ ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، 286 .

65 - انظر : البكري ، المغرب ، 98 ؛ ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، 286 ؛ ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، 178 .

بن صالح بن منصور سنة 324 هجرية ، انتهت بطرد موسى بن رومي الى بجانة بالعدوة الأندلسية حيث اضطر الى الاستقرار بولده وأهل بيته . وهو نفس المصير الذي آلت اليه حال اخيه هرون وابناء عمه جرثم بن أحمد ومنصور بن الفضل اللذين آثرا الاستقرار بمالقة .

والراجع ان اختلاف مواقف آل صالح من مستقبل العلاقات مع نظام الخلافة بقرطبة قد شكل وجها آخر للصراعات التي دبت بين أهل نكور وانعكست على مستوى البيت الحاكم بازاحة موسى بن رومي وتأمير عبد السميع بن جرثم . جميع القرائن تدل على ان أهل البلد قد وطدوا العزم على مقاومة نفوذ ابن ابي العافية والتنصل من وصايته المفروضة عليهم من طرف خليفة قرطبة ، مستندين في ذلك الى معرفتهم بانه "لم يكن لديه بالموثوف الطاعة"[66]. ولعل في وقوفهم ببسالة منفردين في مواجهة الحملة العبيدية ، ما فوت على غريمهم امكانات اتهامهم بالخروج عن الطاعة وما فسح المجال لصاحب نكور لنهج سياسة أكثر استقلالية تجاه قرارات قرطبة .

يتجلى ذلك من خلال نص رسالة دالة بعثها موسى بن أبي العافية الى عبد الرحمن الناصر سنة 323 هجرية ضمنها شكواه بالقول : "وصاحب نكور قبحه الله هو اضر علينا من أولئك القريش في الحقيقة ، لانه أرفق بالبحر بعد ان وقف به الجوع والجهد ، لما مكر بامير المؤمنين فيما بلغنا وكاتبه يقول انه معنا وان الميرة تجيئنا من بلده ، ولا والله العظيم ماكان من شيء مما قاله ، وان بلدنا وأحوازنا على ما بنا من مغاورة العدو لنا وتردده بناحيتنا لأكثر رخاء وأوسع نعما من نكور وأحوازها ، وما يأتينا من عنده الا الغارات التي لا يزال يشنها على أطراف طاعتنا مما يليه ، وما تمضي طرائف بلده وتحفه علانية الا الى المقطوع ميسور"[67].

نجح موسى بن أبي العافية الذي كانت كلمته مسموعة عند أخص خواص عبد الرحمن

66 – ابن حيان ، المقتبس ، ج5 ، 307 .
67 – نفسه ، ج5 ، 372 .

الناصر[68] في تأليب الخليفة الأموي على امارة نكور واقناعه بتجهيزالاسطول في حملة بحرية لنصرته على ترسيخ نفوذه بشواطئ العدوة بعدما آل حاله الى الانكماش على اثر نكبته الشهيرة على يد لقائد العبيدى ميسور الخصي[69]. ويقدم ابن حيان[70] التفاصيل الدالة عن حجم هذه الغارة واهمية الاسطول الذي "بلغت عدة مراكبه أربعين قطعة وعدد ركابه ثلاثة آلاف رجل"، وقد انطلق من سبتة قاعدة الخلافة الأموية بالعدوة المغربية "فتقدم الى مليلة ونكور وافتتحهما"[71].

وفي رسالة جوابية لموسى بن ابي العافية الى الناصر لدين الله ما يفصح عن تضافر جهود الاسطول البحري مع عساكره التي أحدقت بجهات البلد في احكام الحصار برا وبحرا على اهل نكورالذين آل مصيرهم الى الهزيمة والاستسلام ، إذ قال معترفا بالجميل شاكرا صاحب النعمة :"لما ورد علينا الاسطول المنصور وحل بمرسى نكور ناهضنا الفاسقين بها واستولينا على جميع نعمهم وحملنا السيف على من استحق منهم واعفينا الرعية وأصحاب السلامة من التجار"[72].

واضح ان الأمر يتعلق بغزو عسكري لامارة بني صالح من طرف الخلافة الأموية وحليفها موسى بن أبي العافية ، وليس كما زعم احد الدارسين[73] بكونها حملة لمساعدة بني صالح على استعادة امارتهم . وهو ما عبرعنه ابن أبي زرع[74] في عبارة مقتضبة واضحة الدلالة بالقول :"وحاز الناصر وجيوشه من الأندلس الى العدوة يقاتلون من خالفهم من البربر

---

68 - ففي مناسبة سابقة تمكن من اقناع الناصر بواسطة عبد الملك بن أبي حمامة الذي توسط له لدى حاجب وكبير وزراء الخليفة موسى بن محمد بن حدير لاقناعه بتجهيز الاسطول لحصار الحسن بن أبي العيش في جزيرة أرشقول سنة 319 هجرية ، البكري ، المغرب ، 78 لمزيد من التفاصيل عن هذه الحملة البحرية الأموية على بر العدوة ، انظر : ابن حيان ، المقتبس ، ج5 ، 312 - 314 .

69- عن نكبة موسى بن أبي العافية واضطراره الى الملاذ بالاطراف انظر: ابن حيان ، المقتبس ج5 ، 274 . لمزيد من التفاصيل راجع : هاشم العلوي ، المرجع السابق ، 334 - 336 .

70 - المقتبس ، ج5 ، 382 .

71 - نفس المصدر والصفحة .

72 - نفسه ، ج5 ، 414 .

73 - ابو ضيف ، اثر القبائل ، 275 .

74 - الأنيس ، 88 .

ويستألفونهم ويحملون الطائع على المخالف، والناصر ممد لمن عجز منهم برجاله مقوي لمن ضعف بماله حتى ملك أكثر المغرب".

والجدير بالملاحظة ان تأصل علاقات الود والتحالف بين قرطبة ونكور قد حجب عمن تعرض لهذا الموضوع [75] معاينة الفصول التاريخية الكاشفة عن الوجه الآخر المترتب عن تحول الخلافة الأموية في اتجاه العداء لامارة نكور، الى حد الاقدام على احتلالها بالسيف. لذلك فليس مصادفة أن يعمد مؤرخو الدولة الأموية في هذا السياق الى وسم اهل نكور بـ"أعداء الدولة"[76].

نخلص الى القول بان امارة نكور، اصرارا منها على عدم الانخراط في التبعية المطلقة لقطبي الصراع المتحكمين في ماجريات الأحداث بالغرب الاسلامي انطلاقا من حاضرتي الخلافة بقرطبة والمهدية، قد جاهدت لالتماس موقعها كطرف ثالث، حفاظا على هوية مغربية متميزة، وصيانة لكيان متجذر في تاريخ العدوة، ورعاية لمكانتها كحلقة محورية في المبادلات التجارية عبر ضفتي المتوسط، وفي شبكة المواصلات التي تضمن ارتباط بلاد الأندلس والمغرب الأقصى بالجناح الشرقي لدار الاسلام. كلفها ذلك جهدا بالغا، لا طاقة لامارة من حجمها في تحمل تبعاته، إذ تصادمت أكثر من مرة مع القوتين العظميين بالمنطقة، وتعاقبت عليها الغزوات تارة من طرف الشيعة العبيديين المتكالبين من جهة الشرق، وطورا من طرف أمويي الأندلس الذين سطا نجمهم بالغرب، الى ما تتابع عليهم من نكبات على يد حلفاء هؤلاء وأولئك.

ما كان بوسع بني صالح الاستمرار في الابحار وسط الاعصار لولا رسوخ تماسك أمراء نكور بعامة أهل البلد الذي وضعت أصوله على يد المؤسس صالح بن منصور مفقههم في الدين والتعاليم، وتجلت عناصره بعدئذ تباعا، خصوصا في عهد سعيد بن صالح الذي بلور كما سلف الذكرسياسة عامية، كان لها أبلغ الأثر في تمكين الامارة من استنهاض القوى بعد كل نكبة.

ولتفادي ما يحدث عادة للغزاة المتعاقبين على احتلال نكور بقيام اهل البلد على

---

75 - انظر : Guillermo GOZALBES ," El reino de Nekor" , *op . cit* , pp. 56-58

76 - ابن حيان ، المقتبس ، ج5 ، 382 .

الحامية مباشرة بعد انتهاء الحملة وانسحاب القوة الاساسية المشاركة في اخضاع البلاد ، يبدو ان عبد الرحمن الناصر وحليفه موسى بن أبي العافية قد رتبوا الحملة ليس فقط بهدف احتلال البلد، بل وكذا لتدبيرالأمور به بعدئذ ، بما لا يدع مجالا أمام العامة للانتقاض والعودة الى الانتظام في امارة مفارقة . يتجلى ذلك من خلال عدة مؤشرات ، فبالاضافة لضخامة القوة المشاركة في الحملة البحرية ، وبصرف النظر عن عدد عساكر ورجالات موسى بن أبي العافية ممن ساهم في الغزوة ، فمن الملاحظ أن الأسطول الأندلسي قد تضمن "من الحشم خمس مائة"[77] نفر ممن بعثهم الناصر مع الجند المهاجم .

والغالب على الظن ان الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصرقد وكل لهذا الفريق من الخاصة تنفيذ مهام محددة على المستويين السياسي والاداري، تكمن في العمل على تفتيت نظام آل صالح ووضع أسس كيان تابع على إثر الانتهاء من الغزو العسكري لنكور. والجدير بالملاحظة ان أندلس الخلافة كانت تمر خلال نفس الحقبة والى حدود الثلاثينيات من القرن الرابع الهجري بما يشبه ثورة في مجال الهيكلة الادارية وتنظيم الخطط والكور[78] . وفي قول موسى بن أبي العافية : "ثم أخرجنا شواني من الاسطول الميمون"[79] لمتابعة العمليات العسكرية انطلاقا من المزمة في اتجاه مدينة جراوة وجزيرة أرشقول شرقا، ما يدل عن بقاء معظم القوة الأندلسية ببلد نكور . ولعل في استغراق هذه الغزوة "ستة اشهر" [80]كاملة ، ما يؤكد ذات الحقيقة .

من جهة أخرى ، فقد سلم الأمير عبد السميع بن جرثم من القتل ، برغم اقرار موسى بن أبي العافية بان السيف قد وضع على من استحق من اهل نكور، مع العلم ان احكام الطوق العسكري برا في تزامن مع الحصار البحري ، لم يترك أي مجال للفرار بالشكل الذي دأب عليه آل صالح في الماضي .

لم تقتصر النجاة من حد السيف على الأمير بل شملت "الرعية وأصحاب السلامة من

---

77 - نفس المصدر والصفحة .

78 - وهو ما تناولناه بتفصيل ضمن دراستنا السابقة عن عامة قرطبة .

79 - ابن حيان ، المقتبس ، ج5 ، 414 .

80 - نفسه ، ج5 ، 382 .

التجار وغيرهم"[81] . ويبدو أن موسى بن أبي العافية قد تلقى في ذلك أوامر صارمة من مركز القرار بقرطبة . أما الحشم وخاصة الدولة ممن بعثهم الناصر ضمن الحملة فقد انكبوا على إثر الامساك بزمام المبادرة في نكورعلى اصطناع المنهزمين والتزلف للرعية وتقريب التجار وخاصة الامارة . من ثم الشروع في اقامة ما يشبه نظام حماية خاضع سياسيا لقرطبة ومنضبط عسكريا لامرة موسى بن أبي العافية ، يشغل فيه عبد السميع بن جرثم منصب أمير تابع بدون أية سلطة فعلية[82] .

ولعل فيما ذكرته بعض المصادر عن انزواء موسى بن أبي العافية على إثر نكبته على يد الجيش العبيدي بقيادة ميسور الخصي ، فنفي "شريدا في الصحراء وأطراف البلاد التي بقيت بيده وذلك من كرسيف الى مدينة نكور"[83] ما يؤكد فقدان آل صالح لسلطانهم الفعلي على البلاد خلال هذه الحقبة رغم احتفاظهم بألقاب الامارة . ومن المعلوم انه بعد وفاة موسى بن أبي العافية سنة 326 هجرية[84] بعث عبد الرحمن الناصر لابنه مدين بن موسى بن أبي العافية بسجل "ولاه به أعمال أبيه من مليلة وغيرها من مدن العدوة حسب ما كان أسجل لأبيه قبله"[85] .

- نفسه ، ج5 ، 414 .

82 - من المفيد بهذا الخصوص اجراء مقارنة مع السياسة التي نهجها الخليفة الناصر تجاه المنتزين باقاليم وكور الأندلس طوال المرحلة التي قضاها في إخضاع المناطق والنواحي الثائرة بمجموع البلاد الأندلسية وادماج القوى المحلية والاقليمية في نظام الجماعة المتمركز حول حاضرة الخلافة بقرطبة . ولقد أردف ذلك بالاقدام على فصل سلطات الولاة الادارية بالأقاليم والكورعن سلطات صاحب الجند وارباب الخطط المالية والقضائية والتشريعية ، في سابقة مثيرة للانتباه على مستوى عموم الحضارة العربية الاسلامية ، وهو ما تناولناه بتفصيل في بحث مستقل بعنوان : سلطان الفتيا والقضاء بين منحى الاستقلال وصيرورة الاحتواء ، ندوة الغرب الاسلامي بين التراجع والصمود ، الجمعية المغربية للبحث التاريخي ، الرباط ، 1994 (تحت الطبع) . انظر كذلك ، عامة قرطبة ، 57 - 69 .

83 - ابن أبي زرع ، المصدر السابق ، 86 .

84 - اختلف في تاريخ وفاته فقيل "قتل ببعض بلاد ملوية وذلك في سنة 341 وقيل قتل في سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة" ، نفس المصدر والصفحة . اما ابن حيان فيوثق تاريخ وفاته سنة 326 هجرية ، المقتبس ، ج5 ، 427 .

85 - نفس المصدر والصفحة .

ما كان لعامة أهل البلد أن يستمروا خولا لصاحب قرطبة عبر الخضوع لزعماء مكناسة ، فقرروا التحرر من نظام الوصاية والأخذ من جديد بزمام المبادرة . ففي سنة 336 هجرية "انتفض أهل نكور على عبد السميع وقتلوه"[86] في ثورة صمتت المصادر كما هو الشأن بخصوص غيرها من الحوادث على تقديم تفاصيلها . أردفوا ذلك باستدعاء جرثم بن أحمد بن محمد بن زيادة الله بن سعيد بن إدريس بن صالح بن منصور الذي كان مقيما بمدينة مالقة في العدوة الأندلسية فبايعوه بالامارة .

وعلى عكس الروايات المتعلقة بمختلف أمراء بني صالح السابقين ، لأول مرة يتفق كل من البكري وابن خلدون[87] على تحديد تاريخ بيعة جرثم بن أحمد وذلك في سنة 336 هجرية . استمر هذا الأمير في الحكم حوالي ربع قرن من الزمن الى أن توفي حسب نفس الروايات سنة 360 هجرية[88].

برغم ما تخلل فترة حكم هذا الأمير من موجات برد وجفاف وجراد ووباء[89]، يبدو أن عودة الاستقرار السياسي – وان لفترة – قد مكن أهل نكور من استنهاض الهمم لترميم الخرائب الناتجة عن تلاحق النكبات بهم مع العمل على تنشيط دواليب العمران بعد فترة اختلال وشلل ، مستفيدين في ذلك من الجنوح العام بمجموع الحوض الغربي للمتوسط نحو إرساء قواعد التبادل وتأمين سبل التجارة والتعاون . وهو ما عبر عنه ابن خلدون[90] في عبارة مقتضبة دالة بقوله متحدثا عن الأمير جرثم بن أحمد :فـ"استقامت له الأمور" .

ومن الملاحظ ان المصادر المتاحة لا تقدم أية اشارة من شأنها الافصاح عن مآل العلاقات خلال هذه الحقبة بين صاحب نكور وحاضرة الخلافة بقرطبة ، على ما يتواتر في متونها من تفاصيل بشأن مختلف أمراء العدوة ممن دأبوا على إرسال وفودهم الى مدينة

86 – ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، 286 .

87 – المغرب ، 99 ؛ العبر ، ج6 ، 286 .

88 – وفي نص لابن حيان ، المقتبس ، نشرعبد الرحمن علي الحجي ،بيروت 1965 ، 154 ما يدل على أن جرثم بن أحمد هذا كان حيا خلال سنة 362 هجرية إذ أن مبعوثه محمد بن أبي سنديب كان من ضمن الوفود التي حضيت باستقبال الحكم المستنصر بقصر الخلافة بمدينة الزهراء .

89 – راجع ، ابن أبي زرع ، المصدر السابق ، 100– 101 .

90 – العبر ، ج6 ، 286 .

الزهراء لمخاطبة الخليفة الأموي بما استجد لهم من أمور، اللهم ما ورد على لسان شيخ المؤرخين ابي مروان بن حيان [91] بخصوص وقوف "محمد بن أبي سنديب رسول جرثم بن أحمد" بين يدي الحكم المستنصر من ضمن جملة من أمراء العدوة مجددين للبيعة ومؤكدين اعتقاد الطاعة ، وذلك في شهر ذي الحجة من سنة 362 هجرية / 972 م.

والجدير بالذكر ان الخلافة الأموية قد عملت ابتداء من الثلاثينات من القرن الرابع الهجري وطوال العقود اللاحقة على ارساء قواعد "الصلح والألفة"[92] والتعاون والمسالمة ، ليس فقط مع إمارات ومتنفذي العدوة المغربية ، بما في ذلك امارة برغواطة التي طالما اتهمت بالمروق والزندقة ، بل وكذلك مع الامبراطورية البيزنطية ودولة الفرنجة ، الى غير ذلك من الممالك الصغيرة من أمثال كونتية برشلونة أوجزيرة سردينيا أوملفط الايطالية التي تقاطرت سفاراتها على حاضرة الخلافة طلبا للانضواء في سلك المستأمنين من دار الحرب [93] مما يفصح عن جنوح العلاقات في مجموع الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط خلال هذا التاريخ نحو تغليب الأمن والاستقرار وتشجيع التجارة والمبادلات وتمتين أواصر التكامل بين الكيانات ونبذ أساليب الحرب وعوامل الفرقة والصراعات [94].

وللاشارة ، فمن المفيد في هذا السياق التذكير بدور الخلافة الأموية في ادماج ضفتي البحر الأبيض المتوسط في سياق شبكة من المواصلات البحرية والنهرية والبرية تحت

---

91 - المقتبس ، نشر الحجي ، 138 ، 154 . أبدى أحد الدارسين Guillermo GOZALBES "El reino de Nekor", *op.cit*, p.59 بعض التحفظ من كون المقصود في سياق نص ابن حيان هذا هو جرثم بن أحمد أمير نكور، ربما لكونه قد وقع تحت تأثير روايتي البكري وابن خلدون السالفتين بنصهما على وفاة هذا الأمير سنة 360 هجرية ، على عكس ما ذهبنا اليه في هذا التحليل.

92 - نفسه ، ج5 ، 485 .

93 - راجع التفاصيل لدى : البكري ، المصدر السابق ، 134 ؛ ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج2 ، 213 ، 218 ، 234؛ ابن حيان ، المصدر السابق ، ج5 ، 460 ، 485 وكذلك نشر الحجي ، 169.

94 - انظر : ابن حيان ، المقتبس ، ج5 ، 454 .

تأثير متطلبات نظام اقتصادي تشميري تعاقدي[95]، محوره قرطبة وشرايينه تمتد عميقا نحو الأطراف البعيدة . وبقدرما ساهم هذا البنيان في تألق المنخرطين ، انعكس انهياره على إثر اختلال القلب بقيام الفتنة القرطبية ابتداء من سنة 399 هجرية / 1008 م سلبا على أوضاع الجميع . أسفر ذلك عن بداية عصر من التشتت والاضطراب أتى بشكل تدريجي على معظم المنجزات السابقة فيما اصطلح على تسميته بعصر الطوائف .

تجلت بوادر ذلك في نكور بتعاقب سلسلة من أمراء فرع بني جرثم من آل صالح على الحكم ، تصمت المصادر عن ذكر تفاصيل ولاياتهم التي استمرت حسب رواية البكري[96] الى سنة 410 هجرية / 1019 م ، اللهم اشارة وردت لدى مجهول[97] يذكر فيها غزو المنصور بن أبي عامر لبلاد نكورفي سياق الحملة العسكرية التي بعثها بعد سنة 386 هجرية / 996 م في جند كثيف تحت إمرة قائده واضح الفتى الى أرض العدوة لمواجهة زيري بن عطية ، فحلوا "بحصن نكور فضبطوه" . يضيف ابن الخطيب[98] مع المبالغة في تمديد السلسلة وعدم ضبط اتصال النسب بان عبد السميع بن محمد بن عبد السميع بن محمد بن عبد السميع بن جرثم كان آخر أمراء بني صالح وبموته انقرضت دولتهم بنكور .

وليس أدل على اختلال أوضاع نكور خلال هذه الحقبة من عودة خطر القبائل البدوية

---

95 - وهو ما تناولناه في موضوع محاضرة القيت بكلية الاداب بتطوان بتاريخ 15 يناير 1995 .
ويبدو أن الوقت قد حان إن لم يكن قد تأخر كثيرا لتجاوز التحليلات النظرية والجدالات التأملية حول الأنماط الاقتصادية التي سادت دار الاسلام خلال عصر التألق الحضاري للانكباب على دراسة تفاصيل هذا النظام في مختلف مجالات العمران ، سواء المرتبطة بالفلاحة والانتاج الحرفي أو بالتجارة والمبادلات أو بالمال والمواصلات . وهو ما نأمل الشروع قريبا في دراسته من خلال فيض من المصادر الفقهية والتاريخية المتاحة التي تقدم مادة في غاية الأهمية لم تحظ بعد بما تستحقه من عناية .

96 - المصدر السابق ، 99 .

97 - مفاخر البربر لمجهول ، ضمن ثلاث نصوص عربية عن البربر في الغرب الاسلامي ، تحقيق محمد يعلى ، مدريد 1996 ، 162 . عن تفاصيل هذه الحملة راجع : ابن عذاري ، البيان ، ج2 282 ؛ ابن ابي زرع ، المصدر السابق ، 105 .

98 - أعمال الأعلام ، 179 . علما بان الجد جرثم قد توفي سنة 360 هجرية ، والراجح ان ابن الخطيب ولربما الناسخ قد كررعبد السميع بن محمد للمرة الثانية سهوا .

ممثلة في بطون أزداجة البرنسية[99] التي تمكنت من احتلال البلد . وكعادة أسلافهم ، لم يجد بنو جرثم بدا من الفرار الى مالقة بعدوة الأندلس . ومن هناك رتبوا أمر عودتهم وطرد الغزاة الذين انسحبوا "الى بلدهم بناحية وهران" . وبرغم ما يفهم من سياق المعلومات التي أوردها ابو عبيد الله البكري بهذا الخصوص ، فالراجح ان تاريخ احتلال أزداجة لنكورثم طردهم بعدئذ منها كان سابقا لسنة 410 هجرية / 1019 م . والغالب على الظن حسبما يتضح من خلال تعاقب الأحداث اللاحقة ان ذلك قد وقع قبل سنة 406 هجرية / 1015 م بمدة .

لم تتأخر بطون أزداجة عن معاودة الزحف على بلاد نكور تحت قيادة اميرها يعلى بن الفتوح الأزداجي سنة 406 هجرية . والواقع أن أهل البلد تحت إمرة عبد السميع بن محمد قد استماتوا في مقاومة الغزاة طوال أربعة سنين من الاغارات المتتالية ، الى أن تمكن يعلى بن فتوح الأزداجي من دخول المزمة والسيطرة على بلد نكور[100] . لم يتردد القائد الأزداجي في قتل الأمير عبد السميع بن محمد وذلك سنة 410 هجرية ، كما وضع السيف في "من بقي من أولاد صالح وجرثم ونفي قوما منهم الى الحرمة"[101] . وبذلك تكون إمارة بني صالح قد انقرضت بعدما دام ملكها من لدن ولاية صالح بن منصور الى حين سقوطها على يد يعلى بن فتوح الأزداجي ما ينيف عن ثلاثة قرون من الزمن .

وفي نص لابن الخطيب[102] ما يدل على عودة العصبية وقانون القهر والغلبة للتحكم من جديد في ماجريات الأمور منذ هذا التاريخ ببلد نكور . يتجلى ذلك من خلال قوله ان

---

99 – عن تألق نجم ازداجة خلال القرن الرابع الهجري وانحياشهم الى طاعة أمويي الأندلس وارسال وفودهم للمثول بين يدي عبد الرحمن الناصر راجع : ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج2 ، 219 . لمزيد من التفاصيل عن أنساب هذه القبائل وبطونها أنظر: ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، 117 ،190 ،192 .

100 – ليس صدفة ولا خلطا أن يعلل البكري وهو من أهل القرن الخامس الهجري بأن بلد نكور هي مدينة المزمة ، علما بما آلت اليه حاضرة نكورمن خراب منذ مدة كما سلف الذكر . والراجح أن دار الامارة قد حولت الى المزمة على الشاطئ حيث المرسى المعروف بمرسى نكور . وبدل ذكر مدينة نكور، يضيف البكري بان يعلى بن ابي الفتوح غلب على بلد نكور، وشتان ما بين مصطلحي المدينة والبلد من تأرجح في المعنى ، مما يؤكد ذات التصور .

101 – ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، 179 .

102 – أعمال الاعلام ، 179 .

يعلى بن الفتوح الازداجي قد تمكن من البلد« مستظهرا بوفور قبيله». وبعد وفاته سنة 423 هجرية/1031 م تامر ابنه يوسف بن يعلى[103] الذي دام ملكه قرابة ثمان سنوات الى حين وفاته عام 431 هجرية لينتقل الحكم على اثر ذلك الى ولده عز بن يوسف .

ومن المعلوم ان المرابطين تحت قيادة يوسف بن تاشفين قد دخلوا البلد في عهد ثالث الأمراء الأزداجيين عز بن يوسف هذا ، فافتتح على حد تعبير ابن أبي زرع الفاسي[104] "مدينة نكور وخربها فلم تعمر بعد" . حدث ذلك سنة 473 هجرية[105] ، فما كان على أهل نكور بعدما خربت الحاضرة ودكت معالمها وانمحت رسومها الا الافتراق في البلاد . يضيف ابن الخطيب[106] بأن آثارها استمرت مع ذلك تقاوم الزمن طوال قرون الى أن تحولت في عهده الى "مزارع لبني ورياغل" .

---

103 - ما زالت احدى الجماعات القبلية الضاربة بالاحواز المباشرة لنكور حيث موقع مدينة امزورن الحالية تعرف باسم « أيت يوسف وعلي » ، اي ذرية يوسف بن يعلى . وليس مستبعدا ان يكون المذكور في هذا السياق هو الجد الاعلى لهذه الجماعة .

104 - المصدر السابق ، 143 . وهو ما اشارت اليه باقتضاب عدد من الدراسات المعاصرة ، انظر على سبيل المثال : Jacinto BOSCH VILA, *Los Almorávides*, Tetuán 1956, p.124 :

105 - تختلف الروايات حول تاريخ دخول اللمتونيين تحت قيادة يوسف بن تاشفين الى نكور . فبينما يقر البكري بان بلاد نكور هي اليوم بايدي ذرية يعلي بن ابي الفتوح وذلك سنة 460 هجرية التي توافق تاريخ تصنيفه لكتابه المسالك والممالك المعتمد في هذا العمل، يكتفي ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، 286 بالقول : ان نهاية الأزداجيين كانت في أعوام ستين واربعمائة دون تحديد السنة التي حدث فيها ذلك بالضبط . أما ابن الخطيب فيصرح دون تحفظ أن دخول اللمتونيين نكور وقتلهم لصاحبها عز بن يوسف بن يعلى كان سنة 460 هجرية. وبالنظر الى السياق العام لقيام دولة المرابطين ، نرجح التاريخ الذي أثبته ابن ابي زرع الفاسي ، أي سنة 473 هجرية .

106 - أعمال الاعلام ، 179 .

الباب الثاني

حفريات في بواكير الحضارة والعمران

الفصل الرابع

النشاط الفلاحي ووضعية الارض

لقد بات مسلما لدى المهتمين بالتاريخ الوسيط اننا نكاد نجهل كل شيء عن المراحل الأولى لنشأة الغرب الاسلامي ، وعن الحيثيات التي رافقت - على مدى ما ينيف عن نصف قرن من الزمن - تحول المغرب من الانتماء في الفضاء الحضاري القديم المسيحي - اللاتيني للاندماج كجناح متكامل في دار الاسلام . وما زالت العبارة الشهيرة التي ترددت في أوساط الاستشراق ناعتة فترة التأسيس "بالقرون المظلمة" الى اليوم سيدة الموقف . ولا غرو ، فحتى القدامى من مصنفي أمهات المصادر المعتمدة في التأريخ لهذه العصور يقرون بان كبريات أحداث الفتح "لم تنضبط بتاريخ محقق"[1] فبالأحرى ما يتعلق بالجزئيات والتفاصيل . بلغت الشكوى من ندرة المعلومات وفقر المادة التاريخية بالبعض[2] الى حد التأكيد على استحالة تناول تاريخ المغرب الأقصى طوال فترة الفتوحات الاسلامية الى نهايات القرن الثاني الهجري في بحث مستقل .

1 - ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج1 ،39 .

2 - انظر: ليفي بروفنسال ، نص جديد المصدر السابق وكذلك ؛ Jean BRIGNON et AUTRES, *Histoire du Maroc*, Casablanca 1967, p.45 et Charles ANDRE JULIEN, *op.cit*, p.11.

فهل في المحاولة التي دأبنا عليها طوال الفصول السابقة لاعادة بناء الحوليات التاريخية لبلاد نكور التي لا تعدو ان تكون مجرد اقليم من اقاليم المغرب الأقصى ، ما يقدم بعض عناصر المراجعة ؟ وما يشجع على استقراء مضامين المصادر المتاحة والنظر في امكانات الانتقال بالبحث التاريخي من مستوى متابعة فصول الحدث السياسي المتعاقب للانغماس في معالجة جوانب من التاريخ الحضاري ومعاينة خصائص العطاء الثقافي والعمراني ؟ وهو ما سنندرج على تناوله بالدرس ضمن الفصول اللاحقة في حدود ما تسمح به الشذرات المتناثرة من المادة التاريخية المعتمدة .

تشكل وضعية الارض في نظر عدد من الباحثين احدى الغز معضلات التاريخ الاسلامي[3] . وبخصوص المرحلة التاسيسية من تاريخ المغرب الاقصى المرتبطة بعصر الفتوحات ، يحتفظ الونشريسي [4] بآراء ثلة من اقطاب المالكية ممن تصدر الفتوى او تقلد الاحكام وتقلب في جلائل الخطط بالمغرب والاندلس منذ البدايات الاولى خلال القرن الثاني وطوال القرنين الثالث والرابع الى اواسط القرن الخامس الهجري[5] .

والجدير بالذكر انهم لم يتوقفوا عن الاستفتاء جيلا بعد جيل «عن ارض المغرب»[6]

---

3 – محمود اسماعيل ، سوسيولوجيا ، ج2 ، 25 ؛ الحبيب الجنحاني ، دراسات مغربية في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الاسلامي ، بيروت ، 1980 ، 9 ؛ Pierre GUICHARD," Les Etats musulmans du Maghreb" in *Maghreb Medieval : l'apogée de la civilisation islamique dans l'occident arabe*, Aix-en-Prevence1991, p88.

4 – المصدر السابق ، ج6 ، 133 – 34 .

5 – فمن تلامذة امام المدينة مالك بن انس والرواة عنه المعتمدين هنا نذكر: علي بن زياد الاسكندري وابا محمد عبد الله بن عبد الحكم بن اعين بن ليث المصري الذي انتهت اليه الرياسة بديارمصر بعد اشهب . ومن افريقية نخص بالذكر قاضيها ومفتي ديارها صاحب المدونة الشهير سحنون بن سعيد المتوفى سنة 240 هجرية وكذا ابن ابي زيد القيرواني الملقب بمالك الصغير المتوفى سنة 386 هجرية . ومن الاندلس ، نستقرئ أراء عبد الملك بن حبيب المتوفى سنة 238 هجرية وكذا اشارات قاضي الجماعة بقرطبة ابن وافد اللخمي المتوفى سنة 404 هجرية وعبد الملك بن اصبغ القرشي المتوفى سنة 436 هجرية . لمزيد من التفاصيل عن متصدري المذهب المالكي اثناء تالقه بالاندلس راجع اللائحة الهامة التي ذيل بها ابن سهل كتابه في النوازل الفقهية المشهور: الاحكام الكبرى ، مخطوط المكتبة العامة ، الرباط ، رقم 838 ق ، 422 – 426 .

6 – الونشريسي ، المصدر السابق ، ج 6 ، 133 .

والتنقيب عما خفي من اخبارها وامعان النظر في مظان العصر، مع الاصرار على سؤال اهل العلم والفقه والورع للكشف عن حقائقها . ولعل في قول قاضي افريقية وصاحب المدونة الفقيه المالكي الشهير سحنون : اني «لم اقف منها على حقيقة»[7] ، واقرار علي بن زياد الاسكندري - على اجهاده بالبحث عن اصول الروايات بمصر - انه «لم يصح عندي فيها شيء»[8] ، ما يؤكد درجات ما تعرض له الموضوع من طمس واتلاف .

من الطبيعي ان يسفر ذلك عن اختلاف الآراء وتضارب الروايات حول الوضعية القانونية لارض المغرب «فقيل عنوية وقيل صلحية وقيل التفصيل بين السهل والجبل وقيل بالوقف»[9] . وبينما ينبه احدهم على «ان البلاد المغربية لم تجر في الافتتاح على قانون واحد، بل منها ما افتتح عنوة ومنها ما افتتح صلحا»[10]، يكشف غيره في نص هام عن اجماع اهل العلم على ان ثمة مناطق من المغرب الاقصى«اسلم عليها اربابها وليس فيها صلح ولا عنوة»[11]. وهو ما ينطبق تماما مع وضعية بلاد نكور التي لم تخضع كما سلف الذكر لاية فتوحات عسكرية .

وبصرف النظر عما اخذ غصبا و«وقعت فيه غلبة بعد غلبة»[12] ، فمن المعلوم ان ارض العنوة منها ما عومل معاملة الغنيمة فخمست وقسمت ، ومنها ما اعتبر فيئا يخمس ولا يقسم ، ومنها ما يوقف على المسلمين عامة[13]. بينما ترتبط اراضي الصلح بسجلات

---

7 - نفس المصدر والصفحة . انظر كذلك : الداودي : كتاب الاموال ، تحقيق رضا محمد سالم شحادة ، الرباط ، 1988 . ص 70 .

8 - الونشريسي ، نفس المصدر والصفحة .

9 - نفس المصدر والصفحة .

10 - نفسه ، ج6 ، 134 . للمقارنة مع وضعية الارض بالاندلس ابان عصر الفتوحات انظر : ابن حزم ، التلخيص لوجوه التخليص ، ضمن الرسائل ، تحقيق احسان عباس ، بيروت ، 1981 ، ج 3 ، 175 .

11 - انظر : نفسه ، ج6 ، 133 .

12 - ابن حزم ، التلخيص ، 175 .

13 - المقري ، المصدر السابق ، ج 1 ، 259 -60 . لمزيد من التفاصيل عن احكام ارض العنوة راجع : ابن سلام ، كتاب الاموال ، تحقيق عبد الامير علي بن مهنا ، بيروت 1988، 64 ؛ ابن ادم القرشي ، كتاب الخراج ، تحقيق جوينبول ، ليدن ، 1895 ، 5 ؛ ابن المناصف، كتاب الانجاد في احكام الجهاد، مخطوط المكتبة العامة ، الرباط رقم 748 ق،214 -43

وعقود والتزامات وشروط مضبوطة الحيثيات موثقة البنود بين المتعاقدين : الجند الفاتح واهل البلد[14]. وبخلاف وضعية الارض ببقية مناطق الغرب الاسلامي ابان عصر الفتوحات التي تارجحت بين مقتضيات الصلح والعنوة ، يذكر ابن خلدون[15] في نص فريد ان صالح بن منصور قد «استخلص نكور لنفسه».

وبرغم شيوع الاستخلاص كشكل من اشكال التعامل العقاري على مدار قرون من تاريخ الغرب الاسلامي ، لم يحظ هذا المفهوم - في حدود علمنا - سواء على مستوى حدود اللفظ او دلالاته التاريخية بادنى اهتمام من طرف الدارسين . ويمكن من خلال قراءة اولية في عدد من الحوليات التاريخية وفحص متون جملة من المصنفات الفقهية الوقوف على بعض الحقائق المتعلقة بالضياع المستخلصة وعلى طبيعة الوضعية القانونية المترتبة عن هذه العملية .

فمن الاراضي المستخلصة من طرف الخلفاء والامراء ما كان بمثابة ملك عام توضع عليه جبايات لصالح بيت مال المسلمين[16] ، بينما اندرجت غيرها من المستخلصات ضمن الممتلكات الخاصة للملوك والمتنفذين واهل الجاه والسلطان . ولا تعوز القرائن الكاشفة عمن داب على اتخاذ قرى باكملها «ضياعا مستخلصة»[17]. بل و من ارباب الخطط والنفوذ

14 - وللمقارنة ، نتوفر بهذا الخصوص على النص الكامل لكتاب الصلح حول منطقة تدمير بشرق الاندلس الموقع بين ملكها تدمير بن غندرش والامير عبد العزيز بن موسى بن نصير. انظر : الضبي ، المصدر السابق ، 274 . لمزيد من التفاصل عن مضامين عقود الصلح والاتفاق بين الفاتحين والنصارى على مشاطرة كنائسهم ، انظر : المقري ، المصدر السابق ، ج 1 ، 560 .

15 - العبر ، ج 6 ، 283 .

16 - مثل «مستخلص» قرطبة انظر : ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج2 ، 232 المعروف خلال عصر الخلافة باسم : «مستغل جوف المدينة» انظر : ابن بسام ، المصدر السابق ، ق1م1 52. ونذكر ايضا على سبيل المثال والمقارنة الملك الذي الحقه والي ابن عباد خلال عصر الطوائف بمدينة باغة «واستخلصه لبيت مال المسلمين» انظر : ابن رشد ، المصدر السابق ، ج1 ، 306 . ولا تعوز الدالائل عن غير ذلك من المستخلصات الملحقة بعدد من الحواضر الاندلسية ، نخص منها بالذكر مستخلص غرناطة الشهير ، انظر : ابن الخطيب ، الاحاطة في اخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، القاهرة 1973 ، ج1 ، 429 .

17 - ابن بسام ، المصدر السابق ، ق3م1، 19 .

من طاوعته نفسه فتجرا على ملك « الاحباس واستخلصه لنفسه»[18] . هكذا ، فبالنظر الى المعاني المعجمية للمصطلح[19] ولمختلف دلالاته التاريخية ، يتجلى من خلال السياق العام لنشاة امارة بني صالح ان المقصود باستخلاص صالح بن منصور نكور لنفسه : تمكنه من حقوق التصرف فيها فصارت بذلك خالصة له خاصة ، لا يحق لغيره من الولاة والامراء استغلالها ولا وضع الجبايات واصناف الواجبات على اهلها ولا التحكم في رقبة ضياعها .

نتيجة لهذه الوضعية القانونية المتميزة ، سلمت نكور من تبعات الاندماج في النظام العقاري والجبائي المعتمد من طرف الخلافة الاموية بالامصار المفتوحة عبر سلسلة التراتب الهرمي التي يتحكم فيها ولاة افريقية ، وغدت على عكس مجموع بلاد المغرب في علاقة مباشرة بواسطة عقد الاقطاع السالف الذكر مع مركز الخلافة بدمشق . ومن المعلوم ان التشريعات المتعارفة خلال هذه الفترة المبكرة من تاريخ الاسلام ، قبل التحولات الطارئة خلال القرون اللاحقة «لا تجوز اقطاع الامراء والقضاة والقواد وانما ذلك للخليفة خاصة»[20] .

والراجح ان الخلفاء الامويين قد التزموا بمقتضيات عقد الاقطاع الممنوح لصاحب نكور الى حدود العقد الثاني من القرن الثاني الهجري على الاقل . يتجلى ذلك من خلال

---

18 - ابن الحاج ، كتاب النوازل ، مخطوط المكتبة العامة ، الرباط ، رقم 55 ج ، 122 .

19 - راجع : ابن منظور ، لسان العرب ، حرف الصاد ، ج 7 ، 26 - 29 .

20 - الجزيري ، المقصد المحمود في تلخيص العقود ، مخطوط المكتبة العامة ، الرباط ، رقم 592 ق ، ورقة 79 ب . لمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع راجع : ابن سلام ، المصدر السابق ، 276 . وفي دراسة سابقة لا مجال هنا لتفصيل نتائجها ، تناولنا التحول الملحوظ الذي مس مفهوم الاقطاع وممارسته في ظل الرخص الواسعة التي اقرها ثلة من الفقهاء للجند واهل الخطط والمتامرين من كل نوع بالغرب الاسلامي . اسفر ذلك عن ابتعاد الاقطاع في اكثر من مظهر ان لم يكن في الجوهر عما كان عليه خلال عصر النبوة وخلافة الراشدين . عن بعض هذه الرخص انظر : ابن المناصف ، المصدر السابق ، 24 - 43. ومن ابرز الامثلة على التزام العمل بالشرط المثبت اعلاه خلال هذه الفترة المبكرة من تاريخ الغرب الاسلامي ، اضطرار ابناء الملك القوطي غيطشة الذين امضى لهم طارق بن زياد العهد ، الى اللحاق بموسى بن نصير المقيم بافريقية الذي وجههم بدوره الى الخليفة الوليد بن عبد الملك بدمشق باعتباره صاحب الحق الشرعي الوحيد في امضاء السجلات وعقد الاقطاعات . وبالفعل ، فبعدما «وصلوا اليه انفذ لهم عهد طارق بن زياد وعقد لكل واحد منهم بذلك سجلا » ابن القوطية ، المصدر السابق ، 30.

موقف الخليفة الاموي الوليد بن عبد الملك الذي لم يغفل - عند اصداره صك تعيين واليه على افريقية والمغرب - النص على استثناء بلاد نكور من سلطة الوالي الجديد ، مذكرا اياه بعدم التدخل في شؤون نكور ، مراعاة لخصوصيتها القانونية .

حقيقة اننا لا نتوفر على ادنى ما يفصح عن محتويات ومضامين صك الاقطاع الذي منحه الخليفة الاموي لصاحب نكور. مع ذلك ، فالراجح ان ثمة واجبات مالية من المفروض على هذا الاخير استخلاصها من الرعية وتوجيهها راسا الى بلاط الخليفة بدمشق . مصداق ذلك ، ما ورد لدى صاحب اخبار مجموعة[21] في سياق حديثه عن بلاد المغرب في خلافة عمر بن عبد العزيز وكذا عمن قبله من «الخلفاء كانوا اذا جاءتهم جبايات الامصار والآفاق ياتيهم من كل جباية عشرة رجال من وجوه الناس واجنادها فلا يدخل بيت المال من الجباية دينار ولا درهم حتى يحلف الوفد بالله الذي لا اله الا هو ما فيه دينار ولا درهم الا اخذ بحقه».

الا ان الوضع سرعان ما تغير ابتداء من خلافة يزيد بن عبد الملك ، وبعدئذ طوال العقود اللاحقة ، اذ اندرج خلفاء بني امية على الرفع من المطالبات والتكاليف الموضوعة على مجموع بلاد المغرب «اكثر مما كان»[22] ، بما في ذلك بلاد نكور التي «ثقلت ...التكاليف»[23] على اهلها ولم يعد بوسعهم الالتزام بادائها . لم يتوقف الامر عند هذا الحد ، بل سرعان ما اندرجت التوجهات الاموية في اتجاه مراجعة الاسس المنظمة للوضعية العقارية ، تمهيدا لتخميس الارض بعموم بلاد المغرب واخضاعها لمقتضيات الفيء[24] .

ومن جهة اخرى ، فالغالب على الظن ان صالح بن منصور قد آثر الالتزام بالشرائع المنظمة لوضعية الارض حسبما كان متعارفا عليه لدى فقهاء العصر . ومن المعلوم ان البلد اذا استسلم عليه مالكه «من غير قتال وفي يده الارض فهو عشر»[25]. ولا يستبعد ان

21 - المصدر السابق ، المخطوط ، 11 - 12 .

22 - ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج2 ، 52 .

23 - ابن خلدون ، العبر، ج6 ، 283 .

24 - ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج1 ، 51 - 52 . لمزيد من التفاصيل عن مضامين الفيء راجع : ابو الفرج الحنبلي ، كتاب الاستخراج لاحكام الخراج ، تحقيق عبد الله الصديق ، بيروت 1982 ، 16 - 17 .

25 - ابو الفرج الحنبلي ، نفسه ، 15 .

يكون صاحب نكور قد عمد الى تقوية مداخيل بيت المال الذي يعود بالنفع على العامة وذلك بتوسيع القطاع الخراجي ، علما بان «من اسلم على شيء فهو له ويؤخذ منه خراج الارض»[26] . لذلك اشتهر صاحب نكور لدى معاصريه بمن فيهم خلفاء بني امية ذاتهم ب«عدله»[27] في الرعية .

وترجمة لحقوق التصرف الشرعية التي اصبحت في يد صالح بن منصور بمقتضى عقد الاقطاع على الاراضي الواقعة في دائرة نفوذه ، لم يتردد عن «انزال نفر من البربر موضعا يحاذي مدينة نكور في الضفة الثانية من النهر وكانوا يقيمون هناك سوقا »[28] . وعلى عكس ما طبق في عدد من ابرز الكور الاندلسية - خلال نفس الفترة تقريبا او لربما بعد بضع سنوات من هذا التاريخ - اذ اقدم والي قرطبة على انزال الناس بعضهم على بعض وجعل اموال اهل الذمة من العجم طعمة للجند الشامي»[29] ، آثر صاحب نكور الالتزام بالشروط الفقهية المنظمة للاقطاع . يتجلى ذلك في حصره الانزال المذكور فيما يبدو انه من عادي الارض او مما لم يحيه احد من الموات[30] .

ولعل في اقدام المستفيدين من الانزال المذكور على اقامة سوق بالموضع سرعان ما اصبحت نواة لاحدى كبريات الحواضر المغربية الوسيطة ، ما يفصح عن تحقيق الهدف التنموي والعمراني حسبما توخاه ثلة من الفقهاء المتشددين في ضبط شروط جواز الاقطاع. ومن المعلوم ان امير نكور سعيد بن ادريس قد تجرد لاحقا لنقلهم عن هذا الموضع للاستقرار بمدينة نكور، مما يدل على ان الانزال الممنوح لهم اقتصر على تمكينهم من

---

26 - نفسه ، 14 . لمزيد من التفاصيل عن احكام اراضي الخراج راجع : البلاذري ، المصدر السابق ، 433 – 35 .

27 - الزياني ، المصدر السابق ، 81 .

28 - البكري ، المصدر السابق ، 92 .

29 - ابن القوطية ، المصدر السابق ، 44 ؛ ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج2 ، 33 ؛ ابن الخطيب ، الاحاطة ، م1 ، 103 .

30 - المقصود بعادي الارض «كل ارض لها ساكن في آباد الدهر فانقرضوا فلم يبق منهم انيس فصار حكمها الى الامام» انظر : ابن سلام ، المصدر السابق ، 281 . عن الوجه الثاني المشرق للاقطاع باعتباردوره في تنشيط العمران وتحريك النمو راجع نصا هاما لابن حزم ورد لدى ابن رضوان : الشهب اللامعة في السياسة النافعة ، تحقيق علي سامي النشار ، البيضاء 1984، 232 .

استغلال فائدة المال ولم يكن انزال تمليك على رقبة الارض[31] .

وبانتهاء العمل بعقد الاقطاع الذي يتم بمقتضاه تحويل جزء من ثروات بلاد نكور نحو دمشق ، ومع اتساع نفوذ البلد ليشمل رقعة تمتد عرضا «مسيرة عشرة ايام»[32] وتتعمق طولا نحو التخوم الشبه الجافة للمجرى الاوسط لنهر ملوية كما سلف الذكر، تصاعدت امكانات تحقيق التراكم المالي بواسطة الجبايات والمغارم الموضوعة على اهل الطاعة من القبائل الموالية ، وفق نظم ادارية ومالية لم يصلنا عنها ادنى اشارة في المصادر المعتمدة.

ولعل فيما ذكره البكري[33] عن امتناع «مكناسة عن صالح وحبسوا مغارمهم» ، ما يفصح عن ركون صاحب نكور الى النظام القبلي في تحديد الوحدات الخاضعة للمغارم ، على الاقل فيما يتعلق بالمناطق الجافة والشبه الجافة النائية عن مركز الحاضرة . اما قلب الامارة بنكور وتمسامان ، فلا يستبعد ان يكون قد انتظم منذ هذا العهد المبكر في كور ورساتيق ، على غرار النظام المعتمد لاحقا بالاندلس في ادارة وتدبير المجال [34]. مصداق ذلك ما ذكره ابن حوقل[35] في سياق حديثه عن اعمال بلاد طنجة التي انتظمت في شكل «مدن متصلة الرساتيق» . وضمن الكتاب الذي بعثه محمد بن خزر الزناتي الى الخليفة عبد الرحمن الناصر سنة 319 هجرية ، ما يدل على ان الانتظام الاداري واعداد المجال القروي في كور واقاليم ورساتيق له اصول سابقة في تاريخ العدوة المغربية اذ قال : هذه اطراف اعمالنا وحواشي كورنا من نحو المراسي المنتظمة بجزيرة الاندلس»[36] .

علي اي ، ففيما يتعلق بالغراسة والبستنة ، يبدو ان ثمة جهودا جبارة قد بذلت ابتداء من هذا التاريخ ، مع التفنن في اساليب الري وتقنيات السقي . يتجلي ذلك في جملة من

31 – عن اصناف الانزال ، راجع : ابن رشد ، المصدر السابق ، ج1 ، 244 ، 294 .

32 – اليعقوبي ، المصدر السابق ، 357 .

33 – المصدر السابق ، 93 .

34 – المقدسي ، المصدر السابق ، 222 . والرستاق مصطلح جغرافي مشرقي يقابله في المغرب والاندلس مصطلح الاقليم الذي يعتبر بمثابة اصغر وحدة في تنظيم المجال . وتنتظم الاقاليم ضمن وحدة اكبر تدعى الكورة . وتختلف دلالات مصطلح الاقليم اختلافا بينا بين جناحي دار الاسلام . راجع ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، بيروت 1979 ، ج 1 ، 22 .

35 – المصدر السابق ، 83 .

36 – ابن حيان ، المقتبس ، ج5 ، 302 .

المظاهر، ابرزها كثرة ما انشئ على نهري نكور وغيس من الارحاء[37] المتحركة بواسطة قوة تدفق المياه في السداد المبنية او في الشليارات المفتوحة على السواقي المتفرعة حسبما تقتضيه التقنيات المتداولة [38]. ولا تقل الخبرة المتوارثة لدى اهل البلد في مجال استنباط المياه الجوفية ، كما يتضح مما ذكره البكري[39] عن رجل من اهل بادس «يكرمه اهل ذلك الموضع ويقدمونه ويذكرون انه ينبط المياه في المواضع التي لم يعد فيها ماء عيونا وآبارا وانه يخبر بقرب الماء وبعده وانه انما يستدل على ذلك باستنشاق هواء ذلك الموضع».

ولا تعوز الدلائل عن اهتمام الفكر العربي الاسلامي الوسيط - في تكامل بين جناحي دار الاسلام - بالتصنيف في هذا الموضوع . فبصرف النظر عما وضعه الفيلسوف الشهير ابو يوسف يعقوب بن اسحاق الكندي من شروح على كتاب فوائد المياه[40]، واضافة لما الفه علماء الفلاحة من اهل القرن الخامس بالاندلس في ذكر المياه وانواعه وتمييز حلوه عن مره[41] ، لم يغفل احد مشاهير علماء الفلاحة بغرناطة في العدوة المقابلة لنكور

37 - البكري ، المصدر السابق ، 90 .

38 - يفسر الطغنري الشليار بالقول : «ويفتح في تلك الساقية شليار وهي ساقية تهبطها نحو شبر ونصف» ، كتاب زهر البستان ونزهة الاذهان ، مخطوط المكتبة العامة ، الرباط ، رقم 1260 د ، 44 . عن السداد المبنية انظر : ابن الحاج ، المصدر السابق ، 148 . والجدير بالملاحظة ان هذه التقنيات قد استمرت سارية المفعول الى عهد قريب من طرف الفلاحين بفحص نكور .

39 - المصدر السابق ، 101 .

40 - انظر : ابن حجاج ، المقنع في الفلاحة ، مخطوط الخزانة الحسنية ، الرباط ، رقم 69 ، 3 ولقد عثرنا مؤخرا بالمكتبة العامة بالرباط على نص فلاحي اندلسي جديد بعنوان : اختصارات من كتاب الفلاحة من وضع ابن ليون التجيبي مسجل تحت رقم د 2765 (ضمن مجموع) مفيدا فيما يتعلق بمختلف هذه المواضيع . وقد خلصنا في بحث سوف ينشر قريبا ان ابن ليون التجيبي المشهور بارجوزته الفلاحية الشهيرة لم يؤلف في هذا الباب ولا كان من علماء الفلاحة اصلا ، بل عمد الى احد ابرز المؤلفات الفلاحية التي وضعت بالاندلس خلال القرن الخامس الهجري فوضع عليه اختصارا وارجوزة حققت ونشرت في طبعتين منذ مدة بغرناطة . اما الاختصار النثري فسنعمل بتعاون مع الدكتور محمد الفائز على اخراجه قريبا بحول الله في نص موثق ومترجم .

41 - انظر : ابن بصال ، كتاب الفلاحة ، نشر خوصي ميلاس فاليكروسا/ محمد عزيمان ، تطوان ، 1955 ، 52 ، 175 ؛ ابن وافد ، كتاب الفلاحة ، النص القشتالي ، مجلة الاندلس ، العدد 8 ، مدريد 1934 .

هذه المسالة ، اذ تعرض هو الآخر لطرق « الاستدلال عن قرب الماء من بعده»[42]. ومن المعلوم ان استنباط وقود المياه وفنون تصريفه في الزراعة يشكل جوهر العمل الفلاحي ، خصوصا في المناطق ذات المناخ المتقلب او الشبه الجاف . من ثم لا يستبعد ان يكون اهل نكو رقد انخرطوا منذ عهد مبكر في النهل - ان لم يكن الفعل - من ثقافة عصرهم التجريبية والحكمية [43].

ولعل في استمرار اهل تمسامان الى عهد قريب في ممارسة البستنة وانتاج الخضر والفواكه خلال الفصول الجافة بواسطة اشكال من التقطير والتظليل ، ما يكشف عن بعض بصمات التالق التقني في المجال الفلاحي بالاوساط الشبه الجافة خلال العصر الوسيط . ولا تقل الاسالب المستعملة بعموم بلاد نكور في لم القليل من التربة المتوفرة بالسفوح المحجرة تعبيرا عما تحقق من تطور في حدود معطيات العصر. ويستند العمل اساسا على الاجهاد اليومي في تنقنية الدمن من ركامات التعرية والترسيب ، اضافة لاقامة المدرجات الصخرية بواسطة مداومة العمل اليدوي .

ولدينا فيما ذكره اليعقوبي[44] بخصوص ما احتوته نكور خلال عصرها الذهبي من «زرع وضرع وخصب» ، ما يدل على المستويات الغير المعهودة التي بلغها العمران الفلاحي بالبلاد. وهو ما اكده الاصطخري[45] الذي لم يتردد عن وسم البلاد بكونها «خصبة». وتجمع المصادر التاريخية التي تعرضت لهذا الموضوع على ابراز اهمية القطاع السقوي بنكور، التي اشتهرت بكثرة ما احتوته من «البساتين طيبة الفواكه»[46]، ليس فقط بالفحص السهلي الممتد اسفل الحاضرة وعلى طول المنعرجات الفيضية لنهري نكور وغيس المعروفة لدى

---

42 - الطغنري ، المصدر السابق ، 40 .

43 - عن حلقات الاتصال والانفصال بين البعدين التجريبي والفلسفي في التصنيف الفلاحي وعن ارتباط هذا المجال المعرفي بالطب وعلومه راجع كتابنا : الطب والفلاحة بالاندلس بين الحكمة والتجريب ، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية ، المحمدية 1997 .

44 - المصدر السابق ، 357 .

45 - المصدر السابق ، 34 .

46 - البكري ، المصدر السابق ، 91 ؛ مجهول ، الاستبصار ، 136 ؛ الحميري ، المصدر السابق ، 134 .

اهل البلد باسم «تغزا»[47]، بل وكذا حول غيرها من المجاري والانهار والاودية الاقل اهمية[48].

واضافة لاصناف التين[49]، فالمعروف عن نكور انه «لا يوجد في بلد مثل رمانها وكمثراها»[50] لا سيما النوع الموسوم بالرمان السفري[51] الذي خصه شيخ المؤرخين ابو مروان بن حيان[52] بالاطراء واصفا اياه «بالفضيلة المقدم على اجناس الرمان بعذوبة الطعم ورقة العجم وغزارة الماء وحسن الصورة». ولا يقل الكمثرى «الذي تسميه العامة الاجاص»

47 - بالجمع والمفرد «تاغزوت».

48 - راجع: اليعقوبي، المصدر السابق، 356.

49 - من المعروف الى اليوم ان التين المالقي المعروف لدى اهل نكور باسم: «تاملقيت» يعد من الاصناف الجيدة، وهو الذي «قيل فيه للبربري كيف رايته ؟ قال: لا تسالني عنه وصب في حلقي بالقفة» المقري، المصدر السابق، ج 3، 219. الا ان الباكور الذي لا يوجد له مثيل فهو المعروف باسم «اغوداني» نسبة على ما يبدو بعد تحوير بسيط في النطق بعجمية الاندلس لمدينة دانية: "Higo de Denia" اي باكور دانية المدينة الاندلسية الشهيرة ولقد تعرفنا سلفا عن الروابط التاريخية والتواصل المستمر بين نكور و السواحل القبلية بالجزيرة الاندلسية خصوصا بجانة ودانية وغيرهما. ومن المفيد في هذا السياق الاشارة لنص دال ورد لدى المقري، المصدر السابق، ج1، 140 يذكر: ان«الساحل ونواحيه يبادر بباكوره».

50 - راجع: البكري، المصدر السابق، 91؛ مجهول، الاستبصار، 136؛ الحميري، المصدر السابق، 134.

51 - نسبة لسفربن عبيد الله الكلاعي من جند الاردن الذي جلبه من الشام للامير عبد الرحمن الداخل فاتخذه بجنان الرصافة ومنها انتشرت غراسته بالاندلس راجع: المقري، المصدر السابق، ج1، 200، 466 – 68؛ الخشني، المصدر السابق، 17. ولا يستبعد ان يكون سفر بن عبيد الله هذا قد ترك قضبانا منه لصاحب نكور لغرسها في جنانه، علما بما سبق ذكره عن مقام عبد الرحمن الداخل بتمسامان التي كانت بمثابة حلقة الوصل البحري الاساسية بين العدوتين خلال هذا التاريخ. والجدير بالذكر ان اهل نكور الى اليوم ما زالوا يطلقون عليه نفس الاسم القديم «الرمان السفري». ومن الاجناس الاخرى المعروفة لديهم الرمان التمسماني العظيم الحجم اللذيذ الطعم. واردا الانواع الرمان القشري الذي تنطبق مواصفاته على الصنفين المعروفين بالاندلس باسم «الرمان القمحي». وثمة جنس أخر رديئ يدعى «البرجين». انظر: Asin PALACIOS, *Glosario de voces romances registrados por un botánico anónimo hispano musulmán (siglos XI-XII)*, Madrid 1943, p. 236.

52 - انظر: المقري، المصدر السابق، ج1، 467.

تنوعا . ومن اجود اصنافه نذكر الاجاص الحر الغليظ الحجم الطيب الطعم وكذا الاجاص [53] الاصفر اللون الفائق الجودة . والغالب على الظن ان الامر يتعلق بالجنس المعروف في الاندلس باسم «الارزة في قدر حبة العنب قد جمع مع حلاوة الطعم ذكاء الرائحة» [54].

مع ذلك ، تبقى الحبوب التي تعتبر«اصل معاش الناس والبهائم» [55] احد اهم المحاصيل الفلاحية بالامارة . وليس ادل على ذلك من كثرة ما اقيم من ارحاء على المجاري المائية كما سلف الذكر . وبرغم التقلبات المناخية وتناوب سنوات الخصب والقحط ، تمكنت نكور بفضل مدخراتها من التالق كمركز هام للميارة بالعدوة المغربية [56]. مصداق ذلك محتوى الرسالة التي بعث بها امير نكور الى الخليفة عبد الرحمن الناصر سنة 323 هجرية / 934 م ملتزما بتقديم العون لحلفاء قرطبة بالعدوة المغربية وتمكينهم مما يحتاجون اليه من المؤن و«الميرة تجيئـ[هم] من بلده» [57] ، مع ما اصبحت عليه اوضاعه من اختلال نتيجة لانعكاسات الصراع الاموي - الفاطمي للهيمنة على المنطقة .

ولا تعوز الدلائل عن مكانة بجانة والمرية الوثيقتي الصلة بنكور باعتبارهما من ابرز الاسواق النافقة لفائض الحبوب المدخرة باهراء امارة بني صالح . وهو ما كشف عنه السميسر شاعر المرية الشهير في نص مقتضب دال «يشير الى ان مرافقها مجلوبة وان

---

53 - ابن منظور ، لسان العرب ، ج5 ، 3927 . ومن الملاحظ ان اهل بلاد نكور ينفردون دون بقية سكان المغرب بتسمية هذه الفاكهة «الفيراس» . ومن المعلوم ان الاصل بعجمية الاندلس Peras ، مما يفصح عن عمق الاصول اللغوية بين ريفي العدوتين .

54 - المقري ، المصدر السابق ، ج 1 ، 179 . والاجاص الاصفر ترجمة الى الفصحى لما يعرف لدى اهل البلد بـ «الفيراس اوراغ» الذي يكاد ينقرض ، بعدما كان الى عهد قريب الاكثر شيوعا ، لا سيما في فحص نكور .

55 - مجموع في الفلاحة ، مخطوط المكتبة العامة الرباط ، رقم 1410 د ، 125 ب ؛ الطغنري المصدر السابق ، 200 .

56 - عرف السقطي هذا الصنف الحرفي بالقول : « الميارة الذين يبتاعون القمح ويسوقونه على دوابهم ويطحنونه بالارحى ويجلبونه للبلاد ويعيشون من ذلك » ، في آداب الحسبة ، نشر ليفي بروفنسال/ج.س.كولان ، الرباط ، 1931 ، 24 .

57 - ابن حيان ، المقتبس 5 ، 372 .

الميرة تاتيها من البحر من بر العدوة»[58] . ينطبق نفس الشيء على كورتي البيرة ورية وغيرهما من المناطق الاندلسية التي طالما اعتمدت في تموينها بالمواد الغذائية على امارة بني صالح ، خصوصا. اثناء فترات الفتنة والاضطراب . يتضح ذلك من خلال ما تواتر ذكره في الحوليات التاريخية بخصوص كثرة المراكب التي كانت للثائر عمر بن حفصون واصحابه «يسفرونها الى ارض العدوة في المير»[59].

ان في هذا ما يفسر كثرة المطامر المتخذة من طرف بني صالح في اكثر من موقع لخزن الحبوب وادخار الميرة والاقوات. وبصرف النظر عما تم الكشف عنه من آثار مخازن ارضية بالموقع الاثري لحاضرة نكور[60]، فما زالت خرائب مدينة بادس تعج بعدد هام من المطامر التي وقفنا عليها اكثر من مرة خلال المعاينات السطحية للموقع. ولقد تمكنا مؤخرا من اكتشاف اكبر خزان للحبوب الذي اتخذ بمجموع بلاد نكور خلال عصر بني صالح. ويتعلق الامر بمرس السلطان المعروف بلغة اهل البلد بـ«المرس ازجيذ» قرب اكرى امقران بجبل ابي الحسن حيث ما زالت عشرات المطامر محفوظة في شكلها الاصلي. والغالب على الظن ان الامر يتعلق بقلعة اكرى التي غدت بمثابة قاعدة البلد خلال فترة الاضطراب السياسي الناتج عن الصراع الاموي الفاطمي للهيمنة على البلاد .

بلغت زراعة الحبوب وتسويقها في الآفاق من الاهمية ان انفردت نكور بكيل خاص «يسمونه الصحفة وهي خمسة وعشرون مدا بمد النبي (ص) ويسمون نصف الصحفة السدس والرطل عندهم في جميع الاشياء اثنتان وعشرون اوقية وقنطارهم مائة رطل»[61]. وسرعان ماغدا كيل نكور المتميز مشهورا لدى الامم ومتعارفا عليه في البلدان . يتجلى

---

58 - انظر : المقري ، المصدر السابق ، ج3 ، 390 . وفيما يلي نص البيتين اذ قال :

«بئس دار المرية اليوم دارا ليس فيها لساكن ما يحب
بلدة لا تمار الا بريـــــــــح ربما قد تهب او لا تهـــب»

59 - ابن حيان ، المقتبس 5 ، 87 ؛ ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج2 ، 165 .

60 - Patrice CRESSIER / Larbi ERBATI, *Mission de prospection et sondage archéologique au Maroc*, Rapport préliminaire, p.4.

61 - البكري ، المصدر السابق ، 91 . لمزيد من التفاصيل عن وحدات الكيل : المد ، الرطل ، الاوقية ، القنطار وكذا عن اقسام العملة : الدرهم ، القيراط انظر: نفسه ، 89 .

ذلك من خلال ما خصصته الكتب والرسائل الموضوعة في الاوزان والمكاييل[62] من اهتمام بشرح وتفصيل محتويات الصحفة والوحدات المتفرعة عنها ، كما يتضح من خلال اعتمادها مقياسا في معاملات بعض المناطق المجاورة . نذكر على سبيل المثال اهل تنس الذين اصبح «كيلهم يسمى الصحفة» [63] ايضا.

والى جانب اهمية المزمة ومرسى تمسامان في المواصلات البحرية ، يؤكد الجغرافي المغربي المجهول [64] على تصاعد مكانة مرسى بادس الذي اصبحت «منه تحمل المراكب الطعام». والجدير بالملاحظة ان نكور قد حافظت على شهرتها كخزان للحبوب طوال القرون اللاحقة . فبالاضافة لما ذكره الحسن الوزان[65] عن «الكميات العظيمة من القمح» التي كانت تحصد بنكور ، وفضلا عما ذكره غيره عن غنى اهلها «بما يملكون من زروع ومواش» [66]، يكشف ابن خلدون[67] عن استمرار مكانة نكور الى عهد متاخر كقبلة للممتارين .

ولا تقل تربية اجناس المواشي والبهائم واصناف الضرع اهمية[68] . ولقد اشتهرت في هذا المجال الممتلكات الاميرية التي تمت حيازتها بمنطقة تاكراكرى في عدوة وادي غيس حيث «يتناجع كراع آل صالح» حسب رواية البكري[69] . بلغت اهمية نكور في انتاج الركائب

62 – انظر على سبيل المثال : مجهول ، تلخيص القول في الاكيال والاوزان والنصب الشرعية وتبيين مقاديرها ، مخطوط المكتبة العامة ، الرباط ، (ضمن مجموع) ، رقم 416 ق ، 434 ، 445 . والجدير بالملاحظة ان المصنفات الموضوعة في هذا الشان ما زالت بحاجة الى مزيد من العناية . ولقد تمكننا من خلال جرد اولي في الارشيف المخطوط من الوقوف على حوالى عشرة نصوص في الاوزان والاكاييل ، منها ما خصص للاوزان الطبية والصيدلية . نامل ان تتاح لنا الفرصة قريبا لاخراجها محققة في كتاب مجموع .

63 – البكري ، المصدر السابق ، 62 . مع ذلك يبدو ان صحفة تنس اكثر حجما من صحفة نكوراذ تساوي حسب رواية البكري ثمانية واربعين قادوسا والقادوس ثلاثة امداد بمد النبى (ص) . نفس المصدر والصفحة .

64 – الاستبصار ، 136 . والراجح ان الامر يتعلق بالفترة اللاحقة لسقوط امارة بني صالح .

65 – المصدر السابق ، 255 .

66 – مارمول ، افريقيا ، ج2 ، 245 .

67 – العبر ، ج 6 ، 71 .

68 – راجع ، اليعقوبي ، المصدر السابق ، 357 ؛ ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج1 ، 177 ؛ مارمول ، المصدر السابق ، ج2 ، 245 .

69 – المصدر السابق ، 92 .

من حمير وبغال وخيول ان تواتر ذكرها عرضا في عدد من السياقات ضمن المصادر المعتمدة في هذا العمل . ونتوفر على اشارات فائقة الاهمية بخصوص داب بني صالح على استجلاب النوق والجمال من مواطنها الصحراوية . اذ اشار صاحب البيان[70] الى اقدام صالح بن سعيد صاحب نكور على اتحاف عبد الرحمن الناصر «امير المؤمنين بالخيل والجمال وغير ذلك» ، بعث بها الى قرطبة على سبيل الهدية .

وبصرف النظر عن عدد من النباتات الطبيعية المستعملة في المستحضرات الطبية[71] ساهم استبحار العمران الحضري وكثافة النشاط البحري في وضع الثروة الغابوية التي تزخر بها السفوح الجبلية المرتفعة موضع استغلال مكثف ، خصوصا شجر العرعر الذي شكل «هو والارز اكثر خشبها» [72]. يتجلى ذلك بوضوح تام من خلال ارتباط قطاعات البنيان والصناعات البحرية في الاندلس بما يشحن اليها عبر مراسي غمارة من «خشب الارز الذى تنشا به الاساطيل ويصرف في الابنية الملوكية»[73] .

وفي نص لابي حامد الغرناطي الذي زار بلدة تمسامان نازلا عند بعض قرابته بها ، ما يكشف عن مظاهر من البيئة الساحلية التي طبعت بعمق حياة اهل البلد المتالقين في

70 - المصدر السابق ، ج1 ، 175 .

71 - نذكر منها الخربق بصنفيه الابيض والاسود الذي يكثر بناحية مليلة . انظر ، الغساني ، حديقة الازهار في ماهية العشب والعقار ، تحقيق محمد العربي الخطابي ، بيروت 1983 ، 321 .

72 - البكري ، المصدر السابق ، 90 ؛ الحميري ، المصدر السابق ، 577 . ويبدو ان الغطاء النباتي بالمنطقة قد تعرض لانحسار شديد نتيجة كثافة الاستغلال والاتلاف وكذا لقوة عوامل التعرية والتصحر. مع ذلك ما زالت السفوح المرتفعة المحيطة بقمة تدغين وكتامة الحالية من ابرز نطاقات شجرة الارز بالمغرب . في حين تحتفظ السفوح المحيطة بالموقع الحالي المعروف بـ « تامزيدا ن القرن» اي مسجد القرن في جبل ابي الحسن بمخلفات غابة متدهورة شاهدة عن بصمات كثافة نباتية في الماضي . ومن ابرز اصناف الاشجار التي ما زالت حية ببعض سفوح هذا الجبل الانواع المعروفة لدى اهل البلد بـ « امرزي ، اذرن ، ثيذا ....» وتعني على التوالي : العرعر ، البلوط الفليني والصنوبر . ويبدو ان التجرد لاجراء دراسات في التاريخ البيئي للاحراش الجبلية ببني ورياغل وتمسامان وغيرهما من المناطق المجاورة ، كفيل بالكشف عن فصول من التراجع والانقراض البيئي.

73 - ابن سعيد ، كتاب الجغرافيا ، تحقيق اسماعيل العربي ، بيروت 1970 ، 139.

مجال الصيد والملاحة البحرية . فبالاضافة للنباتات البحرية مثل عنب البحر الذي يقتلع من مكامنه في الاعماق زمن الخريف وتلقي به الامواج على الساحل ، يشير الزائر الى كثرة ما يظهر على طول الشط من «حيوان يشبه جامات الزجاج التي تكون في الحمامات شديدة البياض مدورة ينفذ فيها البصر ثخانا لينة فتتحرك ثم تموت بسرعة فتكون على شاطئ البحر احمالا يترامى بها الصبيان فتتقطع»[74] .

مع ذلك، فمنذ نهايات القرن الثالث الهجري وبالخصوص خلال بدايات القرن الرابع، بدات اعراض الاختلال تتجلى في اكثر من مجال . ففي مقارنة اجراها موسي بن ابي العافية خلال سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة بين بلاد نكور والتخوم الشرقية الشبه الجافة المحدقة بمليلة وقلوع جارة ، ما يكشف عما آلت اليه الوضعية الفلاحية بالامارة اذ قال في نص واضح المعاني :«وان بلدنا واحوازنا على ما بنا من مغاورة العدو لنا وتردده بناحيتنا لاكثر رخاء واوسع نعما من نكور واحوازها»[75] .

ما كان لتوالي الحملات الخارجية برية وبحرية اموية وفاطمية، الى جانب الاختلالات المحلية والحروب الاقليمية المستمرة، مع ما اسفر عن ذلك من تهديم للعمران وتخريب للبنيان ونهب للاموال وغنم وسبي[76]، الا ان تعصف بالبلد وتدفع به الى حافة المجاعة . يتجلى ذلك من خلال شهادة موسى بن ابي العافية ذاته الذي اكد بان صاحب نكور قد «وقف به الجوع والجهد»[77] فبلغ الغاية .

وبقدرما انحسر نفوذ الامارة عن تخومها الشرقية وعن سفوح بلاد غمارة الغربية ، تقلصت الموارد الفلاحية ونضبت مصادر النعم . نتيجة لذلك ، سرعان ما انعكست الآية وغدا امير نكور صالح بن سعيد دون غيره من املاك البربر ومتنفذي العدوة موسوما بـ«تاخره عنهم في سعة العمل واسعاد القدرة»[78] ، بعدما نال اسلافه غاية العز ومنتهى

---

74 - تحفة الالباب ، تحقيق اسماعيل العربي ، الدار البيضاء 1993 ، ، 98 - 99 ولقد استمر البحر الى عهد قريب خصوصا بتمسامان يلقي باعداد هائلة من هذا الحيوان ليتناقص بعدئذ بشكل ملحوظ طوال العقود الاخيرة .

75 - ابن حيان ، المقتبس 5 ، 372 .

76 - نفسه ، 413 ؛ البكري ، المصدر السابق ، 98 .

77 - ابن حيان ، المقتبس 5 ، 372 .

78 - نفسه ، 261 .

السلطان . استمرت هذه الصورة المزدوجة حية في الذاكرة تتناقلها الاقلام بصيغ مختلفة في عدد من المصادر المتاخرة . فبعدما كانت نكور «قديما في غاية الحضارة وكثيرة السكان»[79] اصبح اهلها بعدئذ مجرد رعاة و «اعراب يحرثون الارض»[80].

والغالب على الظن ان ثمة تغييرا قد مس في العمق مجمل النظام العقاري المرتبط بوضعية الارض واشكال الملكية ببلاد نكور ابتداء من نهايات القرن الثالث الهجري . فعلى غرار النظام الثغري بالاندلس ، لم يتردد عبد الرحمن الناصر عن اطلاق يد المتنفذين من اتباعه بالعدوة المغربية بواسطة امضاء سجلات وعقود الاقطاع ، مقابل الولاء والطاعة والاندماج في نظام الجماعة . يتجلي ذلك من خلال انفاذ العهد لموسى بن ابي العافية اقرارا على لسان الخليفة بان «كل ما توسعت فيه وفتح الله عليك به كان لك ولولدك ولعقبك اقطاعا من امير المؤمنين لك وتوسعا عليك ومكافاة لمحبتك لا تتبدل لك ولا لاحد من ولدك وعقبك عند امير المؤمنين حال الا باحسن منها»[81].ولقد سلفت الاشارة الى ان حملات موسى بن ابي العافية التوسعية قد بلغت قلب الامارة نكور فخربها ليعود نفوذه الى الانحسار بعدئذ نحو التخوم الشرقية الشبه الجافة ببلاد مكناسة واحواز مليلة .

وليس ادل على رسوخ اقطاع التمليك في عدد من المناطق التي كانت الى عهد قريب من ممتلكات امارة بني صالح ، من فحوى الخطاب الذي بعثه الخليفة الاموي عبد الرحمن الناصر سنة 326 هجرية لمدين بن موسى بن ابي العافية مرفوقا «بسجل من قبله ولاه به اعمال ابيه من مليلة وغيرها من مدن العدوة حسب ما كان اسجل لابيه قبله»[82] .

والراجح ان بلاد نكور لم تخرج عن القاعدة العامة التي عادة ما تمس وضعية الارض والعلاقات المتمحورة بين اطراف الانتاج الفلاحي حول العائدات الزراعية عند انتقال ازمة القرار السياسي والمبادرة التنظيمية والتشريعية من الحواضر والمدن والقرى الجامعة

---

79 - الحسن الوزان ، وصف افريقيا ، ترجمة محمد حجي/ محمد الاخضر، الباط 1980ج1 ، 255 ؛ مارمول كربخال ، افريقيا، ترجمة محمد حجي وأخرون ، الرباط 1984 ، ج2 ، 244 .

80 - الحسن الوزان ، نفس المصدر والصفحة .

81 - ابن حيان ، المقتبس 5 ، 312 .

82 - نفسه ، 427 .

نحو القلاع والحصون [83] . ففي هذه الحالة، لا يقتصر دور مراكز القرار الجديدة المحصنة على اتخاذ احمية[84] متحيفة، بل وتتحكم ايضا بفضل الجند والحاميات العسكرية في مجمل الاراضي والانشطة الفلاحية المرتبطة بها .

ينطبق نفس الشيء على الامتدادات الغربية للامارة ، ويتعلق الامر ببلاد غمارة التي لم تعد منتظمة كما كانت في اطار الجماعة واصبحت لكثرة من تامر«بتلك الناحية ملكا توزعوه قطعا»[85]. انعكس ذلك على المستوى العمراني بخراب الحواضر والمدن واختلال البنيان . من ثم تصاعد الاهتمام باتخاذ الحصون ورفع الاسوار وبناء القلاع . وهو ما سنتناوله ببعض العناية ضمن الفصل اللاحق في حدود ما تسمح به المادة التاريخية .

83 – للمقارنة يمكن تتبع تفاصيل هذه المسالة ضمن عملنا : عامة اشبيلية في عصر بني عباد اطروحة دكتوراه دولة نوقشت بكلية الآداب بمكناس ، ابريل 1994(لم تنشر بعد) .

84 – من المفيد بهذا الخصوص الاشارة الي اهمية صنف خاص من المصادر العربية التي طواها النسيان ، ويتعلق الامر ب«كتب احمية الحصون» . نخص منها بالذكر كتاب ابي الحسن علي بن محمد بن خلف المعافري المعروف بابن القابسي من اهل افريقية المتوفى 403 هجرية الذي وضعه في الموضوع ، راجع : ابن فرحون ، المصدر السابق ، ج2 ، 102 . ومن الاندلسيين نذكر يحيى بن عمر بن يوسف بن عامر الكناني من موالي بني امية جياني الاصل قرطبي المنشا قيرواني الاقامة وتوفي بسوسة سنة 289 هجرية الذي وضع هو الآخر مصنفا في «احمية الحصون» راجع : نفسه ج2 ، 455 وله كتاب مماثل بعنوان «في فضائل المنستير والرباط».

85 – ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، 289 .

الفصل الخامس

التجارة والعمران الحضري

اولا : عصر التالق

من المعلوم ان المعاينات الاركيولوجية وعمليات السبر الاثري التي أجريت بالمنطقة لم تسفر حتى الآن عن اية لقى كفيلة بتحديد مواقع عمرانية شاهدة عن ارث حضاري قديم ، سواء تعلق الامر بالعهد البونيقي والفنيقي او بالعصر الروماني . وباستثناء ما قيل عن الاصول الفنيقية والرومانية لمدينة مليلة المعروفة قديما باسم روسادير ، لا تعدو محاولات تأصيل غيرها من المواقع ان تكون مجرد فرضيات هشة[1]

حقيقة اننا نتوفر على لائحتين باسماء عدد من المواقع القديمة المتناثرة على طول الساحل المتوسطي بين طنجة غربا ومصب نهر ملوية شرقا مثبتتين لدى بطليموس وفي

1 - Patrice CRESSIER, *Prospection*, op.cit. pp 255-257; voir aussi Idem "Le Développement urbain des côtes septentrionales du Maroc au Moyen-Age: frontières intérieures et frontières extérieures",in *CASTRUM 4, Rome-Madrid 1992, p.17; Enrique GOZALBES GRAVIOTO,"Melilla en el siglo XI : datos para su historia"in Actas de las jornadas de cultura árabe e islámica, Madrid,1981.* Charles TISSOT, *Recherches sur la géographie comparée de la Maurétanie tingitane,* Paris 1878, p. 139.

مسالك انطونان الشهيرة[2] ، ولقد عمد احد الدارسين منذ مدة الى موافقة بعض الاسماء الواردة في المسالك المذكورة مع المواقع المعروفة في العصر الوسيط بالمزمة قبالة حجرة نكور يليها غربا موقعي بوزكور والقلعة[3]. مع ذلك ففي غياب مزيد من الشواهد يبقى الباب مفتوحا لكل الاحتمالات .

وبصرف النظر عما ذكره الاشبيلي في مسالكه[4] عن اقدام الافرنج في الازمان الغابرة على بناء المدائن في الاوطئة والمناطق السهلية ، فقد نص ابن عذاري[5] على اهمية العمران الحضري وكثافة التجمعات القروية بالشريط الساحلي لبلاد المغرب ابان عصر الفتح الاسلامي بقوله في عبارة دالة : «ذكروا ان افريقية كانت ظلا واحدا من اطرابلس الى طنجة وقرى متصلة ومدائن منتظمة ، حتى لم يكن في اقاليم الدنيا اكثر خيرات ولا اوصل بركات ولا اكثر مدائن وحصونا من اقليم افريقية والمغرب مسيرة الفي ميل». وغني عن القول ان الاضطرابات التي صاحبت انهيار النظام القديم والصراعات التي واكبت لمدة حروب الفتح كان لها ابلغ الاثر في هدم المنشآت والبنيان وتعميم خراب العمران [6] .

ومن ابرز المواقع المخضرمة الموروثة عن العصرالسابق للاسلام «مرسى تمسامان»[7] الذي تواتر ذكره في عدد من المصادر المتاخرة[8] . ومن المفيد الوقوف عند الاشارة التي تنص على ان صالح بن منصور قد نزل بهذا المرسى عند دخوله ارض المغرب الاقصى في الافتتاح الاول . والراجح ان رحلتة من افريقية قد تمت بحرا لتلافي الغرر في المسالك البرية المضطربة مما يتوافق تماما مع ما سلف ذكره عن الطابع الترشيدي لمهمته بالمنطقة.

ولعل في وسم الثائر الخارجي القائم بتمسامان حوالي سنة 121 هجرية/738م بالرندي

---

2 - Raymond ROGET, *Le Maroc chez les auteurs anciens, Textes traduits*, Paris 1924, pp. 37 et 39.

3 - وهي على التوالي : 1- Ad sex insulas 2 - Promonturium 3 - Parietina

4 - انظر: ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج1 ، 20 .

5 - نفسه ، ج1، 36 .

6 - لمزيد من التفاصيل راجع : نفسه ، ج1 ، 35.

7 - البكري ، المصدر السابق ، 91

8 - ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، 285 ؛ الحميري ، المصدر السابق ، 128 .

نسبة لرندة بالعدوة الاندلسية ما يدل على كثافة التواصل البحري بين اهالي العدوتين وعلى مكانة تمسامان باعتبارها من ابرز المحطات البحرية بالحوض الغربي للمتوسط منذ الفترة السابقة للاسلام، سواء في اتجاه الشرق نحو افريقية او شمالا نحو ايبيريا . وهي المكانة التي احتفظ بها هذا الموقع على ما يبدو طوال العقود الاولى من القرن الثاني الهجري ، مصداق ذلك جعلها المحطة القصوى في رحلة عبد الرحمن الداخل ومرافقيه من موالي بني امية والمعبر لهم بعدئذ نحو مرسى ساحل كورة البيرة في الضفة الاخرى للمتوسط. ولقد كشف ابن عبد الحكم [9] كما هو معلوم عن الطبيعة التجارية للموانئ المغربية مشيرا لاختلاف التجار بالبضائع واصناف المنافع في مراكبهم عبر المجاز الى جبل طارق والجزيرة الخضراء قبيل الفتح الاسلامي . والغالب على الظن ان ثمة رحلات مماثلة كانت تنطلق من تمسامان في اتجاه بجانة وساحل المنكب ، مما يجعلنا على عكس اعتقاد بعض الدارسين امام مرسى حقيقي له من الاهمية والمكانة ما جعله «مرسى مشهورا » [10] في الآفاق .

ويحدد البكري موقع هذا المرسى بوادي البقر الذي سبق ان اعتبرناه تصحيفا من طرف النقلة لعبارة «وادي امقران» الذي مازال الى اليوم يحمل نفس الاسم باللغة المحلية :«اغزار امقران» . لذلك فكثيرا ما نسب الى موقعه هذا، اذ ورد في سياق آخر ذكر«المرسى المعروف بوادى البقر بتمسامان» [11] . يضيف البكري ان صالح بن منصور النازل بمرسى تمسامان قد حل «بموضع يقال له بدكون» [12] الواقع هو الآخر على السفح الايمن لمجرى وادي البقر. وعلى اثر وفاة هذا الامير، يذكر البكري [13] خطا انه «دفن بقرية اقطي على شاطئ البحر» . والواقع ان قبر العبد الصالح يوجد الى القبلة على بعد مسافة قصيرة

---

9 - المصدر السابق ، 73 .

10 - الحميري ، المصدر السابق ، 128 .

11- البكري ، المصدر السابق ، 97 .

12 - نفسه ، 91 . اميل الى الاعتقاد بان بدكون هو الاسم القديم للموقع المعروف الى اليوم بـ «تقصبت ان واداى» اي القصبة السفلى على الضفة اليمنى للوادي الكبير قرب المصب الا ان توثيق ذلك يتطلب القيام بمعاينات اثرية في الميدان .

13 - نفسه 92 .

من شط البحر على الضفة اليسرى للوادي المالح المعروف ايضا بوادي سيدي صالح قرب بدكون .اما اقطي، فما زالت الى اليوم من اهم التجمعات القروية بسفح مرتفع نسبيا عند المصب على الضفة اليسرى للوادي الكبيركما تحتفظ بنفس اسمها القديم . وفي منتهى السفح على شط البحر يوجد ضريح سيدي ادريس ثالث امراء بني صالح ، مما يفصح عن ارتباك رواية البكري بخصوص الضريحين . اليس في هذا ما ينم عن كوننا امام نواتين للتجمع السكني موروثتين عن العصر السابق للاسلام : اقضي وبدكون ، اتخذتا في غياب الحواضر والمدن شكل تجمعات قروية متمركزة عند مصب اهم سيل - على تواضعه - بالمنطقة ومتمحورة حول المرسى الذي يضمن فضلا عن ممارسة الصيد البحري امكانات التسفير التجاري ؟

والجدير بالملاحظة ان تمسامان وردت في عدد من السياقات باعتبارها منطقة جغرافية ، مع التحديد احيانا بكونها مكانا وموضعا او عملا[14]. بينما يضبطه البعض[15] في « الجبل المعروف بابي الحسن» خاصة . لذلك فانتساب المرسى السالف الى تمسامان كفيل بالافصاح عن دوره كنافذة بحرية اساسية ليس فقط للتجمعات القروية المذكورة ، بل وكذا لمجموع السفوح الجبلية المتحيفة بحوض وادي البقر المعروف هو الآخر بـ«نهر تمسامان»[16] . اما ما تنم عنه عبارة «بني تمسامان» الواردة لدى صاحب البيان من معاني اجتماعية قبلية ، فلا تعدو ان تكون اسقاطا للوضعية التي اصبحت عليها الامور خلال عصر هذا المصنف وبعدئذ طوال العصور المتاخرة الى اليوم ، علما بان مسالك البكري والمصادر القديمة المعتمدة في هذا العمل لا تتضمن اية اشارة الى تمسامان مقرونة بعبارة «بني». ويتضح من خلال عدد من الروايات التاريخية ان سكان جبل ابي الحسن الذي تتشكل منه منطقة تمسامان كانوا الى حدود القرن الخامس الهجري على الاقل يعرفون ببني يصليتن .

وعلى غرار اقتران تمسامان في عدد من الروايات حينا بالوادي واحيانا بالمرسى،

---

14 - انظر : عبد الواحد المراكشي ، المصدر السابق ، 362 ؛ الزهري ، المصدر السابق، 120.

15 - البكري ، المصدر السابق ، 90 ؛ ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج4 ، 100.

16 - البكري ، المرجع السابق، 99 .

من المفيد الاشارة الى النص الذي ورد لدى ابن خلدون [17] منقولا على ما يبدو عن صاحب المقباس في ذكر «مدينة تمسامان»، التي كان ينزل بها امراء بني صالح قبل تاسيس حاضرة نكور . لذلك لم تتردد بعض المصادر المتاخرة[18] عن وسم سادس امراء آل صالح سعيد بن صالح بن سعيد بـ«صاحب مدينتي نكور وتمسامان».

تحملنا هذه القرائن على الاعتقاد بانتظام التجمعات القروية السالفة الذكر في شكل مراكز شبه حضرية حول مصب الوادي الكبير، تحت تاثير التطور العمراني الذي تجلت بوادره على يد صالح بن منصور وتالقت معالمه بعدئذ طوال القرنين الثاني والثالث للهجرة . وهو الموقع الذي زاره بعدئذ ابو حامد الغرناطي [19] في رحلته المشرقية خلال العقد الاول من القرن السادس الهجري، بعد التراجع والنكوص الذي مس الحياة الحضرية بالمنطقة اذ قال : بان نزوله كان في « بلدة يقال لها تمسامان...وهي على جانب البحر».

مع ذلك لا نستبعد امكانية وجود موقع حضري قديم باسم تمسامان على بعد بضعة اميال من شط البحر عند المخنق المشرف على الوادي[20] . ومما يرجح هذا الاعتقاد ان البعد بضعة اميال عن شط البحر قاعدة عامة في طبيعة المدن المغربية القديمة مثل شالة وتمودة وليكسوس . ولا يستبعد ان تكون ثمة علاقة بين موقع «امسا» الذي يرجع الى القـ · الثامن قبل الميلاد ، حيث وجدت بعض المخلفات الفينيقية و«تامسامان» ، اذا ما اعتبرنا الاسم مركبا من «تامسا» بتاء التانيث احالة علي المدينة و«امان» التي قد تعنى بلغة اهل

17 - العبر ، ج6 ، 284والملاحظ انه بدل الميم ، فان رسم الموقع ورد بالكاف تصحيفا كالتالي «تكسامان»، مما ينبه على اهمية اخضاع كتاب ابن خلدون للتحقيق واخراجه في نسخة علمية جديرة بقيمة هذا المصنف ضمن الكتابات التاريخية المغربية الوسيطة .

18 - المقريزي ، المصدر السابق ، 99 .

19 - المصدر السابق ، 98 - 99 .

20 - والمقصود هنا نقطة ما عند المثلث الواقع بين سوق خميس تمسامان الحالي ومركز بودينار وموقع كرونة . وبصرف النظر عن بعض المؤشرات المصدرية الغامضة التي سنتناولها لاحقا ، فالمطلوب لتوثيق ذلك القيام بسبر اثري وبمعاينات اركيولوجية ميدانية بالمنطقة .

البلد : القريبة من الماء[21] .

ومن ضمن المراسي المذكورة من طرف البكري منسوبة لتمسامان مرسى الدار واوقتيس اللذين ما زالت الخلافات بين الدارسين قائمة حول تحديد موقعهما[22] . ولا يستبعد ان يكون الاسمان قد تعرضا على غرار عدد هام من اسماء المواقع والاعلام المحلية للخطا والتصحيف من طرف الوراقين والنقلة او عند اثباتها بالسماع عن لسان اهل البلد الى الفصحى العالمة . ولعل في الطابع المحلي والموسمي للمرسيين واقتصارهما على ممارسة الصيد البحري والملاحة الساحلية ، ما يفسر الاهمال الذي طالهما من لدن غير البكري من المصنفين .

والراجح انه بعدما استقامت الامور لصالح بن منصور في تمسامان ، وحتى يتمكن

---

21 - وهذه المخلفات قد تم التعرف على نسبتها للفنيقيين من طرف الباحث محمد مجدوب، ضمن المواد التي اكتشفها Tarradell في موقع امسا قرب مدينة تطوان الحالية وضمنها اطروحته لنيل دوكتوراه الدولة في موضوع: « دراسات عن الحياة الاقتصادية بموريطانية في القرن الاخير قبل الميلاد » التي شاركنا في عضوية مناقشتها بكلية الآداب والعلوم الانسانية بالمحمدية ، يونيو 1998.

22 - Patrice CRESSIER, *Prospection,* op.cit, p.148 واميل الى موافقة « مرسى الدار » المذكور لدى البكري مع الموضع المعروف محليا الى اليوم باسم « ادار اركزيم » . والجدير بالملاحظة ان ثمة مواقع مختلفة على طول الشط البحري بتمسامان تحمل اسم « ادار » وهو مصطلح جغرافي باللغة المحلية يعني شاطئ صخري على شكل جرف حاد الانحدار . ومن جهة اخرى ، لا يستبعد ان يكون النقلة قد صحفوا تنقيط الفاء في اسم الموقع الثاني فاستحالت قافا في النص المعتمد من طرف الدارسين . انطلاقا من ذلك ، يمكن ضبط مرسى اوقتيس في الموقع الحالي « لاوفتيس ان داوود » الذي يقع في خليج صغيرذي طبوغرافية جيدة لاقامة مرسى. ويوجد الموقعان « اوفتيس ان داوود » و « ادار اوركزيم » في الموضع المعروف اليوم بالعزيب سيدي شعيب الذي احتفظ باهميته في صيد الاسماك والحيتان . ومن المفيد التذكير بان افتيس بالتذكير وتافتيست بالتانيث وافتيسن بالجمع مصطلح جغرافي ذو دلالات طبوغرافية باللغة المحلية ، ولقد استمر احد المداشر الى اليوم تعرف باسم « افتيسن » على الضفة اليسرى لمجرى وادي نكور . لمزيد من التفصيل ، انظر: Lahcen NABIL, "Essai de toponymie", *Revue de la faculté des Lettres*, vol.I, Tetouan 1986, p. 115.

من توسيع مشروعه ليشمل القبائل المجاورة الضاربة في سفوح بني ورياغل المقابلة[23] ، عمد الى بناء «رباط نكور»[24] عند ملتقى نهري غيس ونكور بطرف الموضع المعروف بـ«اكدال»، ليكون بمثابة مركز للتعبد والدعوة ومقرا لاستقبال وفود الزوار ومشايخ العشائر. بالموازاة لهذه المعلمة ذات الطابع الثقافي والديني ، لم يتاخر صالح بن منصور عن انزال نفر من البربر على الضفة اليمنى لنهر نكور لاقامة سوق هناك ، سرعان ما اصبحت بمثابة اول نواة للنشاط التجاري وللعمران الحضري بالمنطقة[25].

تطورت الامور بعدئذ بسرعة موفرة الشروط لتحول نوعي على المستوى العمراني . تجلى ذلك في شروع ثالث امراء آل صالح ادريس بن صالح بن منصور بوضع اسس الحاضرة التي اقترن بها اسم الامارة في عدوة الوادي المقابلة للسوق خلال نهاية الثلاثينات او بداية الاربعينات من القرن الثاني الهجري . الا ان الوفاة سرعان ما تداركته سنة 143 هجرية «ولم يكملها»[26] . لذلك ، تكاد تجمع المصادر على ان خلفه سعيد بن ادريس الذي تابع اعمال والده العمرانية هو الذي «اختط مدينة نكور لاول ولايته ونزلها»[27] بعدما تم تحويل دار الامارة وخاصة الملك جملة من تمسامان الى نكور التي غدت بذلك حاضرة .

ان في هذا الحدث الهام ما يفصح عن الحلقة الاساسية الكاشفة عن بواكير العمران الحضري بالغرب الاسلامي ، خصوصا على مستوى المغرب الاقصى والاندلس. وهو ما عبر عنه احد المؤرخين المتاخرين[28] في جملة مقتضبة دالة اذ قال نقلا فيما يبدوعن مصادر

---

23 – ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، 284 .

24 – البكري ، المصدر السابق ، 91 . سبقت الاشارة الى ان مجرى النهرين غيس ونكور كانا قديما يلتقيان عند المصب .

25 – البكري ، المصدر السابق ، 92 . والغالب على الظن ان هذه السوق شغلت الكدية المعروفة الى اليوم بـ«ازرو ان تسريث» اي صخرة العروس .

26 – ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، 284 فدفن بتمسامان حيث ما زال ضريحه الى اليوم معروفا باسمه « سيدى ادريس» على شط البحر بمقربة من قرية ايذي . مما يفصح عن استمرار حاضرة الامارة الى حدود هذا التاريخ بمكان ما من جبل ابي الحسن بتمسامان .

27 – انظر : البكري ، المصدر السابق ، 91 ؛ ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، 284 ؛ ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج1 ، 176 .

28 – الزياني ، المصدر السابق ، 79 .

مفقودة :«فاول مدينة بنيت بالمغرب مدينة نكور».

ويتواتر في بعض المصنفات الجغرافية[29] نعت نكور بالمدينة القديمة الازلية . بل ومنهم [30] من نص على ان «مدينة نكور...من بنيان الجبابرة» . ومن المعلوم ان المقصود بالجبابرة في قطاعات من الفكر السياسي الاسلامي الوسيط: الملوك تمييزا لهم عن الخلفاء، في احالة على القياصرة من ملوك الروم [31]. ينطبق نفس الشيء على مرسى الحاضرة [32]الواقع في جوفها قبالة حجرة نكور المعروفة في بعض المصادر بالمزمة . ولعل فيما سبق ذكره عن مطابقة احد المواقع المتضمنة في مسالك انطونان مع مرسى المزمة ، ما يدعو الى التساؤل عن امكانات الوقوف على اصول رومانية للموقعين . الا انه لحد الآن ليس هناك ما يدعم هذه الفرضية . والراجح ان مصطلحات القدم والازلية استعملت للاحالة على ارتباط تاسيس نكور بالبدايات الاولى لاندماج المغرب في دار الاسلام .

ولقد تم اختيار موقع المدينة عند مخنق الوادي المشرف على فحص نكور الممتد اسفله على بعد «خمسة اميال » [33] من شط البحر . ولعل في اختيار هذا الموقع ما يقدم مؤشرا اضافيا على ما سبق ذكره بخصوص امكانية وجود مدينة باسم تمسامان بنفس الموافات الطبوغرافية اي عند مخنق الوادي الكبير المشرف على الحوض الاسفل لمجرى الوادي . وليس مصادفة على ما يبدو ان تشغل بجانة بالاندلس الوثيقة الارتباط بنكور هي الاخرى مجالا يقع على بعد «خمسة اميال او ستة اميال » [34] عن شط البحر .

وعلى غرار «مرسى تمسامان» السالف الذكر الذي كان بمثابة النافذة البحرية للمدينة الواقعة علي بعد اميال من الشاطئ ، من المعروف ان المزمة ايضا قد اتخذت

---

29 – انظر : مجهول ، كتاب الاستبصار، 136 ؛ الحميري ، المصدر السابق ، 134 .

30 – الزهري ، المصدر السابق ، 113 .

31 – لمزيد من التفصيل على المستوى اللفظي والاصطلاحي راجع ، لسان العرب ، حرف الراء ، ج 2 ، 117 .

32 – مارمول ، المصدر السابق ، ج2 ، 244 .

33 – البكري ، المصدر السابق ، 91 وهو ما يمثل في خط مستقيم مسافة 5 ، 12 كلم على بعد حوالي 14 كلم من الشاطئ .

34 – الحميري ، المصدر السابق ، 80 .

لنفس الغاية على بعد خمسة اميال من الحاضرة كما هو معلوم . ومما يثير الانتباه ان المرية [35] قد اتخذت هي الاخرى على بعد خمسة اميال من بجانة[36] .

وليس من المصادفات ان ينمحي اثر مدينة تمسامان من النصوص التاريخية ومن الذاكرة وتستمر بعض الاشارات الخجلى لمرساها . ومن المعلوم ان المزمة قد تالقت بشكل ملحوظ مستفيدة من توالي موجات الخراب على الحاضرة نكور التي انتهى بها المطاف الى الانقراض كما سلف الذكر . وبالمثل ، ان لم يكن بتطابق شبه مطلق خربت بجانة وهجرت منذ منتصف القرن الرابع الهجري لتتالق المرية بسرعة فائقة وتصبح منذ هذا التاريخ اكبر بوابة تجارية وبحرية لمجموع البلاد الاندلسية .

تجدنا اذا امام ظاهرة مدينية متميزة ومرتبطة بالنشاط البحري وببواكير العمران الحضري بالغرب الاسلامي ، لم تتفطن اليها الداراسات التاريخية ولا الابحاث الاركيولوجية المهتمة بالمرحلة الانتقالية من العصر القديم الى بواكير العصر الوسيط . وفي تقديرنا ان الامساك بالعناصر السابقة كفيل ليس فقط بالكشف عن الموقع الاثري لمدينة تمسامان القديمة بل وكذلك باجراء مسح شامل لبواكير التمدن الساحلي بمجموع الغرب الاسلامي .

وبرغم التحريات الاثرية التي اجراها ثلة من الباحثين بموقع مدينة نكور ، وما اسفرت عنه اعمال الحفر من لقى خزفية وزجاجية وخشبية ومن قطع نقدية ومعدنية ورسوم

---

35 - ولقد كان موقعها يعرف في البداية بمرية بجانة ، باعتبار دورها كنافذة لهذا المركز البحري الواقع الى الوراء ونسبة اليه . ينطبق نفس الشى على مواقع اخرى عرفت لدورها هذا بنفس الاسم مثل مرية بلش على سبيل المثال بحوز مالقة . ويبدو ان مرسى تمسامان والمزمة لعبا نفس الدور كمرية لحاضرتي تمسامان ونكور. مما يوقفنا عند احد اقدم المصطلحات المرتبطة بالعمران البحري بالغرب الاسلامي .

36 - ومن المفيد بهذا الصدد الاشارة الى ما ذكره احد المتخصصين في دراسة الخزف بالغرب الاسلامي عن الجرة من الصنف البجاني التي عثر عليها مؤخرا بموقع نكور الاثري مما يؤكد ما ذهبنا اليه عن بواكير العلاقات التجارية بين نكور وبجانة . انظر :

Manuel ACIEN ALMANSA y otros, *La Cerámica a mano de Nakur (ss. IX-X), producción beréber Medieval*, Proyecto de cooperación franco marroquí: Génisis de la ciudad islámica en Marruecos (Nakur, Agmat, Tamdult), p.6.

منحوتة ، لا تسعف النتائج القليلة المنشورة لتقدير الحجم الحقيقي للنمو الحضري الذي بلغته المدينة . وعلى الرغم مما تقدمه نتائج عمليات السبر الاركيولوجي التي انجزها مؤخرا فريق من الدارسين[37] من عناصر المراجعة ، لا تبدو كفيلة بتكوين تصور متكامل عن الطبيعة المعمارية ولا عن خصائص التطور العمراني بالمدينة على مدى ما ينيف عن ثلاثة قرون من حياة الحاضرة .

لا غرابة في ذلك ، ما دامت المدينة قد تعرضت للتخريب اكثر من مرة من طرف الغزاة المتعاقبين على احتلالها كما سلف الذكر ، ابتداء من حملة النورمان سنة 244 هجرية / 858 م، مرورا بتوالي السيطرة العبيدية عليها بعدئذ خلال بدايات القرن الرابع الهجري ، الى ان نسف آثارها موسى بن ابي العافية سنة 319 هجرية/ 931 م «وتركها بلاقع تسفى عليها الرياح وتعاوي فيها الذئاب»[38] ، لينتهي الامر باجهاز المرابطين على ما تبقى منها سنة 473 هجرية / 1080 م «فلم تعمر بعد»[39] ، ناهيك عما نالها على ايدي الثوار الذين ناشبوها القتال واحكموا عليها الحصار في اكثر من مناسبة .

ان في هذه الفصول ما ينبه على الحدود التي يقف عندها البحث الاركيولوجي الذي

---

37 - والمقصود هنا الفريق الذي اجرى مؤخرا ثلاث عمليات سبر اثري بموقع حاضرة نكور خلال الفترة الممتدة من 20 مايو 1995 الى غاية 12 يونيو من نفس السنة في اطاربرنامج التعاون الاركيولوجي المغربي الفرنسي المشار اليه سابقا وما زالت النتائج المفصلة لم تنشر بعد . ويعتبر Andrés SANCHEZ PEREZ اول من حدد موقع المدينة على اثر الحفريات التي اجراها سنة 1934 . راجع : Guillermo GOZALBES BUSTO, *op .cit*, pp. 32-33 . وقبل ذلك ، تم استخراج عدد من البقايا والمخلفات الاثرية بموقع المدينة اثناء اختراقها بواسطة عمليات الحفر لمد الطريق الرئيسية الرابطة بين «بيا سانخورخو» (الحسيمة) والناضورخلال سنة 1929. ومن المعلوم ان عمليات سبر اضافية قد تمت لاحقا خلال سنتي 1955 و 1958 من طرف دافيد هارت واحمد المكناسي . وخلال سنة 1980 انجزت ست استبارات اخرى من طرف Ch.REDMAN في اطار برنامج التنقيب الامريكي : "Survey and test excavation of six medieval islamic sites in northen Marocco".

38 - البكري ، المصدر السابق ، 97 .

39 - ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، 247 ؛ ابن ابي زرع ، المصدر السابق ، 143،

لا يمكن التعويل عليه - اللهم في مستويات ضيقة - لاعادة بناء واقع العمران الحضري بنكور وهو في اقصى درجات تطوره قبل منتصف القرن الثالث الهجري . والجدير بالملاحظة ان البحث التاريخي المعاصر ما زال متحفظا بخصوص درجات النمو المديني واستبحار العمران الحضري الذي تحقق بالغرب الاسلامي قبل منتصف القرن الخامس الهجري تحت تاثير التنويم الذي ما زالت تمارسه المركزية الاروبية المنغلقة على ذاتها في مجموع التصورات المتعلقة بالتاريخ الحضري خلال العصر الوسيط . وحتى بالنسبة لمشاهير الحواضر كقرطبة الخلافية واشبيلية العبادية ، لا تسعف المادة الاثرية - رغم الشواهد الباقية - في مسايرة وقع المعلومات المصدرية الدالة على بلوغ النمو الحضري بالغرب الاسلامي لمستويات غير معهودة[40] في تاريخ المجتمعات السابقة واللاحقة . ساهم ذلك في استمرار تحكم المقاييس المستنبطة من التاريخ الاروبي في تقويم اشكال ومظاهر النمو الحضري المتعلقة بغيره من تواريخ الامم ، ومن المعلوم ان الارض الكبيرة[41] قد استمرت على هامش الحضارة المتوسطية طوال العصرين القديم والوسيط مما لا يسمح باتخاذها نموذجا للقياس في جميع الاحوال .

وبصرف النظر عن دور السوق - الذي شكل النواة الاولى للمدينة - في استقطاب حركة المبادلات بين مختلف المجموعات القبلية المصاقبة ، يكشف البكري [42] من خلال ذكره لما احتضنته نكور من«اسواق عامرة مفيدة» عن ارتباط بواكير نموها المعماري بالتجارة والحرف . نجد تاكيد ذلك في اقدام الامير سعيد بن ادريس بمجرد انتهائه من وضع قواعد الحاضرة على نقل الحرفيين والسوقة من مرابضهم بالضفة اليمنى للنهر «الى المدينة التي

---

40 - وهو ما تناولناه بتفصيل في عدد من دراساتنا السابقة ، انظر على سبيل المثال : قرطبة في عصر الخلافة ، النموذج الامثل للنمو الحضري بالغرب الاسلامي ، ضمن دراسات ومباحث في تاريخ الاندلس ، عصري الخلافة والطوائف ، البيضاء ، 1993 . والمقصود باللاحقة في هذا السياق ليس فقط العصور الوسطى المتاخرة ، بل وكذا جزءا من العصر الحديث ، الى حدود فترة التحولات الكبرى التي صاحبت الثورة الصناعية .

41 - وهو المصطلح المصدري الذي كان يطلق على البر الاروبي الواقع فيما وراء البرانس .

42 - المصدر السابق ، 90 .

اسس»[43] ليصبحوا بمثابة المحرك النشيط للعمران بها . ما فتئت نكور تتسع بعدئذ الى ان بلغت الغاية خلال نهايات القرن الثاني وبدايات القرن الثالث الهجريين . وهو ما افصح عنه التاجر الموصلي والجغرافي الشهير ابن حوقل[44] لدى دخوله نكور في رحلته المغربية حوالي منتصف القرن الرابع الهجري بقوله في عبارة مقتضبة واضحة الدلالات :«نكور مدينة مقتصدة في وقتنا هذا وكانت قديما اعظم». ولعل في اجماع عدد من المصادر الجغرافية على نعتها بـ«المدينة الكبيرة»[45] ما يؤكد ذات الحقيقة . ولا يخالجنا شك في تصدرها الى حدود منتصف القرن الثالث الهجري لائحة كبريات الحواضر بالغرب الاسلامي . مصداق ذلك شهادة اليعقوبي[46] المعاينة الذي لم يتردد عن وسمها بالمدينة «العظمى» ، مع ما لحق بها من تخريب على يد الغزاة النورمان قبل عقود من زيارته لها خلال السبعينات من القرن الثالث الهجري .

وليس مصادفة ان تحظى نكور دون غيرها من المدن بالحوض الغربي للمتوسط باهتمام المغيرين القادمين من اقصى هوامش الارض الكبيرة لتصبح على بعدها عن مواطنهم هدفا متميزا لغاراتهم . والراجح ان المدار الحضري للمدينة شمل الى جانب كدية «ازرو ان تسريث» على الضفة اليمنى للوادي والكدية المقابلة على الضفة اليسرى عددا من الربى والمنحنيات المجاورة ، وهو ما عبر عنه البكري[47] بالقول :« ومدينة نكور بين رواب منها جبل يقابل المدينة يعرف بالمصلى». ان في مجموع هذه الملاحظات ما يدعو الى التحفظ من اعتبارها مجرد بلدة قروية متميزة بخشونة طابعها المعماري وباعتماد بنيانها على تقنيات محلية محدودة التطور[48] .

---

43 – نفسه ، 92 .

44 – المصدر السابق ، 78 .

45 – انظر: الاصطخري ، المصدر السابق ، 34؛ الحميري ، المصدر السابق ، 576 .

46 – المصدر السابق ، 357 .

47 – البكري ، المصدر السابق ، 90 .

48 – انظر : Patrice CRESSIER, *Prospection*, op cit, p.136 véase También el trabajo del mismo autor: "Le Développement urbain", *op.cit*, p.178.

وليس ادل على خطا هذا الزعم من اشتمال المدينة على «حمامات كثيرة»[49]. ومن المعلوم ان هذه المنشآت تتطلب اساليب ومواد بناء في مستويات ارقى . ويبدو ان دار الامارة التي تحتوي على المطبق المخصص لسجن وجوه وبياض الناس من الخاصة قد استاثرت باهم تقنيات العصر المعمارية ، فاصبحت بذلك قصرا قائما يتوفر على طوابق علوية وشرفات واسعة محاطة بالتحصينات الكفيلة باستيعاب ما يكفي من العدة والفتيان لمواجهة حالات الحصار[50] .

مع ذلك ، وبخلاف المساجد الجامعة التي اتخذت بالمدن الموروثة عن العصر القديم وبنيت بالحجر والبلاط والطجون ، مثل جامع قرطبة الذي شغل شطرا من كنيسة شنت بنجنت العظمى ومسجد روبينة باشبيلية[51]، فالملاحظ ان المسجد الجامع بنكور قد بني «على اعمدة من خشب العرعر»[52] مقدما بذلك نموذجا اصيلا لاقدم المساجد الجامعة بالغرب الاسلامي التي تنحو الى التواضع على المستوى المعماري[53] .

---

49 – البكري ، المصدر السابق ، 90 ؛ الحميري ، المصدر السابق ، 577 .

50 – البكري ، المصدر السابق ، 93 .

51 – المقري ، المصدر السابق ، ج1، 560 ؛ ابن القوطية ، المصدر السابق ، الابياري ، 36–37.

52 – البكري ، المصدر السابق ، 93 . ونتوفر على معلومات هامة بخصوص الطبيعة المعمارية ومواد البناء المستخدمة خلال هذه العصور المبكرة من تاريخ المغرب . ورد لدى ابن قتيبة الدينوري في سياق حديثه عن بلاد افريقية «ان عامة بيوتها الخصوص وافضلها القباب ، وبناء المسجد يومئذ شبيه بالحضير ، غير انه سقف ببعض الخشب ، وقد كان ابن النعمان بنى القبلة وما يليها بالمدر بنيانا ضعيفا» الامامة والسياسة ، تحقيق طه محمد الزيني ، بيروت ، بدون تاريخ . ومن المعلوم ان الاخصاص يقال لغويا لكل بناء متخذ من القصب .

53 – ومن المعلوم ان جامع القيروان الاول من نوعه بعموم بلاد المغرب قد تعرض مرارا خلال البدايات الاولى للهدم واعادة البنيان . ويقال ان حسان بن النعمان هو الذي نقل من احدى الكنائس الساريتين اللتين رفعت عليهما القبة المقابلة للمحراب ، انظر : البكري المصدر السابق ، 22–23 وكذلك الحميري ، المصدر السابق ، 487 . ومن المفيد بهذا الخصوص التذكير بجامع ابن عدبس باشبيلية الذي بني بما يشبه مواصفات مسجد نكور اذ رفع هو الآخر على جوائز من خشب آلت مع طول الزمن الى الاختلال والسقوط مما دعى الى ترميمه باستعمال اقواس الآجر حتى يتمكن من مقاومة اعراض الوهن .

تجدنا اذا امام حاضرة مكتملة العناصر: اسواق ومسجد جامع ودار امارة ومصلى اضافة لحوم وارباض العامة[54]. مما يكشف عن اسبقية نكور الى تاصيل البنية المعتمدة في تنظيم المجال الحضري بالغرب الاسلامي .

وكما سيتضح لاحقا في كبريات المدن المغربية الاندلسية ، سرعان ما تحرك دولاب العمران الحضري في اتجاه الضواحي ، على بعد عدة اميال من مركز الامارة .تجلى ذلك في اقدام سعيد بن ادريس على انشاء احد ابرز المعالم العمرانية بالمنطقة . ويتعلق الامر باتخاذه «مسجدا على صفة مسجد الاسكندرية بمحارسه وجميع منافعه» على نهر غيس قرب شاطئ البحر قبالة جزيرة نكور. ولعل في استقراء ما تواترته المصادر العربية بخصوص مواد البناء والتقنيات المعمارية الرفيعة ودرجات التعقيد الهندسي المستعملة في بناء مسجد الاسكندرية [55]، ما يبرز درجات النضج التي اصبح عليها العمران الحضري منذ هذه الفترة المبكرة من تاريخ نكور .

ويبدو ان بني صالح قد اتخذوا في مكان ما قرب هذا المسجد اقامة اميرية يترددون عليها للراحة والاستجمام او ملجا من المخاطر اثناء فترات الازمة والحصار. والغالب على الظن ان هذه الاقامة قد رفعت بناء محصنا على الجزيرة الصغيرة [56] الواقعة داخل البحر

---

54 - انظر التفاصيل لدى : البكري ، المصدر السابق ، 93.

55 - راجع التفاصيل لدى : ابن خرذاذبه ، المصدر السابق ، 114 ؛ الاصطخري ، المصدر السابق 40 ؛ مجهول ، الاستبصار ، 95 ؛ الحميري ، المصدر السابق ، 45 - 56 . وبالاندلس من المعروف ان مسجد ابن عدبس السالف الذكرقد احتل مكانة متميزة باعتباره ابرز مسجد جامع باشبيلية منذ عصر الامارة وطوال عصري الخلافة والطوائف كما احتفظ بوظيفته ايام المرابطين الى ان اقدم الموحدون على تاسيس مسجد جامع جديد (الخيرالدا) ما زال الجزء الذي سلم منه يثير الاعجاب على المستويين المعماري والفني رغم شمولية التشويه الذي تعرض له لاحقا خلال قرون الانغلاق الفكري والتعصب الديني على اثر حركة «الاسترداد» المسيحي . راجع بخصوص التدخل المعماري الموحدي : ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ، تحقيق عبد الهادي التازي ، بيروت 1987 ، 396-79.

56 - ولقد سلفت الاشارة الى ان الامير سعيد بن صالح اثناء تاجج القتال بجبل ابي الحسن في مواجهة الجيش الفاطمي الغازي سنة 305 هجرية ، بعث الى نكور يامر باخراج اهله وامواله وكل ما في قصره الى الجزيرة التي بالبحر قبالة مرسى المزمة للابحار بهم نحو الاندلس .

قبالة المرسى. اليس في هذه المعطيات ما يقدم اول نموذج للمدينة الملوكية الدائرة في فلك الحاضرة ؟ وهي الظاهرة التي سرعان ما تالقت خلال القرن اللاحق باندلس الخلافة باتخاذ مدينتي الزهراء[57] والزاهرة المصاقبتين لحاضرة قرطبة .

سرعان ما اصبح مرسى نكور الواقع في بطن جزيرة تعرف بالمزمة على بعد خمسة اميال من الحاضرة بمثابة النافذة الاساسية الى مختلف الآفاق والقلب المحرك للعمران بمجموع السفوح المشرفة على الفحص . اسفر ذلك عن انتظام العمارة حول المرسى وامتداد البناء محدقا بالمسجد المنارة مشكلا مدينة قائمة المعالم دائرة في فلك الحاضرة ، وهي المعروفة في المصادر العربية بالمزمة [58] نسبة للجزيرة السالفة . ومن اقدم الروايات التي تشير ضمنا الى هذه المعلمة العمرانية رواية عيسى بن احمد الرازي[59] . ومن المعلوم ان ابن حوقل[60] الذي يبدو انه قد زارها وركب منها الى الاندلس حوالي منتصف القرن الرابع الهجري قد نص عليها بالحرف باعتبارها ابرز محطة بحرية على طول الشاطئ المتوسطي بين مدينتي مليلة وسبتة .

---

57 - والجدير بالملاحظة انه على غرار المزمة التي كانت دارا للتجار والعامة لم يتردد الخليفة عبد الرحمن الناصر على المناداة في عموم الاندلس مشجعا العامة والتجار على تعمير الزهراء التي اشتهرت هي الاخرى الى جانب قصورها وتحفها بما كان بها من الاسواق والارباض . على عكس غيرهما من المدن الملوكية Ciudades Palatinas ذات الطابع الارستقراطي او العسكري مثل زاهرة المنصور بقرطبة وسامراء المعتصم ببغداد .

58 - لمزيد من التفاصيل عن تطورها التاريخي وموقعها وامتداداتها ضمن الطبوغرافية المحلية وعن المشاكل التي يواجهها السبر الاركيولوجي والتنقيب الاثري بالمنطقة راجع : Patrice CRESSIER, *Prospection*, op.cit, pp. 138 - 43

59 - انظر : ابن حيان ، المقتبس 5 ، 413 .

60 - المصدر السابق ، 78 . ومما يؤشر على زيارته لها كونه من جهة قد دخل قرطبة قادما من العدوة ثم لقوله : « هذه جملة احوال المدن المشهورة والمراسي والقرى العروفة على بحر المغرب من حد برقة الى البحر المحيط مما انتهيت اليه وادركته بالعيان او اخذته عمن نشا فيه » ، نفسه ، 83. ولقد سلفت الاشارة الى تقويمه عمران حاضرة بني صالح بالقول : نكور مدينة مقتصدة في وقتنا هذا وكانت قديما اعظم، مما ينم عن معاينتة الميدانية لها. وهو ما اكده ياقوت الحموي بوضوح ، المصدر السابق ، ج1 ، 262 في سياق حديثه عن نكوراذ قال : ان «ابن حوقل التاجر الموصلي كان قد طوف البلاد وكتب ما شاهده».

وباخضاع رواية ابي عبيد الله البكري[61] للتحليل ما يفصح عن الجذور الاولى التي كانت وراء شهرة المزمة في الآفاق اذ قال : وبعد سنة عشر واربعمائة « رجع بنو جرثم الى بلد نكور وهي مدينة المزمة ثن غلب على بلد نكور يعلى بن الفتوح الازداجي واخرجوا بني جرثم من جميع نكور» . ومعلوم ان مدينة نكور قد تعرضت قبل هذا التاريخ لتخريب شامل وغدت كما سلف الذكر بلاقع تعوي فيها الذئاب منذ سنة 319 هجرية . واضح ان البكري لم يقصد ضمن هذا السياق مدينة نكور بل البلد والامارة ، وهو ما نص عليه تصريحا، مما يكشف ضمنيا عن انعكاس شهرة المزمة التابعة بخراب نكور الحاضرة . من ثم يتجلى الخطا ليس في مسالك البكري كما ذهب احد الدارسين [62] بل في التعديلات المقترحة على النص الاصلي المعتمد . ولعل في اقدام الزهري [63] على اثبات مدينة نكورفي نفس السياق الى جانب «مدينة المزمة» باعتبارهما من ابرز المراكز الحضرية بالساحل المتوسطي ، ما يكشف عن اعتماده - وان لم يصرح بذلك - على مصادر سابقة للقرن الخامس الهجري . ينطبق نفس الشيء على احدى روايات الجغرافي الشهير الادريسي [64] الذي سرعان ما يعود في مكان آخر تارة الى الخلط بين نكور والمزمة وطورا الى الخلط بين نكور ومرسى بوزكور الواقع على بعد عشرين ميلا الى الغرب .

ويتجلى الارتباك واضحا في عدد من النصوص التي اثبتها ابن عذاري [65] الذي صرح بدون تحفظ ان «نكور هي المزمة» ليعود في مكان آخر الى الشك في صحة ما اثبته والاستدراك بالقول : « نكور وهي في وقتنا هذا مدينة المزمة او قريبا منها »[66] . بينما يكتفي ابن سعيد[67] بذكر المسافة البحرية من «باديس الى المزمة» دون الاشارة لنكور .

---

61 - المصدر السابق ، 99 .

62 - جاك كاني ، المرجع السابق ، 149 .

63 - المصدر السابق ، 113 .

64 - المصدر السابق ، 527 اذ يذكر في سياق احصاء مدن الساحلية بشمال المغرب الاقصى: « طنجة سبتة نكور وبادس والمزمة ومليلة» ليعود بعدئذ الى الخلط انظر: نفسه ، 533 .

65 - المصدر السابق ، ج1 ، 255 .

66 - نفسه ، ج1 ، 180 .

67 - المصدر السابق ، 139 .

ينطبق نفس الشئ على غيرها من الروايات[68] التي اقتصرت على ذكر مدينة المزمة مع اغفال الحديث عن نكور وعما يتعلق بها من اخبار. وينفرد مؤرخ الموحدين البيدق[69] برواية تنسب للخليفة الموحدي عبد المومن تغيير اسم «مدينة المزمة» لدى دخوله اليها بوسمها باللسان البربري : تاغزوت ان زالوط[70] .

ولعل في اندثار نكور بصفة نهائية خلال نهايات القرن الخامس الهجري «فلم تعمر بعد»[71] مع استمرار تالق المزمة بعدئذ طوال القرون اللاحقة ، ما ادى الى اندراج الاولى في طي النسيان وتقمص الثانية لما استمر حيا في الذاكرة من اخبار الحاضرة الصالحية . وهو ما عبر عنه ابن خلدون[72] في عبارة مقتضبة دالة بالقول : ان «مدينة نكور...هي التي تسمى لهذا العهد المزمة». من الطبيعي والحالة هذه ان ينعكس هذا الخلط في روايات المتاخرين ممن لم يعمد الى توثيق مصادره بهذا الخصوص فدمج النصوص المتعلقة بالحاضرتين في سياقات اخبارية متداخلة ، كما هو الشان في روايات الحسن الوزان[73] ومارمول كربخال[74] وغيرهما[75] .

---

68 - انظر: الادريسي ، المصدر السابق ، 581 ؛ محمود مقديش ، المصدر السابق ، ج1 ، 99 .

69 - انظر: ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج4 ، 100.

70 - تصحيح وفي الاصل ناغروت . و«تاغزوت» كلمة امازيغية شائعة على طول بلاد المغرب وعرضها ويقصد بها غالبا المنحنيات الزراعية الخصبة الواقعة خاصة على مجاري الانهار الفيضية . «زالوط» تصحيح كذلك للكلمة الواردة في الاصل : «والوط» وهي قراءة ممكنة ايضا ، اذ ان الكلمة امازيغية نحصل عليها بتصغير وتانيث كلمة «ازرو» اي الصخر و«تازروت» الصخرة و «تازلوط» الصخرة الصغيرة وهو ما ينطبق في المعنى مع المزمة التي تتخذ شكل جزيرة صخرية قبالة المرسى عند نهاية فحص نكورالفيضي . وعن مواقع اخرى ببلاد نكور التي تحمل اسم تازروت راجع : البادسي، المصدر السابق ، 58 . الا ان مجموع هذه القراءات الممكنة لا تسمو الى مستوى الحقيقة .

71 - ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، 247 .

72 - نفسه ، ج6 ، 284 .

73 - المصدر السابق ، ج1، 255 -56 .

74 - المصدر السابق ، ج2 ، 244 -45 .

75 - عبد العزيز بنعبد الله ، معلمة المدن والقبائل ، ضمن الموسوعة المغربية للاعلام البشرية والحضارية ، مطبوعات وزارة الاوقاف والشوون الاسلامية ، الرباط ، 1977، 365

حقيقة ان المصادر المتاحة تكاد تصمت عن ايراد التفاصيل المرتبطة بنشاة مدينة المزمة وتطورها العمراني خلال عصر بني صالح. مع ذلك لا تعوز القرائن الدالة على تحولها منذ تاسيس نكور وطوال القرنين الثالث والرابع الهجريين الى ابرز ميناء بحري على طول الساحل المتوسطي . ساعد على ذلك موقعه ضمن خليج [76] اضافة للحماية التي تضمنها من جهة البحر جزيرة المزمة التي تكون مع الجزيرتين الصغيرتين المصاقبتين من جهة الغرب حاجزا طبيعيا ضد التيارات البحرية والرياح العاتية[77].

وليس ادل على مدى ضخامة مرسى المزمة في عهد بني صالح مما اورده عيسى بن احمد الرازي على لسان موسى بن ابي العافية في رسالته الجوابية للخليفة الاموي عبد الرحمن الناصراذ قال : «ورد علينا الاسطول المنصور وحل بمدينة نكور»[78]. ولقد سلفت الاشارة الى ان هذا الاسطول الضخم بلغت «عدة مراكبه اربعين قطعة وعدد ركابه ثلاثة آلاف رجل»[79]. الا ان القيمة الحقيقية لمرسى المزمة لا يكمن فقط في قدرته على استيعاب المراكب الضخمة بل وخصوصا في تمكن دوره كابرز محطة تجارية بمجموع الحوض الغربي للبحر المتوسط ، على الاقل الى حدود القرن الرابع الهجري وقبل تاسيس مرسى المرية بالضفة الاخرى .

ولدينا في شهادة ابن حوقل التي لا تخفى قيمتها باعتباره تاجرا وجغرافيا ورحالة ما يفصح ضمنا عن كثافة الحركة التجارية بمرسى المزمة الذي كانت «ترسى فيه المراكب»

---

76 – ويعرف اليوم بخليج الحسيمة تحميه من جهة الغرب الاجراف الصخرية الممتدة على ارتفاع ملحوظ ومن جهة الشرق الجون الداخل في البحر والممتد الى «طرف تغلال» المعروف اليوم براس الطرف او راس سيدي شعيب .

77- من المفيد الانتباه الى انه بالاضافة للجزر الصخرية الثلاث المتجاورة قبالة مدينة المزمة هناك صخرتان صغيرتان داخل الميناء الحالي لمدينة الحسيمة اشركتا بالرصيف البحري اضافة لصخرة ثالثة مجاورة واقل اهمية تعرف لدى اهل البلد بـ «بيذرا ميرو» التي يبدو انها قد تعرضت مرارا للتفتيت ، مما يكون في المجموع ست جزر صخرية . على هذا الاساس ندرك ان هذا الساحل الصخري هو المقصود قديما في مسالك انطونان السالفة الذكر: Ad sex insulas

78 – انظر : ابن حيان ، المقتبس 5 ، 413 .

79 – نفسه ، 382 .

على حد قوله . ولا يخالجنا شك في ان المقصود مراكب التجار المسفرة للبضائع من والى ابعد الافاق . مصداق ذلك رواية شيخ المؤرخين ابي مروان بن حيان [80] التي تشير لكثرة من كان يقيم بالمزمة من «اصحاب السلامة من التجار» .

من الطبيعي في ظل هذا الوضع ان تتعدد الخطوط البحرية الرابطة بين العدوتين المغربية والاندلسية عبر مرسى المزمة . ابرزها على الاطلاق الخط المباشر نحو مالقة الذي يستغرق «مجرى يوم بالريح الطيبة المعتدلة» [81] . ومن المزمة كان «يعبر ايضا الى بجانة» [82] التي اشتهرت بساحل الاندلس القبلي باعتبارها «فرضة لاهل العدوة» [83] . وفي خطوط اخرى كانت المراكب المحملة باصناف البضائع تبحر من المزمة الى مرسى «بزليانة» [84] والى غيره من المراسي الاندلسية «بساحل البيرة» [85] واعمال رية مثل مرسى مرية بلش المعروفة ايضا بكونها «مرسى يركب منه الى بلاد البربر في العدوة» [86] . وبالمثل ، فمن المراسي الاندلسية التي «تقابل المزمة فرضة المنكب» [87] التي سبقت الاشارة الى نزول عبد الرحمن بن معاوية بمرساها عند دخوله الاندلس في ربيع الاول من سنة 138 هجرية [88] .

والجدير بالملاحظة ان الرحلات البحرية بين العدوتين كانت تتم ايضا عبر بقية المراسي المتناثرة على طول ساحل امارة بني صالح [89] . فمن مرسى تمسامان يكاد يكون

---

80 - المقتبس 5 ، 414 .

81 - الادريسي ، المصدر السابق ، 581 ؛ ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج 1 ، 175 ؛ البكري ، المصدر السابق ، 97 ؛ ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، 285 .

82 - الاصطخري ، المصدر السابق ، 34 .

83 - ابن حيان ، المقتبس ، نشر ملتشور انطونيا ، 53 .

84 - ابن خلدون ، العبر ،ج6 ، 284 . وبزليانة قرية على بعد ثمانية اميال من مالقة . لمزيد من التفاصيل راجع ، الحميري المصدر السابق ، 92 .

85 - ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج2 ، 41 .

86 - ياقوت الحموي ، المصدر السابق ، ج 5 ، 120 . والمقصود هنا بلش او بليش بالياء ايضا الواقعة في احواز مدينة مالقة من كورة رية . انظر : المقري ، المصدر السابق ، ج3 ، 219

87 - ابن سعيد ، المصدر السابق ، 140 .

88 - راجع ، الحميري ، المصدر السابق ، 548 .

89 - راجع بهذا الخصوص : البكري ، المصدر السابق ،91 ، 99 .

العبور منتظما خلال المواسم الملائمة نحو طنيانة المقابلة بالضفة الاخرى من بر الاندلس . وتكشف المصادر المتداولة عن داب اهل البلد على ركوب الغدير من مرسى كرط الواقع الى الشرق من تمسامان في اتجاه بلش في رحلة تستغرق «يوما وليلة» . ولم تكن المسافة من مليلة والمراسي المجاورة في جون هرك في اتجاه شاط والمنكب وشلوبينية اطول مدة ، اذ لا تتجاوز في الغالب الاعم «مجرى ونصف»[90] .

تجدنا اذا امام اكثف حركة في تاريخ المواصلات البحرية بين الضفتين كفيلة بجعل الغدير الفاصل بين القارتين الى حدود منتصف القرن الخامس الهجري حقلا متميزا للتفاعل والتواصل والتبادل . وهو ما عبرعنه احدهم في لفظة مقتضبة دالة بالقول معللا ذلك «بقرب المزار وكثرة السفار وترددهم اليهم وتكررهم علينا»[91]. وهي الحقيقة التي اشار اليها محمد بن خزر[92] امير زناتة سنة 319 هجرية بكشفه عن كثرة ما كان بساحل العدوة المغربية من«المراسي التي تقابل مراسي الاندلس وهي منتظمة بها قريبة منها.

ان في هذه المعطيات ما يدعو الى التحفظ من الفكرة الشائعة في جزء هام من الدراسات الاروبية حول النشاط البحري العربي الاسلامي الوسيط، اذ عادة ما دابت على نعته بالقرصنة البحرية[93] . ويبدو ان هجمات المجوس النورماندية الشهيرة وغارات اهل بجانة وجماعات البحريين على سواحل بلاد الفرنجة قد كان لها ابلغ الاثر في ترسيخ هذا التصور الذي لا ينطبق مع الحقائق التاريخية.

الا ان السبب الاعمق الكامن وراء عدم التحفظ في تعميم هذه التصورات يكمن من جهة في فقرالمعارف التاريخية المتعلقة بالنشاط البحري في بلاد المغرب خلال الفترة

---

90 - تناول احد الدارسين العلاقات التجارية وخطوط المواصلات بين العدوتين في موضوع لا يضيف جديدا انظر: Enrique GOZALBES GRAVIOTO,"Algunos datos sobre el comercio en época Omeya", *Revista Sharq al-Andalus*, núm. 8,1991.

91 - المقري ، المصدر السابق ، ج 3 ، 159 .

92 - انظر : ابن حيان ، المقتبس ، ج5 ، 301 .

93 - انظر على سبيل المثال الدراسة التي انجزت اخيرا في الموضوع : Christophe PICARD, *La Mer et les musulmans d'occident au Moyen -Age, VIII-XIII siècles*, Paris 1997, pp. 9- 20 et 132- 36.

السابقة للقرن الرابع الهجري، ومن جهة اخرى في الجهل بترسانة الاحكام والشرائع المنظمة للملاحة فيما بين مكونات دار الاسلام ، وفيما بين دار الاسلام والمستامنين من دار الحرب وفيما بين دار الاسلام واهل الصلح من دار الحرب ، وفي حالات الهدنة وحالات الحرب، ومع الحربيين ياتون لغير امان ، الى ما يند عن الحصر من الحالات الخاصة المفصلة ضمن كتب الاحكام او المشار اليها في شكل بصمات كاشفة ضمن سياقات متناثرة في كتب التاريخ [94].

واضافة لمرسى كرط [95] الواقع على مرحلة من خمسة عشر ميلا شرق مرسى تمسامان ويتعلق الامر بميناء موسمي غير مكن للمراكب المختلفة اليه ، تناول البكري [96] بالذكر مرسى طرف هرك الذي «تشتي فيه المراكب الصغار» على بعد عشرة اميال اخرى الى الشرق ، يليه بعد الجون الفاصل الداخل في البحر «مرسى مليلة» [97]. واخيرا «مرسى ملوية»

---

94 - انظر على سبيل المثال لا الحصر : ابن حيان المقتبس 5 ، 454 ؛ ابن رشد ، المصدر السابق ، ج3 ، 1620 ؛ ابن المناصف ، المصدر السابق ، 215 ، 300-301 .

95 - البكري ، المصدر السابق ، 99 ؛ الادريسي ، المصدر السابق ، 533 . ويحدد الادريسي المسافة من طرف تغلال الذي يدخل في البحر كثيرا الى مرسى كرط في 20 ميلا . يضيف محمود مقديش ، المصدر السابق ، ج1 ، 99 ان «بشرقي كرط واد ياتي من جهة صاع» ويقصد الوادي الجاف الذي ما زال يحمل اسم وادي كرط ، مما يحدد موقع المرسى على الضفة اليسرى الى الغرب من المصب.

96 - المصدر السابق ، 99 .

97 - نفس المصدر والصفحة ؛ ابن حيان ، المقتبس 5 ، 382 ؛ ابن حوقل ، المصدر السابق ، 61 .

98 - البكري ، المصدر السابق ، 90 . حيث اتخذت لاحقا «مدينة تافرجنيت وهي ساحل جراوة» حسب البكري ، نفسه ، 88 . مع العلم انه الى حدود عشرينات القرن الرابع الهجري كان «مرسى جراوة معروف باكاس» انظر : ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج1 ، 194 اوا «اكاى» ؟ والمرجح انه الاسم الاقدم لهذا الموقع . ولا يستبعد ان يكون اكاس هو بالذات الموقع المذكور في عدد من المصادر مرسوما احيانا اكاى واخرى الكاي الذي كان بمثابة قلعة حصينة اتخذ بها موسى بن ابي العافية سجنا منيعا لخصومه ، انظر: ابن ابى زرع ، المصدر السابق ، 81 – 82 ، البكري ، المصدر السابق ، 126 ، ابن الخطيب ، اعمال الاعلام المصدر السابق ، 213 . مع العلم ان ثمة مواقع في اماكن اخرى من المغرب الاقصى تحمل نفس الاسم . مما يدعو الى بعض التحفظ بهذا الخصوص .

[98] قبالة الجزر المعروفة ايضا «بجزائر ملوية»[99] غربا من مصب النهر الذي يسمى ايضا بـ«وادي اجرسيف»[100]. وقد سلفت الاشارة الى مينائي الدار واوفتيس باعتبارهما من مراسي تمسامان ، اذ يقعان على ساحل جبل ابي الحسن الى الغرب من مصب الوادي الكبير .

ولا تقل اهمية المراسي الواقعة غربي مدينة المزمة على طول السفوح والاجراف الساحلية في اتجاه بلاد غمارة . عبر عن ذلك المؤلف المجهول [101] بالقول :«ويجاور مدينة نكور جبل غمارة وتحته مراسي كثيرة» اقربها الى حاضرة بني صالح «مرسى بقوية»[102] ، نسبة للبلد الذي يحمل نفس الاسم بالمنطقة[103] . والغالب على الظن ان مرسى بقوية هو الذي اصبح معروفا في المصادر المتاخرة باسم مرسى بوزكور[104] على بعد عشرين ميلا غرب المزمة . وقد سلفت الاشارة الى ارتباك الادريسي[105] بخصوص ما قدمه عن هذا المرسى من اخبار متارجحا بين الاقرار تارة بان بوزكور«كانت مدينة فيما سلف لكنها خربت ولم يبق منها رسم» وطورا بالقول « كانت به قرية عامرة ومرسى توسق المراكب منه» . لا شك في ان السياق الاول في اقراره بصفة المدينة الخربة يتعلق بالحاضرة المندثرة نكور ، بينما يحيل النص الثاني في الغالب على التجمع القروي المتمركز حول مرسى بوزكور الذي نحن بصدده.

وفي نفس السياق يتناول ابو عبيد الله البكري [106] بالذكر «مرسى باديس» ، مما يدل على انضوائها ضمن الشبكة الحضرية لامارة بني صالح وارتباطها بحاضرتهم نكور. يتاكد ذلك من خلال رواية المقدسي[107] المفصحة هي الاخرى عن وجود مرسى بهذا الاسم قبل القرن

---

99 - انظر : ابن القاضي ، المصدر السابق ، 341 .
100 - الادريسي ، المصدر السابق ، 534 .
101 - كتاب الاستبصار ، 136 .
102 - البكري ، المصدر السابق ، 90 .
103 - انظر : البادسي ، المقصد الشريف، تحقيق سعيد اعراب، الرباط 1993 ، 91 ، 93 .
104 - الادريسي ، المصدر السابق 533 ؛ محمود مقديش ، المصدر السابق ، ج1 ، 99 ؛ البادسي ، المصدر السابق ، 121 ، 123 .
105 - المصدر السابق ، 533 .
106 - المصدر السابق ، 90 .
107 - احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ليدن 1967، 221 .

الخامس الهجري بكثير . ومما يؤكد ذلك رواية الجغرافي المغربي المجهول[108] التي تربط في نفس السياق بين المدينتين بالقول :«ويجاور مدينة نكور جبل غمارة وتحته مراسي كثيرة منها مرسى باديس، عليه عمارة كثيرة من البربر». ينطبق نفس الشيء على اللائحة التي ضمنها الزهري[109] اهم المراكز الحضرية الممتدة من مليلة الى طنجة ، اذ ينص ملتزما الترتيب التالي :«مدينة نكور ويقال انها من بنيان الجبابرة ومدينة المزمة ومدينة بادس». وفي لائحة مماثلة يضعها الادريسي[110] في المرتبة الثانية بعد الحاضرة بالقول : «ونكور وبادس والمزمة» .

ويقدم الزياني[111] - الذي سبقت الاشارة الى انفراده بمعلومات فائقة الاهمية قلما نجدها لدى غيره ممن ارخ لامارة بني صالح - نصا مؤكدا على ان «مدينة بادس اسسها امير لواتة الذي كان مع ادريس واسمه بادس عام تسعين». والمقصود هنا ادريس بن صالح بن منصور واضع اسس حاضرة نكور كما سلف الذكر . ولعل فيما اوردته بعض مصادر العصر عن فروع وعصائب لواتة[112] ما يشجعنا على الاقرار بصحة هذه الرواية مع بعض التحفظ بخصوص تاريخ التاسيس الذي لا ينسجم مع فترة حكم ادريس بن صالح . وعلى عكس ما قد يتبادر الى الذهن ، ففي عدم الانسجام بين متن هذا النص والسياق التاريخي العام ما يقوي بشكل ملحوظ مصداقية هذه الرواية ، علما بما سلف تفصيله بخصوص ارتباك الروايات المتضمنة في اقدم المصادر المعتمدة بين مؤسس الامارة صالح بن منصور ومؤسس الحاضرة سعيد بن صالح . وعلى الرغم مما قيل عن الاصول القديمة لمدينة بادس وامكانية تطابقها مع موقع بريبتينا Parietina المذكورة في مسالك انطونان ، فالراجح حسب المؤشرات المعتمدة في هذا العمل انها مدينة اسلامية المنشا ، مرتبطة في

108 - الاستبصار ، 136 .

109 - المصدر السابق ، 113 . والجدير بالذكر ان الزهري يحيلنا في هذا السياق على مصدر معلوماته بالقول : «ذكر ابن الجزار في عجائب البلدان».

110 - المصدر السابق ، 527 .

111 - المصدر السابق ، 79 .

112 - نذكر منهم حسب رواية ابن حوقل ، المصدر السابق ، 106 ، بني ورياغل وبني عمرت وبني زوراغ .

اصولها بامارة بني صالح . مع ذلك ، فلا مناص من الاقرار بان معظم ما لدينا من معلومات عن مدينة بادس تتعلق بالحلقات المتاخرة [113] من تاريخها الوسيط بعد افول نجم بني صالح وخراب حاضرة نكور .

والراجح ان اهم مرسى على الاطلاق بمجموع الساحل الغربي طوال عصر بني صالح هو «بالش مرسى صنهاجة وغيرها» [114] . واعتبارا لما سلف ذكره عن القاعدة القبلية المؤسسة لامارة نكور المكونة من عشائر صنهاجة وغمارة ، ندرك اننا امام المرسى الذي يشكل الملتقى البحري للمجموعتين القبليتين . وتكمن اهمية المرسى في دوره كمنفذ لمجموع الكتلة الجبلية المجاورة التي تحتضن احدى ابرز مناطق انتاج خشب الارز بالحوض الغربي للبحر المتوسط . وليس ادل على شهرة بلش في ابعد الآفاق من اقتصار المقدسي[115] على ذكره مقرونا بالحاضرة ، اذ نص عليهما في اكثر من سياق بالتتابع كالتالي :«نكور، بلش».

ولا تعوز الدلائل الكاشفة عن عدد من المواقع التي تحمل نفس الاسم بالعدوتين المغربية والاندلسية ، بل وكذا بالساحل المتوسطي لبلاد الفرنجة[116] . نخص منها بالذكر بلش مالقة المشهورة بجودة تينها[117] وتعرف ايضا باسم «مرية بلش»[118] . وثمة موقع آخر ذو اصول قرطاجية قديمة يحمل اسم بالش في مجاز الباب بفحص مرناق بافريقية[119] .

113 - لمزيد من التفاصيل عن هذه الحلقات راجع : Patrice CRESSIER, *Prospection*, op.cit, pp. 94-111.

114 - البكري ، المصدر السابق ، 90 .

115 - المصدر السابق ، 57 ، 220.

116 - انظر: ابن حيان ، المقتبس 5 ، 190 ، 367 ؛ ابن دحية ، المطرب في اشعار اهل المغرب ، تحقيق ابراهيم الابياري / جامد عبد الحميد /احمد بدوي ، راجعه طه حسين بيروت 1955 ، 23 .

117 - ذكر المقري ان «تين بليش هو الذي قيل فيه للبربري كيف رايته؟ قال: لا تسالني عنه وصب في حلقي بالقفة.» المصدر السابق ،ج3 ، 219 .

118 - ياقوت الحوي ، المصدر السابق ، ج5 ، 120 .

119 - نقلا عن محمد بن حسن ، « الاوضاع العقارية بفحص مرناق في العصر الوسيط» النص المرقون (لم ينشر بعد)، ص 2 . يضيف المؤلف بان موقع بالش القديمة يعرف حاليا بسيدي مدين بتونس .

لعل في هذه المعطيات ما يفصح عن الاصول القديمة لبالش صنهاجة ببلاد نكور، التي تمتاز بموقعها داخل خليج شبة مغلق ومحمي بشكل جيد من الرياح والتيارات البحرية بواسطة جزيرة صغيرة ومكسر من النتوءات الصخرية . مما يدعو الى تكثيف البحث الاثري والمعاينات الاركيولوجية للتحقيق في اصوله التاريخية القديمة واعادة تركيب ما يمكن من العناصر الدالة عن دوره خلال عصر بني صالح .

وتتجلى قيمة مرسى بالش ووظائفه في الملاحة البحرية بالحوض الغربي للمتوسط خلال العصور الوسطى من خلال نص للبادسي [120] يذكر اضطرار مركب تجاري كبير قادم من اشبيلية في اتجاه وهران الى التوقف ببالش للاحتماء من تعاظم النوء وهول البحر . والغالب على الظن ان بلش او بالش هو الاسم الاصلي القديم لهذا المرسى الذي تعرض للتصحيف منذ العصر الوسيط المتاخر، ان لم يكن منذ سقوط امارة بني صالح [121]، مع ما اسفر عن ذلك من خراب عمراني ونكوص حضاري بمجموع المنطقة .

ولا تعوز المؤشرات الدالة على اهمية مراسي امارة بني صالح وخاصة ميناء المزمة باعتباره محطة محورية ، ليس فقط للابحار في اتجاه الاندلس بل وكذلك للتسفير في خط بحري مباشر نحو مدينة سبتة ، ومنها الى ازيلة ثم الى السوس الاقصى [122]. ومن المعلوم ان ثمة طريقا برية كانت «تاخذ من فاس الى البصرة ستة مراحل ومن فاس الى ازيلة ثمانية مراحل» [123]. من ثم لا يستبعد ان تكون احدى اهم حواضرالمنطقة خلال هذه الفترة المبكرة من تاريخ المغرب على اتصال مباشر بحاضرة نكور، ويتعلق الامر بمدينة البصرة المعروفة في

---

120 - المصدر السابق ، 106 .

121 - والراجح ان بلش قد استحالت بتغيير الباء ياء الى ياليش كما يتجلى من خلال المصادر المتاخرة ، انظر : البادسي ، المصدر السابق ، 95 ، 103 ، 106 ،111 . ولقد اشارت بعض الدراسات الى الاختلافات المتداولة في اسم الموقع Yallis او Lellech ، انظر: Patrice CRESSIER, *Prospection*, pp. 85-86 واخيرا اصبح يعرف باسم Cala Iris التي ترجمت بدورها الى العربية «قوس قزح». اما اهل البلد فما زالوا يطلقون على الموقع اسم «سيدي يليش».

122 - الاصطخري ، المصدر السابق، 33 ؛ ابن حوقل ، المصدر السابق 61 ؛ ياقوت الحموي ، المصدر السابق ، ج1 ، 272 .

123 - المقدسي ، المصدر السابق ، 247 .

بعض المصادر العربية «ببصرة الكتان»[124].ولقد نعتها احد الجغرافيين القدامى[125] بكونها «مدينة كبيرة واسعة خصبة». يذكر الادريسي[126] ان نهر سندد الواقع على مقربة من مدينة ازيلة فيه كان «يركب اهل البصرة في مراكبهم وامتعتهم حتى يصلوا البحر فيسيروا فيه حيث شاؤوا». ويبدو ان سوقهم كانت نافقة اعتبارا لكونهم على عكس بقية الرفاق «يتبايعون بالكتان»[127] الذي لا تخفى اهميته كمادة مطلوبة في صناعات العصر .

لم تكن المواصلات نحو المشرق اقل كثافة عبر تنس وجزائر بني مزغنا في اتجاه افريقية [128] ومنها الى ديار مصر والحجاز وبقية البلاد المشرقية . ومن المفيد الوقوف عند اهمية تنس في شبكة المواصلات البحرية المنتظمة انطلاقا من حاضرة نكور في شكل محور مثلث القوائم : المزمة - بجانة - تنس . ويشير الاصطخري [129] الي ان «تنس مدينة كبيرة وهي عدوة الى الاندلس ايضا» . وليس ادل على انخراط تنس خلال هذا العهد في نظام نكور التجاري ، من اعتمادها نفس المكاييل والاوزان المعروفة في امارة بني صالح . فاهل تنس على غرار اسواق نكور ، كان «كيلهم يسمى الصحفة»[130] ايضا .

وبرغم الخلافات المذهبية وعلاقات العداء المتاصلة بين نكور والخلافة الشيعية الفاطمية ، يبدو ان المهدية قد اصبحت بعد تاسيسها محطة وسطى في المواصلات البحرية

---

124 - الحميري ، المصدر السابق ، 108 .

125 - الاصطخري ، المصدر السابق ، 34 .

126 - المصدر السابق ، 530 .

127 - مجهول ، الاستبصار ، 189. لمزيد من التفاصيل عن مدينة البصرة وخرابها سنة 378 هجرية راجع : ياقوت الحموى ، المصدر السابق ، ج1 ، 440 - 41 . ومن المفيد بهذا الخصوص الاشارة لنص هام ورد لدى ابن حزم ، الجمهرة ، 154 يتناول فيه بالذكر بعض العشائر العربية التي استوطنت مدينة البصرة ثم انقرضت ، كما يتناول بعض الفروع التي هاجرت منها الى مدينة فاس .

128 - ابن حوقل ، المصدر السابق ، 60 ؛ ياقوت الحموي ، المصدر السابق ، ج 1 ، 262 .

129 - المصدر السابق ، 34 .

130 - البكري ، المصدر السابق ، 62 .

بين بلاد نكور والمشرق [131] . مع ذلك ، فجميع المؤشرات تدل على مكانة «مدينة تيهرت» [132] المتميزة كحلقة مركزية في المواصلات البرية بين نكور وافريقية .

ومما يفصح عن كثافة المبادلات التجارية بين نكور خلال عصرها الذهبي وافريقية ، القطعة النقدية الاغلبية التي تم العثور عليها ببلاد نكور . ويتعلق الامر بدينار ذهبي ضرب سنة 264 هجرية من طرف الامير ابراهيم بن الاغلب [133] . كما عثر بنكور على قطعة ذهبية اخرى ، ويتعلق الامر بالدينار الذهبي الفاطمي ضرب الخليفة المعز لدين الله . ولعل في الاتهامات التي كالها موسى بن ابي العافية لصاحب نكور بكون معظم تحف بلاده تمر نحو بلاد الشيعة ما يؤكد استمرار المبادلات بين البلدين رغم مناخ العداء المتاصل بين الطرفين. ومن المعلوم ان بني صالح قد عمدوا منذ فترة مبكرة الى اقامة دار لضرب السكة بنكور [134] ، وكانت «دراهمهم عدد بلا وزن» [135] . استمرت هذه العملة الفضية سارية المفعول ومتداولة في الاسواق التجارية الى ان قطعها المرابطون سنة ثلاث وسبعين واربعمائة ، باستصدار يوسف بن تاشفين امره بتبديل «السكة في جميع عمله» [136] .

الا ان ازدهار النشاط الحضري وكثافة التواصل البحري الذي ميز علاقات نكور بمختلف الآفاق المذكورة لا يرتبط باستقرارها السياسي وتعاظم دورها في المجالين الاقتصادي والحضاري فحسب ، بل وكذا بمبادرتها في بناء مفاصل بنية تحتية تجارية كفيلة بالربط لاول مرة في تاريخ الغرب الاسلامي بين عالمين : بلاد السودان وحوض البحر الابيض المتوسط بعدوتيه المغربية والاندلسية . ويتعلق الامر بخط القوافل الصحراوية عبر سجلماسة المعاصرة لنكور تاسيسا وتالقا ثم انكماشا .

---

131 – الاصطخري ، المصدر السابق 33.

132 – المقدسي ، المصدر السابق ، 247؛ الاصطخري ، المصدر السابق ، 37؛ ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج 1، 175؛ ابن خلدون ، العبر ، ج 6، 285.

133 – Guillermo GUASTAVINO GALLENT, "Las Monedas árabes de la biblioteca general de Tetuán", *Tamuda*, año V, semestre II, Tetuán 1957, p.

134 – Evariste LEVI-PROVENCAL, *Histoire de l'Espagne Musulmane*, TIII, p. 253.

135 – البكري ، المصدر السابق ، 91.

136 – ابن ابي زرع ، المصدر السابق ، 143. انظر كذلك ، الناصري ، المصدر السابق ، ج 2، 32.

وليس مصادفة ان يتم تاسيس الحاضرتين خلال نفس المدة تقريبا حوالي نهايات العقد الرابع وبدايات العقد الخامس من القرن الثاني للهجرة . ومنذ ذلك الحين دشنت الطريق التجارية الرابطة بين سجلماسة ونكور عبر خمس عشرة[137] مرحلة موفرة لامارة بني مدرار الصفرية امكانات الانفتاح في اقصر خط عبر المزمة نحو اسواق الحوض الغربي للبحر المتوسط . ولقد سبق لاحد الدارسين[138] ان نبه الى ظاهرة تغليب المصالح الاقتصادية على الخلافات المذهبية في علاقات مجموع الامارات المفارقة التي هيكلت الخريطة السياسية والمذهبية ببلاد المغرب خلال القرن الثاني للهجرة .

والغالب على الظن ان طريق سجلماسة - نكور - المزمة استمرت بمثابة الطريق الرئيسية للقوافل الصحراوية من بلاد السودان عبر سجلماسة الى الاندلس الى حدود الهجوم البحري السالف الذكر الذي جرده عبد الرحمن الناصر بالاسطول ضد نكور . ولعل فيما اورده ابن عذاري[139] عن تقديم امير نكور صالح بن سعيد للخليفة عبد الرحمن الناصر سنة 305 هجرية هدية تتضمن «الجمال وغير ذلك» ما يدل عن دور نكور المتعاظم باعتبارها الوسيط في التجارة الصحراوية خلال هذا العهد المبكر من تارخ الغرب الاسلامي . نجد تاكيد ذلك في رواية بالغة الدلالات اوردها شيخ المؤرخين ابو مروان بن حيان[140] واصفا الهدايا التي قدمها صاحب نكور لعبد الرحمن الناصر بمناسة اعلان الخلافة الاموية بقرطبة بكونها نادرة وفريدة لم يتمكن غيره من الملوك التزلف بمثلها ، اذ ناغاهم جميعا «في الالطاف والهدية على تاخره عنهم في سعة العمل واسعاد القدرة» . مع العلم ان نكور كانت تمر في ظل الحصار الفاطمي والاضطرابات الداخلية باحلك فترات تاريخها .

ولا تقل الطرق الرابطة بين نكور وفاس اهمية . لا سيما الخط البري الذي يتوغل في اتجاه «مدينة يقال لها مرحانه على جبل تحتها انهار واودية وعمارات ثم يصير منها الى

---

137 - المقدسي ، المصدر السابق ، 247 . نثبت على سبيل المقارنة نص الاصطخري ، المصدر السابق ، 37 بان الطريق «من تاهرت الى سجلماسة نحو 50 مرحلة».

138 - محمود اسماعيل ، الخوارج في بلاد المغرب ، 276 - 284 .

139 - المصدر السابق ، ج1 ، 175 .

140 - المقتبس 5 ، 261 .

مملكة ادريس بن ادريس»[141]

وباستقراء مصادر العصر وبعض الكتابات المتاخرة يمكن الوقوف على مجموعة من القرائن الدالة عن اصناف البضائع المتدفقة من بلاد السودان نحو الاندلس . نذكر منها بالاضافة للتبر والذهب[142] والعبيد السود ووخش الرقيق[143] ، «انواعا من جلود الماعز»[144] التي تتخذ منها الخفاف للملوك . ناهيك عن اصناف الجلود الشركية و«درق اللمط»[145] التي تهدى لملوك وامراء الاندلس . وتتواتر المعلومات عن الصندل وعود التصويت و«اصناف

---

141 - اليعقوبي ، المصدر السابق ، 357. لم نتمكن من قراءة رسم هذا الموقع قراءة صحيحة. مع ذلك ، فمن الملاحظ ان المقدسي في سياق حديثه عن مدينة فاس نص عند ذكره ازيلا وسبتة ، على مدينة باسم «مرحاحية». المصدر السابق ، 220 . ومن جهة اخرى ذكر ياقوت الحموي موقعا باسم «جرماية» اذ قال : « ثم تعطف على البحر المحيط يسارا وعليه من المدن قريبة منه وبعيدة جرماية وساوران» المصدر السابق ، ج1 ، 440. ربما يساعدنا تامل وتحليل رسوم هذه المواقع الثلاث في سياقاتها التاريخية واطارها الجغرافي على الاقتراب من حلول ممكنة لهذا اللغز.

142 - الزهري ، المصدر السابق ، 117 ؛ ابو حامد الغرناطي ، المصدر السابق ، 39 .

143 - عن شيوع تجارة الرقيق الاسود بالاندلس الى حدود القرن الرابع الهجري انظر المؤشرات الدالة لدى : ابن العطار ، كتاب الوثائق والسجلات ، نشر بيدرو شالميتا ، مدريد 1973، 55 ؛ الزهري ، المصدر السابق ، 119 . والجدير بالملاحظة ان الرق في المجتمعات الاسلامية قد اتخذ اشكالا متميزة ، اذ هم اساسا القطاعات الغير المنتجة واستمر على هامش الحياة الاقتصادية نشيطا في مجال الخدمات المنزلية و الاعمال الردينة المخصصة عموما لمن اصطلح على تسميتهم في المصادر الفقهية بالوخش . اما القطاع الاهم من العبيد فقد وجه للخدمات الادارية والعسكرية والى مجال الرقص والخط والغناء واصناف الفنون والآداب ...الخ ، وهي مجالات تهم الرقيق الرفيع من الخاصة الذي يتلقى تكوينا عاليا ويتناغى الملوك وعلية القوم في اتخاذهم . من ثم فان وضعية الرقيق في دار الاسلام تختلف اختلافا بينا مع الاشكال المعروفة في المجتمعات القديمة كما تختلف اختلافا تاما مع وضعيتهم المترتبة على تجارة الرقيق التي مارستها بعنف القوى الاروبية خلال العصر الحديث . ويشكل هذا الموضوع احد الغز المواضيع التي تحتاج الى دراسات تاريخية مختصة ومتحفظة من اسقاطات المركزية الاروبية التي ما فتئت تزداد انغلاقا على ذاتها واقصاءا للنماذج المختلفة .

144 - ابو حامد الغرناطي ، المصدر السابق ، 40 .

145 - الزهري ، المصدر السابق ، 118 .

العاج والابنوس وانياب الفيلة»[146] اضافة الى «انواع السوط الذي يجلب لحث الخيل من المغرب»[147] ناعمة الملمس مما يتسابق على اقتنائه الامراء والمتنفذون بالبلاد الاندلسية . ولعل في هذه التفاصيل ما يجسد بعضا من المحتويات والمعاني الفعلية للعبارات الواردة في النصوص السالفة ، مثل : «وغير ذلك» من «الالطاف والهدية» مما داب امراء بني صالح على اتحاف خلفاء بني امية في الاندلس بها .

ولا تقل البضائع المستجلبة من الآفاق الى نكور اهمية ، وهو ما عبر عنه موسى بن ابي العافية في سياق حديثه عن اميرها بالقول :«انه ارفق بالبحر»[148]، بما في ذلك تجارة الرقيق الابيض المجلوب من اسواق النخاسة بالاندلس والموجه لقطاع الخدمات السلطانية . ويعرف هؤلاء في مصادر العصر باسم الصقالبة الذين بلغت اهميتهم الفعلية والعددية بنكور ان اصبح لهم شان في تدبير امور الامارة كما سلف الذكر.

وبصرف النظر عن دور المحاصيل الفلاحية في تنشيط المبادلات التجارية ، فالجدير بالملاحظة ان ثمة عناصر دالة عن مكانة نكور المبكرة في مجال الصناعات الحرفية . اشتهرت لذلك بكثرة ما احتضنته من «اسواق عامرة مفيدة»[149] ، تعج باصناف الحرفيين من العامة الذين بلغت اعدادهم ومكانتهم بالحاضرة ان اصبحوا قوة سياسية متنفذة كما سلف الذكر. لم تقتصر الحرف الصناعية بنكور على تحويل المواد النباتية والحيوانية بل وكذا المعدنية . يتجلى ذلك من خلال المؤشرات المتضمنة في بعض اللقى الاثرية – على قلتها – الدالة على وجود صناعات محلية غير مفهومة اثارت استغراب الدارسين[150]. ولا تعوز الدلائل المصدرية الكاشفة عن اهمية الاستخراج المعدني بالمنطقة منذ فترات مبكرة. نذكر

---

146 – نفسه ، 118، 127 ؛ ابن الزبير ، الذخائر والتحف ، تحقيق محمد خميد الله ، الكويت 1959 ، 70 .

147 – ابن بسام ، المصدر السابق ، ق1م2 ، 805 .

148 – ابن حيان ، المقتبس 5 ، 372 .

149 – البكري ، المصدر السابق ، 90 .

150 – انظر : Ahmed MEKNASI, "Reconocimientos", *op.cit*, p.158.

منها فضلا عن اشارة عبد الواحد المراكشي [151] الى «موضع قريب من ساحل البحر يسمى تمسامان فيه معدن حديد»، النص الذي اورده احدهم [152] بخصوص «جبل الحديد» الواقع بمنطقة بطوية في الريف .

والراجح ان نكور قد بلغت خلال القرنين الثاني والثالث للهجرة الغاية بمجموع الحوض الغربي للبحر المتوسط فيما يتعلق بصناعة مواد الترف والمنتوجات الغالية الاثمان مما يتسابق على اقتنائه الامراء والمتنفذون في البلاد المجاورة .لذلك اشتهر صاحب نكور بتنوع ما كان يسفره الى افريقية والاندلس «من طرائف بلده وتحفه»[153]. وليس ادل على صحة هذا الاعتقاد مما تناقلته المصادر التاريخية عما لا يحصى من منتوجات وتحف «الذهب والفضة والسبي والعدة...والاموال العظيمة»[154] التي غنمها المجوس على اثر احتلالهم للحاضرة سنة 244 هجرية / 858 م كما سلف الذكر .

من الطبيعي في ظل هذا الوضع ان يبلغ العمران الحضري ذروة تالقه ببلاد نكور، ليس فقط في احواز الحاضرة وعلى امتداد الشريط الساحلي ، بل وكذا على طول المسالك البرية لا سيما في اتجاه تلمسان وتيهرت والمغرب الاوسط شرقا؛ والى الجنوب الشرقي نحو سجلماسة وابواب الصحراء. ومن ابرز المراكز الحضرية والشبه الحضرية المتداولة في

151 - المصدر السابق ، 362. لا ادري هل هناك علاقة ما بين محتوى هذا النص واحدى التجمعات القروية التي مازالت الى اليوم تحمل اسم «حديد» عند قدم السفح الغربي لجبل ابي الحسن بتمسامان على مقربة من مصب وادي نكور .

152 - احمد بن محمد الشناوي ، كتاب الانساب ، المكتبة العامة الرباط ، رقم 1048د ، ورقة 3ب . ربما يتعلق الامر بالمنجم الذي لم يعد مستغلا والواقع عند راس افراو على مقربة من موقع تزغين الحالي الى الشرق من مصب «اغزار امقران» . عن استغلال مناجم الحديد ببلاد الريف راجع كذلك : Patrice CRESSIER,"Prospection", *op.cit*, p.166 et 172.

153 - ابن حيان ، المقتبس 5، 372.

154 - ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج 2، 96- 97 .

بعض مصادر العصر نذكر فضلا عن «مدينة جراوة»[155] الواقعة على التخوم الشرقية للامارة موقعي «صاع والكدية»[156] اللذين يشكلان مع اجرسيف[157] وتابريدا[158] اهم التجمعات المتناثرة عند المجرى الاوسط لوادي ملوية بالتخوم الجنوبية الشرقية للامارة . كما يتواتر ضمن عدد من السياقات التاريخية المرتبطة بالعصر ذكر «تازى وتسول»[159] باعتبارهما من التجمعات المتحيفة باطراف الامارة .

---

155 - ابن حيان ، المقتبس 5 ، 326 . 382 . 414 . ذكر ابن عذاري «جراوة وهى اشرف مدائن ذلك الجانب» المصدر السابق ، ج 1 ، 194 . ولقد كان لها على بعد اميال مرسى على شط البحر وهو «المعروف باكاس» نفس المصدر والصفحة . والراجح ان جراوة كانت تعرف في البداية باسم «زواغة جراوة» حسب صاحب المقباس انظر: ابن خلدون ، العبر ج6 ، 283 لتقتصر التسمية بعدئذ اختصارا على جراوة فقط . والغالب على الظن ان ابن ابي العيش قد اسسها في موضع مدينة قديمة تدعى «مدينة زواغة» ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج 1 ، 176 . على كل حال فلكلا اللفظين محتوى قبليا في الاصل : جراوة وزواغة .

156 - البكري ، المصدر السابق ، 93 . والكدية هي الترجمة العربية للاسم الاصلي للموقع الذي مازال محتفظا باسمه القديم الى اليوم :«تاوريرت» . اما صاع فهو الذي يسميه المقدسي «صاع مكناسة» نسبة للقبائل الضاربة في احوازه . ويعرف الوادي الجاف الذي يمر بها اليوم وادي «زا» ، بعد تحوير الصاد الى زاي .

157 - انظر : ابن ابي زرع ، المصدر السابق ، 86 ؛ ابن القاضي ، المصدر السابق ، 342 ؛ ابن خلدون ، العبر ، ج6 247 ، الناصري ، المصدر السابق ، ج2 ، 32 .

158 - البكري ، المصدر السابق ، 90؛ ولقد وردت تابريدا لدى المقدسي ، المصدر السابق ، 220 في السياق التالي : «نكور، بلش ، مرنيسة ، تابريدا وصاع مكناسة» . ويخيل الينا ان المقصود بتابريدا او أبريدا : ما تعنيه الكلمة بالظبط في لغة اهل نكور وبربر العدوة اي «هذا الطريق» . والجدير بالذكر ان لفظ أبريدا قد ورد في احد مصادر تاريخ المغرب القديم باعتباره التسمية المتداولة لدى البربر من قدامى اهل البلاد في نعت مجمل الشريط الساحلي المتوسطي من المغرب الاقصى . انظر: Le Géographe de Ravenne, apud. Raymond ROGET, op.cit, p.42. ولا تخفى اهمية ممر تسول وتازة في الانتقال بين المغربين الاوسط والاقصى على مر العصور. وربما لذلك نعتت القبائل الضاربة في هذه النواحي بزناتة تابريدا لتمييزها عن بقية بني عمومتها من العشائر الزناتية المقيمة في غيرها من المناطق المغربية .

159 - انظر على سبيل المثال : اعمال الاعلام ، 213 .

ينطبق نفس الشيء على التجمعات القروية التي لا ندري هل اتخذت كبرياتها منذ هذا التاريخ شكل قرى جامعة[160] . وبصرف النظر عما سلف ذكره عن اولى القرى الموروثة عن العهد السابق للاسلام مثل بدكون و «قرية يقال لها اقطي»[161] بتمسامان ، فمن المفيد الاشارة الى احدى اشهر التجمعات القروية بامارة بني صالح ، ويتعلق الامر بـ « قرية فوق المدينة تعرف بقرية الصقالبة»[162] . والى الجنوب الشرقي على بعد مسيرة يوم من الحاضرة، اوما يمثل مسافة عشرين ميلا من المزمة يوجد موقع بلدة «تسافت»[163] .

ويتجلى من خلال استقراء مضامين عدد من المصنفات الجغرافية القديمة حجم التجمعات الحضرية والقروية التي اندثرت ابتداء من منتصف القرن الخامس الهجري . وما زالت جملة من المواقع تثير صعوبات جمة امام القراءة النصية لرسوم اسماءها فبالاحرى التجرد لتحديد مواقعها ودراسة خصائصها[164] . مما يفصح عن مكانة هذا القرن كحد فاصل بين مرحلتين في تاريخ العمران بمجموع الغرب الاسلامي .

صفوة القول ان جميع القرائن تدل علي ان الحياة الحضرية ببلاد نكور قد بلغت ذروة تالقها حجما وطبيعة خلال الفترة السابقة عن التدخل الاموي الفاطمي بالمنطقة .

---

160 - تتضح اهمية القرى الجامعة في ادارة وتنظيم المجال القروي في الاندلس بوضوح خلال الفترة الممتدة من ثلاثينات القرن الرابع الى حدود ستينات القرن الخامس الهجري . من ثم اصطلح الناس ببلاد المغرب والاندلس على تسمية «كل قرية كبيرة جامعة اقليما» ياقوت الحموي ، المصدر السابق ، ج 1 ، 26 ، 249 .

161 - البكري ، المصدر السابق ، 91 -92 .

162 - البكري ، المصدر السابق ، 93 . والراجح انها عرفت بهذا الاسم بسبب حلول الصقالبة بها ، على اثر فشل ثورتهم بالحاضرة ضد الامير سعيد بن صالح .

163 - تمكننا مؤخرا من الوقوف على موقع تسافت حيث قبر سيدي يوسف وعلي ضمن قيادة اجرماوس بقبيلة بني توزين باقليم الناضور، بمقربة من المدشر المعروف حاليا باسليماتن . والجدير بالذكر ان الموقع ما زال الى اليوم يحتفظ في ذاكرة اهل البلد باسمه القديم: تسافت . كما تحتفظ الذاكرة الشعبية المحلية ببصمات جملة من المرويات القديمة التي تضفي على الموقع طابعا من القداسة والتخوف الممزوج بالاساطير.

164 - انظر : المقدسي ، المصدر السابق ، 219 - 221 ؛ ابن الفقيه الهمذاني ، المصدر السابق ، 80 -81 .

ثانيا : التداعيات و مظاهر الاختلال

لقد تمت الاشارة سابقا الى الاختلالات التي مست في العمق مجمل الاوضاع في بلاد نكور . وبقدرما تجلت في السياسة والفلاحة، اتضحت في العمران ايضا منعكسة في اكثر من مظهر . فبخصوص التحصينات ، يبدو ان حاضرة نكور لم تكن مسورة عند التاسيس والى حدود منتصف القرن الثالث الهجري . فباستثناء قصر الامارة العالي الشرفات المحصن الاسوار، ظلت الاسواق المتحيفة بالمسجد الجامع والارباض الممتدة في تجمع حضري ضخم بعيدا عن المركز في اتجاه سفوح الربى المحاورة ، مفتوحة بدون ادنى تحصين دفاعي . وهو ما سمح للحملة النورماندية من اخذها غرة كما سلف الذكر . ينطبق نفس الشيء على التجمعات القروية المجاورة على طول السفوح الجبلية المشرفة على المدينة او المتناثرة في الفحص الممتد اسفلها في اتجاه شط البحر .

والراجح ان صالح بن سعيد هو الذي تجرد على اثر طرد المجوس لبناء اول سور يحيط بمجموع منشآت الحاضرة ورفع التحصينات الكفيلة بجعلها في منآى من المخاطر الداهمة وترتيب الابواب والمداخل على جهاتها . منذ ذلك الحين اصبحت الحاضرة صعبة المنال ممتنعة عن المهاجمين وعن الثوار المتربصين . يتجلى ذلك بوضوح تام من خلال القراءة في تفاصيل الاحداث اللاحقة . ولدينا في اضطرار قبائل بني ورياغل وكزناية الثائرة تحت قيادة مدعي الامارة ادريس بن صالح الى الوقوف متربصة خارج الاسوار ابرز مظهر على ذلك . ولا غرو ، فلما تدافع الدعي بكلكله «ليدخلها امتنع عليه مخلف صالح»[1] بن سعيد المكلف بحمايتها .

لم تتمكن تحصينات نكور واسوارها من الصمود طويلا، اذ سرعان ما تدافعت القبائل البدوية الضاربة في الاطراف الشبة الجافة تحت قيادة موسى بن ابي العافية الذي لم يتردد عن تخريبها «وهدم اسوارها» وذلك بعد حوالي سبعة عقود مضت على بنائها .

---

1 - البكري ، المصدر السابق ، 92 ؛ ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج1 ، 177 . راجع التفاصيل ضمن الفصل الثاني من هذا العمل .

على اثر ذلك ، لم يجد الامير اسماعيل بن عبد الملك بن عبد الرحمن بن سعيد بن ادريس بن صالح بن منصور الحميري الملقب بالمؤيد بدا من الشروع في ترميم ما تهدم من منشآت في الحاضرة الخربة فـ «عمرها واعاد السوق فيها وسكنها»[2] من جديد . ويقدم ابن الخطيب[3] بهذا الصدد نصا مؤكدا على ذات الحقيقة ، اذ صرح بان اسماعيل المؤيد هذا هو الذي «اداربها السور وحصنها». والغالب على الظن ان هذا السور الثاني هو بالذات الذي تناوله البكري[4] بالذكر قائلا : وسورها من اللبن قد فتحت فيه «اربعة ابواب في القبلة باب سليمان وبين القبلة والجوف باب بني ورياغل وفي الغرب باب المصلى وفي الجوف باب اليهود» .

نتيجة لهذه التحولات البنيوية في الطبيعة المعمارية ، لم تعد نكور كما كانت في سالف عهدها مدينة عظمى . وهو ما عبر عنه ابن حوقل[5] على اثر معاينة الوضعية التي اصبحت عليها خلال منتصف القرن الرابع الهجري بقوله :ان «نكور مدينة مقتصدة في وقتنا هذا وكانت قديما اعظم» .

والجدير بالملاحظة ان ثمة مظاهر كاشفة عن تحولات جوهرية في العمران الحضري ببلاد نكور ابتداء من منتصف القرن الثالث الهجري . ويتعلق الامر بتصاعد اهمية الطابع العسكري الدفاعي في المجال المعماري على حساب المظاهر المرتبطة بالاسواق وبالتجارة والحرف . فليس صدفة ان يعمد الامير سعيد بن صالح على اثر طرد المجوس الى انشاء «محارس»[6] ملحقة بالمسجد الذي بناه عند شط البحر على عدوة نهر غيس . والغالب على الظن ان «حصن مسطاسة»[7] قد اقيم خلال هذا التاريخ ليكون بمثابة محطة للانذار المبكر

---

2 - البكري ، المصدر السابق ، 97 - 98 .

3 - اعمال الاعلام ، 177 . يضيف بان ذلك حدث سنة ثلاث واربعين وثلاثمائة . ولقد سلفت الاشارة الى ما يحمله هذا التاريخ من تناقضات والراجح ان هذه الاصلاحات المعمارية قد انجزت خلال فترة حكم هذا الامير التي حددناها فيما بين سنتي 320 و 323 هجرية .

4 - المصدر السابق ، 90 .

5 - المصدر السابق ، 78 .

6 - البكري ، المصدر السابق ، 91 .

7 - الادريسي ، المصدر السابق ، 532 . ولقد ذكر البكري ايضا مسطاسة باعتبارها من قبائل المنطقة .

ومراقبة مصادر الاخطار البحرية التي غالبا ما كانت تاتي من السواحل الغربية للامارة. ما كان لاستفحال الاضطرابات القبلية والسياسية الداخلية خلال النصف الثاني من القرن الثالث الهجري وكذا التكالب الاموي والفاطمي في موجات عاتية ، تارة من الشرق وطورا من الغرب ، الا ان يعمل على ترسيخ الطابع العسكري الدفاعي في المجال المعماري .

لم يقتصر ذلك على المدن والحواضر بل شمل التجمعات القروية ايضا . نخص منها بالذكر قرية فوق المدينة «تحصن» بها الصقالبة على اثر فشل ثورتهم بالحاضرة . ومما يدل على اهمية ما اقاموه بها من تحصينات واسوار ان الامير سعيد بن صالح لم يتمكن من الظفر بهم الا «بعد حرب شديدة»[8] استمرت حوالى سبعة ايام . ولقد بلغت من المناعة والحصانة ان نعتت من طرف البعض[9] باسم «قلعة الصقالبة». ولعل فيما ذكره اليعقوبي[10] عن كثرة «الحصون» المتناثرة على طول البلاد وعرضها مسيرة عشرة ايام ، ما يبرز ضيق الحدود التي يقف عندها البحث التاريخي والاثري المعاصر المهتم بفترة البواكير .

ومن ابرز الحصون الكاشفة عن مظاهر اختلال البنيات القديمة والاتجاه نحو مراجعة الهيكلة المعمارية وفق معايير واسس جديدة : «قلعة اكرى»[11] ، التي اميل الى الاعتقاد انها بنيت او لربما حصنت واصبح لها شان على راس القرن الرابع الهجري ، وبالذات عند شروع الفاطميين في تهديد حاضرة نكور بارسال الحملات العسكرية بهدف اخضاعها والسيطرة على مجالات نفوذها . والراجح ان ذلك قد تم على يد الامير سعيد بن صالح سنة 304 هجرية ، كما يتجلى من خلال ما شاع من اخبار حول تخليه عن الحاضرة لما علم بتحرك الحلملة العبيدية الاولى فـ«تحصن بجبل هناك يعرف بجبل ابي الحسن»[12] .

حقيقة ان رواية ابن عذاري هذه لا تفصح عن اسم الحصن ، الذي يبدو انه قد اقيم

---

8 - البكري ، المصدر السابق ، 94 .

9 - اعمال الاعلام ، 174 .

10 - المصدر السابق ، 357 .

11 - البكري ، المصدر السابق ، 98 . ومن المفيد التذكير بان اسم هذه القلعة قد ورد لدى ابن خلدون ، العبر ، ج 6 ، 286 باسم «اكدى» بالدال بدل الراء . واكرى بالهمزة المكسورة والكاف المكمكمة المجزومة والراء المخففة النطق مصطلح جغرافي امازيغي باللغة المحلية شائع الاستعمال للدلالة على السفوح والمنبسطات الهضبية .

12 - ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج 1 ، 183 .

بصورة استعجالية على مقربة من معسكر الجيوش العبيدية الذي نزل بموقع تسافت . مع ذلك ، فمن شان القراءة الفاحصة في التفاصيل التي قدمها البكري[13] عن ماجريات المعارك بين الطرفين ، ما يدل على ان الامر يتعلق بحصن فعلي تعلوه الاسوار . والا فكيف نفسر اقدام حمد بن العياش المنحاز الى الجيش العبيدي في «قطعة من العسكر فقصد بها من جانب كان يعلم الغرة به حتى دخل عسكر سعيد من المامن ومن حيث لا يظن ففرق جمعه» واحتل القلعة . فما عسى ان يكون المقصود بالجانب الذي كان يعلم الغرة به ؟

ما كان للاضطرابات السياسية المتلاحقة ولتوالي الهجمات الخارجية برية وبحرية الا ان تدعم هذا المنحى الدفاعي في المجال المعماري ، مما اضطر آل صالح الى الاهتمام بامور التحصين في المواقع الخلفية بجبل ابي الحسن بتمسامان التى عادت من جديد الى الواجهة . اسفر ذلك عن تالق دور قلعة اكرى التي سرعان ما غدت بفضل اسوارها وابراجها بمثابة قاعدة البلد .

وليس ادل على صحة هذا الاعتقاد من اضطرار الامير اسماعيل بن عبد الملك الى مغادرة الحاضرة هو الآخر والتحصن باكرى على اثر ما بلغه من انباء حول تحرك الحملة العبيدية الثانية صوب المغرب الاقصى . لم تقتصر العملية كما في السالف على التحصن في القلعة بالجند والعتاد والذخائر استعدادا للمعركة ، بل وكذا بنقل اهل المملكة من الصحابة والقرابة والنساء والاولاد جملة من نكور الى اكرى[14] ، مما يؤكد صحة الاعتقاد بكونها قد اصبحت بمثابة الحاضرة الفعلية للبلاد .

ولا تعوز المؤشرات الكاشفة عن التحول الذي مس خلال هذا التاريخ العمود الفقري للامارة الذي تزحزح عن نكور والمزمة وفحصهما في اتجاه الشرق نحو مهد بني صالح بجبل ابي الحسن وسفوح «وادي البقر» . مصداق ذلك ما سلف ذكره عن تصاعد الدور السياسي لعشيرة بني يصليتن الذين تمكنوا من تامير موسى بن رومي المقيم منذ مدة عندهم بتمسامان مع غيره من افراد اسرة آل صالح الحاكمة .

لم تقتصر عمليات التحصين ورفع الاسوار على نكور وتمسامان والمناطق المجاورة ،

---

13 - المصدر السابق ، 95 .

14 - راجع : البكري ، المصدر السابق ، 98 ؛ ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، 286 .

بل شملت التخوم والاطراف ايضا . ويبدو ان احواز ملوية السفلى ونواحي مليلة قد اصبحت منذ مدة بمثابة منطقة ثغرية على الحدود الشرقية للامارة ، لذلك عرفت في مصادر العصر بـ«قلوع جارة»[15] ، اشارة لكثرة ما اتخذ بها من قلاع من طرف بني ورتردين المنضوين في سلك الامارة. ولقد سلفت الاشارة الى انحسار نفوذ آل صالح عن هذه المنطقة المضطربة التي سرعان ما غدت ميدانا للتنافس والصراع بين زعيمي العصر المتنفذين بالعدوة المغربية : موسى بن ابي العافية والحسن بن ابي العيش الادريسي .

وتفصح الحوليات التاريخية [16] عن لجوء هذا الاخير الى «مدينة مليلة من نواحي ملوية فتمنع بها »، لتصبح هي الاخرى مع شلل حركة المواصلات وتوالي الفتن مجرد حصن منيع . ينطبق نفس الشيء على مدينة جراوة التي غدت خلال عشرينات القرن الرابع الهجري ، على غرار مثيلاتها من المراكز الحضرية قلعة حصينة [17]. ويكشف ابن خلدون[18] في اكثر من رواية عن التحاق «ابي العيش بنكور واعتصم بالقلعة التي بناها هنالك لنفسه» . واضح ان القلاع والحصون قد اصبحت بمثابة العناصر الاساسية المميزة للمنظر العمراني بعموم المنطقة ، ابتداء من اختلال الامور بامارة نكور .

ومن ابرز المنشآت المتخذة ببلاد نكور خلال هذه الفترة المضطربة ، «بنيان قلعة جارة»[19] من طرف موسى بن ابي العافية خلال سنة 324 هجرية . ومما يثير الانتباه ان هذا الحصن قد بني من طرف فعلة وبنائين استقدموا من الاندلس، بناء على طلب موجه

---

15 - البكري ، نفسه ، 90.

16 - راجع : ابن ابي زرع ، المصدر السابق ، 84 ؛ الناصري ، المصدر السابق ، ج1 ، 187 ؛ ابن القاضي ، المصدر السابق ، 341.

17- راجع: ابن حيان ، المقتبس 5 ، 414 - 15 .

18 - العبر ، ج6 ، 178 . لم يفصح الراوي عن اسم القلعة المقصودة ولا ندري هل يتعلق الامر باعادة بناء مليلة ام ببناء قلعة جديدة بالاحواز الغربية الواقعة في اتجاه حاضرة نكور. وفي رواية ثانية ، نص ابن خلدون ، نفسه ، ج7 ، 103 على ان ابا العيش كر هاربا من موسى بن ابي العافية « الى مليلة وبنى حصنا لامتناعه بناحية نكور فحاصره مدة ثم عقد له سلما على حصنه».

19 - ابن حيان ، المقتبس 5 ، 387 . وذلك في مكان ما من حوض وادي جارة الجاف الذي ما زال الى اليوم يحتفظ باسمه القديم . ولقد سلفت الاشارة الى ان البكري قد ذكر هذا الموقع برسم مخالف كالتالي «كرط» ، ويكتب اليوم احيانا بالتاء «كرت» .

للخليفة عبد الرحمن الناصر القائم بقرطبة . ويحتفظ ابن حيان [20] بنص فائق الاهمية يتعلق بتفاصيل الهندسة المعمارية التي وضعت موضع التطبيق في اشغال بناء هذه القلعة . اذ قال متحدثا عن استجابة الناصر لطلب موسى بن ابي العافية بايفاد العمالين المتخصصين في بناء الحصون :« فاخرج اليه محمد بن وليد بن فشتيق رئيس المهندسين لديه مع ثلاثين بناء وعشرة من النجارين وخمسة من الحفارين وستة من الجيارين المحسنين لعمل الجير وستة من الاشارين لاشر الخشب ورجلين من الحدادين ورجلين من الحصارين تخيروا من حذاق طبقاتهم ، واحتملت لجماعتهم آلاتهم وادواتهم المتصرفة في صناعاتهم التي يحاولونها » .

وثمة قرائن مساعدة على التوطين الجغرافي لهذه القلعة التي انشئت بمنطقة «جارة» لتكون بمثابة القاعدة الخلفية لانطلاق الغارات على بلاد نكور في اتجاه الغرب وارسال الحملات ضد العلويين وحلفاء الشيعة الفاطميين في اتجاة الشرق . الا ان الغرض الاساسي من هذه المنشاة يكمن في جعلها بمثابة الملجا الآمن الكفيل بتوفير امكانات الانطواء عند الهزيمة والمخبا المنزوي للتربص على هامش السكك والمحلات الرابطة بين المغربين الاوسط والاقصى . مصداق ذلك ، وسمها من طرف ابن حيان [21] بالقلعة «التي انزوى اليها» موسى بن ابي العافية بعد نكبته الشهيرة . وفي عبارة الاستلطاف التي خاطب بها هذا الاخير ولي نعمته عبر الرحمن الناصر ، ما يؤكد صحة ما ذهبنا اليه . اذ طالب بـ«حلول هذا المعقل الذي نقدر ان نسند اليه ظهورنا » [22] على حد تعبيره .

لم يذخر الخليفة الاموي عبد الرحمن الناصر جهدا في تحويل ثقل العمران الحضري عن نكور في اتجاه مليلة ، املا في ان تحل بالامارة الفاقرة وتنحدر سريعا نحو الهاوية

---

20 - نفسه ، 388 - 89 .

21 - نفسه ، 387 .

22 - نفس المصدر والصفحة . من الملعوم ان المعاينات الاركيولوجية السطحية والواسعة التي اجريت من طرف باتريس كريسيي السالف الذكر بالمنطقة -على اهميتها- لم تسفر عن لقى كفيلة بتوجيه الانتباه للفترة التي نحن بصدد دراستها. ونميل الى توطين هذه القلعة بالساحل عند مصب الوادي او على الاقل قريبا منه. ويمكننا من خلال جملة من احداث العصر تحديد المجال الذي يمكن التركيز عليه لاجراء مسح اركيولوجي بهدف العثور على بقايا القلعة .

حتى يتمكن من اعادة ترتيب مجمل الاوضاع بالمنطقة وادماج الجميع وفقا للارادة الجديدة التي اصر على جعلها ممركزة حول بلاط قرطبة .

ويبدو ان روسادير القديمة كادت ، ان لم تكن قد اصبحت خربة مهجورة خلال عصر الفتوحات الاسلامية ، على عكس مزاعم بعض الدارسين[23] . والراجح انها قد عادت الى الانتعاش كمركز حضري اتخذ من جديد على الانقاض . وهو الذي اصبح يعرف باسم «مدينة مليلة اسسها امير بني يفرن الذي كان مع ادريس بن صالح واسمه امليل عام اثنين وتسعين»[24] للهجرة. ولقد سلفت الاشارة ضمن الفصول السابقة الى حركة المواصلات البحرية بين «مرسى مليلة» وجملة من الموانئ الاندلسية طوال عصر بني صالح .

وعلى غرار مدينة نكور وبقية حواضر الامارة ، سرعان ما دب الوهن وتوالت موجات الخراب بمليلة ايضا التي غدت ميدانا للفتن وبوابة للصدام بين القوى المتصارعة للهيمنة على المنطقة : عبيديين وامويين وادارسة ، لتصبح مع بداية الاحتلال الاندلسي مجرد معقل حصين[25] . ويذكر البكري[26] اعتمادا على رواية محمد بن يوسف الوراق التاريخي ابرز المختصين في مسالك وممالك العدوة المغربية ان عبد الرحمن الناصر قد فتحها سنة اربع عشرة وثلاث مائة وبنى سورها معقلا لموسى بن ابي العافية». وهي الرواية التي تواترتها جملة من المصادر المتاخرة[27] ، مع بعض التدقيقات الاضافية المشيرة الى كونها محصنة «لها سور صخر وداخلها قصبة مانعة» .

الا ان ثمة خللا بينا في التاريخ لهذا الحدث بسنة اربع عشرة وثلاثمائة . ويبدو ان اثبات هذا التاريخ من طرف جملة من امهات المصادر المغربية الاندلسية قد ساهم في شرود الدارسين[28] عن الانتباه الى مكامن الخطا الذي يتعلق بحدث كان له اكبر الاثر في

---

23 - Enrique GOZALBES GRAVIOTO, "Melilla", *op.cit*, pp. 237-38 .

24 - الزياني ، المصدر السابق ، 79 .

25 - راجع : ابن ابي زرع ، المصدر السابق ، 84 ؛ ابن القاضي ، المصدر السابق ، 341 ؛ الناصري ، المصدر السابق ، ج1 ، 187 .

26 - المصدر السابق ، 88 - 89 .

27 - راجع : الحميري ، المصدر السابق ، 545 ؛ مجهول ، كتاب الاستبصار ، 135 - 36 .

28- انظر على سبيل المثال : البوعياشي ، المرجع السابق ، 10 وكذلك Enrique GOZALBES "Melilla" , *op.cit*, p. 238 .

قلب موازين القوى بعموم المنطقة . فتاريخ احتلال مليلة المذكور اعلاه لا ينسجم بتاتا مع الصيرورة التاريخية العامة ولا مع منطق الاحداث وتسلسلها سواء فيما يتعلق بالعدوة المغربية او بالاندلس[29] .

مع ذلك ، فلا مناص من الاقرار بان الخطا مجرد تصحيف في الرقم ارتكبه النقلة عن المصدر الاصلي المعتمد . وبذلك نرجع سنة اربع وعشرين وثلاثمائة كتاريخ فعلي لاحتلال مليلة من طرف عبد الرحمن الناصر في اطار الحملة البحرية الثانية التي جردتها الخلافة الاموية بقرطبة . ومن المعلوم ان الحملة قد انطلقت من سبتة التي انفصل عنها الاسطول «فتقدم الى مليلة ونكور فافتتحهما» حسب تاكيدات ابن حيان[30] .

وليس ادل على مدى اهتمام عبد الرحمن الناصر بمليلة من الشروع بمجرد احتلالها في ادماج المدينة ضمن هياكل نظام الخلافة المتمركز بقرطبة ، بما في ذلك سلطة الاحكام المرتبطة كما هو معلوم بخطة قضاء الجماعة . يتجلى ذلك من خلال الاقدام على تعيين ابي جعفر احمد بن الفتح المليلي قاضيا بمليلة «وسجل له على قضاء ناحيته»[31] .

اما السلطتان الادارية والسياسية ، فقد اسندتا لموسى بن ابي العافية الذي نصب على غرار ولاة الكور وعمال الثغور بالاندلس عاملا لخليفة قرطبة بالعدوة المغربية . يتضح ذلك من خلال نص العقد الذي امضاه عبد الرحمن الناصر سنة 326 هجرية لمدين بن موسى بن ابي العافية اذ «ارسل اليه بسجل من قبله ولاه به اعمال ابيه من مليلة وغيرها من مدن العدوة حسبما كان اسجل لابيه قبله»[32] .

---

29 - راجع بهذا الخصوص : ابن حيان ، المقتبس 5 ، 203 - 208 ؛ ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج 2 ، 191 - 93 . فالخلافة الاموية لم تكن قد اعلنت بعد بقرطبة حتى يستند عليها الناصر في حملته الى العدوة المغربية . وخلال هذا التاريخ كانت قرطبة منهمكة في غزوة سرتة وفي مواجهة معاقل ببشتر التي استمرت بها بقايا ثورة بن حفصون . من جهة اخرى فخلال سنة اربع عشرة وثلاثمائة بالذات كان المحل الشديد والمجاعة قد عمتا الاندلس مما لا يسمح بتجريد حملة لا تندمج ضمن السياق العام للسياسة الاموية تجاه العدوة المغربية التي انطلقت كما هو معلوم ابتداء من احتلال سبتة لاحقا خلال سنة تسع عشرة وثلاثمائة .

30 - المقتبس 5 ، 382 .

31 - ابن الفرضي ، تاريخ علماء الاندلس ، القاهرة 1966 ، القسم 1 ، 61 .

32 - ابن حيان ، المقتبس 5 ، 427 .

لم تقتصر جهود الخلافة الاموية على الجانبين التنظيمي والتشريعي، بل شملت ايضا المجالين الاقتصادي والمعماري . كشف عن ذلك المؤرخ والجغرافي الاندلسي الشهير احمد بن محمد بن موسى الرازي [33] ، ضمن قصيدة شعرية دالة على ان الامر لا يتعلق بمجرد اعادة تحصين مدينة كانت قائمة البنيان ، بل بالشروع راسا في وضع اسس مدينة جديدة تماما «منيعة شاهقة حصينة» . وهو ما تناوله ابن حيان[34] في نص يتضمن «ذكر البنيان في المدينتين اللتين ابتناهما الناصر لدين الله ومشارفتهما حد الكمال». لا مجال للشك في ان المقصود باحدى المدينتين ضمن هذا السياق مليلة بالذات .ولا تعوزنا الدلائل الكاشفة على ان الامر يتعلق باشغال معمارية كبرى مرتبطة بخطة سياسية بعيدة المدى ، كما يتجلى من خلال الاضطرار بعد طول المدة الى «ادالة ...البنائين والفعلة الاندلسيين بانشط منهم اذ قد سئموا العمل واستطالوا مدة الاغتراب عن اوطانهم»[35] .

من الطبيعي ان تتالق مليلة التي سرعان ما غدت ابتداء من القرن الرابع الهجري من ابرز مدن العدوة المغربية . ولكونها «مدينة ذات سور منيع وحال وسيع» [36] ، دابت معظم الحوليات التاريخية وكتب المسالك والممالك الجغرافية ابتداء من هذا التاريخ على

---

33 - ضمن نص اثبته البكري : المصدر السابق ، 89 . ويضيف الرازي بان مليلة سرعان ما تفوقت على كبريات حواضر العدوة المغربية قائلا :

ذلت لها تاهرت والافارقة ولم يطف بنيانها العمالقة

وغني عن البيان ان تاهرت شكلت خلال هذه الفترة ومنذ عهد بني رستم ابرز حاضرة بالمغرب الاوسط . اما بخصوص افريقية فيكفي التذكير بالقيروان . اما العمالقة في هذا السياق ، فلا يخالجنا شك في انها احالة على آل صالح بنكور الحاضرة التي كانت الى عهد قريب المدينة العظمى بمجموع الغرب الاسلامي . ومن المعلوم ان التذكير بالعمالقة اشارة للحميريين من اهل اليمن حسب الاساطير الشائعة حول الاصول القديمة لبلاد العرب السعيدة . ولقد سلفت الاشارة الى داب بني صالح ابتداء من القرن الثالث الهجري على ادعاء النسب العربي الحميري اليمني .

34 - المقتبس 5 ، 415 .

35 - نفس المصدر والصفحة .

36 - ابن حوقل ، المصدر السابق ، 78 .

ذكرها دون اغفال التنويه بمكانتها كاحدى اشهر المدن بساحل العدوة المغربية [37] . ومما يفصح عن تالق نجمها خلال القرن الخامس الهجري ، الاقدام في اكثر من مناسبة على اعلان الخلافة بها ، في ظل التحولات السياسية الواسعة النطاق التي صاحبت قيام نظام الطوائف بالمغرب والاندلس : الاولى ترتبط بالدعي عبد العزيز بن احمد بن محمد بن محمد بن الاصبغ بن الحكم الريضي الاموي الذي «قام بمليلة وتسمى بالخلافة ثم اضمحل امره» [38] ، اما الثانية فتتعلق بالخليفة الحمودي محمد بن ادريس المستعلي المخلوع بمالقة فـ «استدعاه اهل المغرب الى مليلة وبايعوه سنة ست وخمسين» [39] هجرية .

لم تكن مدينة سبتة فرضة المجاز الى بلد العدوة اقل تاثرا بالتحولات الجديدة التي تمخضت عن خراب نكور وشلل محاور المواصلات المرتبطة بها . ومن المعروف ان عبد الرحمن الناصر قد تمكن من احتلالها في سابقة غير معهودة سنة تسع عشرة وثلاث مائة . على اثر ذلك ، تم الشروع توا في اقتطاعها وتمتين وسائل ربطها بالجزيرة الاندلسية وتحصين مدارها عن طريق «تناولها بمعاقل من البنيان» [40].

وعلى غرار ما سلف ذكره عن السياسة التي تم تطبيقها لاحقا بمليلة ، تجرد الناصر للاهتمام بسريان الشرائع والاحكام بسبتة ، رغبة في الظهور لدى اهل العدوة بمظهر الامام العادل ، في سوق التنافس المحتد بين نظامه الاموي المستمسك بالسنة والجماعة في اطار المذهب المالكي والنظام العبيدي الشيعي الفاطمي . ومن جهة اخرى لترسيخ الاعتقاد لدى اهل العدوة بافضليته وطول باعه وقدراته التي تدعو الى الاستمساك بنظام الخلافة

---

37 - راجع على سبيل المثال لا الحصر النصوص الواردة عن مليلة لدى : المقدسي ، المصدر السابق ، 56 ؛ البكري ، المصدر السابق ، 88 - 89 ؛ ابن حيان ، المقتبس 5 ، 427 ؛ الزهري ، المصدر السابق ، 113 ؛ اسحاق بن الزيات ، كتاب ذكر الاقاليم، تحقيق فرانسيسكو كاستيلو، معهد ميلاس بليكروسا ، برشلونة 1989، 311؛ ابن خلدون ، العبر ، ج 6 ، 247 ؛ الادريسي، نزهة المشتاق ، 533 ، ابن سعيد ، المصدر السابق ، 140.

38 - ابن حزم ، نقط العروس ، ضمن : الرسائل ، المصدر السابق ، ج2 ، 85 .

39 - المقري ، المصدر السابق ، ج 1 ، 435 .

40 - ابن حيان ، المقتبس 5 ، 290 . لمزيد من التفاصيل المرتبطة باحتلال سبتة راجع نفسه 288 - 300.

والتخلي عن الاعتقاد بصلاحية الاستمرار في الانتظام ضمن امارة آل صالح بنكور او الاخلاص لبقايا الشرفاء الادارسة المتامرين بجهات متناثرة من بلاد المغرب .

وليس مصادفة على ما يبدو ان يكون اول من «استقضي فيها حسين بن فتح» حسب رواية ابن مسعود المثبتة في مصنفه الموسوم بالانيق الذي اعتمده بهذا الخصوص شيخ المؤرخين ابو مروان بن حيان [41] . ومن المعلوم ان «حسين بن فتح اصله من نكور...وعلى يديه اخذت مدينة سبتة» حسب نص بالغ الدلالة اورده ابن الفرضي في تراجمه [42] ، يدعو الى اثارة اكثر من سؤال حول هذه المرحلة الملغزة في تاريخ العدوتين .

وبالمثل ، فليس من باب المصادفة ان يتم في نفس السنة ايعاز حليف قرطبة الجديد موسى بن ابي العافية لتجهيز احدى اكبر الحملات البرية ضد بلاد نكور انتهت بتخريب الحاضرة فتركت بلاقع تسفي فيها الرياح وتعوي فيها الذئاب . في حين ، انفذت حملة بحرية موازية ضد المزمة ، لم تكن اقل وقعا على مستقبل محاور التجارة الصحراوية ، التي اعيدت هيكلتها وفق تصور جديد لشبكة المواصلات بمجموع الحوض الغربي للبحر المتوسط .

سرعان ما اتضحت معالم الخطة الجديدة باقدام عبد الرحمن الناصر على انشاء احدى ابرز القواعد البحرية بالغرب الاسلامي خلال العصر الوسيط ويتعلق الامر بالمرية ، وذلك سنة اربع واربعين وثلاثمائة [43] . ومن المعلوم ان هذ القاعدة قد تبوات مركز الصدارة واصبحت بمثابة البوابة الرئيسية للمغرب والاندلس قاطبة نحو البلاد المشرقية . فمنها «يركب حجاج الاندلس وسائر من في العدوة» [44]. وبالمثل فاليها كان «سفر اهل المشرق والمغرب من بلد الاسلام» [45] .

لم يعد لحاضرة نكور بعدئذ من موقع ضمن الخريطة الجديدة ولا من دور في

---

41 – نفسه ، 299 .

42 – المصدر السابق ، ق1 ، 113 – 14 .

43 – الحميري ، المصدر السابق ، 537 .

44 – الرشاطي وابن الخراط ، الاندلس في اقتباس الانوار وفي اختصار اقتباس الانوار ، تحقيق ايميليو مولينا / خاثينتو بوش فيلا ، مدريد 1990 ، 59 .

45 – نفس المصدر والصفحة .

الربط بين العدوتين وبالاحرى الاستمرار في فعاليتها السابقة كحلقة وصل بين جناحي دار الاسلام . تجدنا اذا عند جذور احدى اهم المفاصل في تاريخ الغرب الاسلامي ، تمكننا من معاينة القوى المؤثرة وهي تعمل على طي صفحات عصر باكمله للشروع توا في وضع اللبنات الاولى لعصر جديد . اسفر ذلك عن انتقال ازمة المبادرة الحضارية جملة من نكور بالعدوة المغربية الى قرطبة بجزيرة الاندلس ، التي تمكنت بعد لاي من ملامسة اقصى درجات التطور العمراني و الحضاري التي تحققت بالغرب الاسلامي .

الفصل السادس
النسيج الاجتماعي
ومظاهر الحياة الثقافية

اولا : النسيج الاجتماعي

من المعروف ان البحث في الاصول الاجتماعية اعتمادا على المعايير العرقية وعلاقات النسب والقرابة يعتبر من المسالك الاكثر تشابكا وتعقيدا، سيما اذا كان الامر يتعلق بمتابعة حلقات التطور التاريخي لكيان محدد في سياق متسلسل عبر قرون . وباستثناء ما قد يصنف ضمن المجتمعات الراكدة التي تعيد انتاج نفس البنيات وتنتظم في جماعات شبه ثابتة ومنغلقة ، تبرهن مختلف الحقول التاريخية على جزئية هذه الاداة وعجزها عن مسايرة الوقع في منحنياته ومناحي تطوره . وعموما تتعدد مجالات الخلط فيما بين العناصر المتفاعلة ، فبالاحرى اذا كان الامر يتعلق بمستويات متداخلة في كيانات تاريخية مركبة .

وبقدرما يتشظى التاريخ القبلي بالغرب الاسلامي ويتناثر في وحدات غير منسجمة في اكثر من زاوية بما في ذلك المستوى الجغرافي[1] ، تختفي عدد من التركيبات العشائرية

1 - ويقدم كتاب ابن خلدون في العبر ابرز مثال على ذلك ، اذ يتجلى من خلال محاولته كتابة تاريخ قبائل المغرب ضمن سياق الكيانات السياسية المتعاقبة التقاطع بين المستويين الاجتماعي والتاريخي والتداخل بين العناصر وتشرذم الوحدات .

او تضمحل وتنقرض في اكثر من محطة على مدار تاريخ المغرب الوسيط . ولا تقل صيرورة الانحلال الاجتماعي وذوبان الاعراق واختلال الطوائف تحت وقع التطور الاقتصادي ونشاط العمران الحضري اهمية في توفير شروط اعادة الانتظام وفق معايير جديدة ، ان لم يكن في اطار اشكال ونظم اخرى للانتساب والهوية .

والجدير بالملاحظة ان القوالب الجاهزة والتصنيفات المعيارية في وحدات نظرية عامة ما زالت سيدة الموقف بخصوص هذا الجانب من تاريخ المغرب الوسيط . ويبدو انه قد آن الاوان للتمييز بين حقل البحث الانتربولوجي وحدود الدراسة الاثنوغرافية من جهة وبين الزمان والمكان المتلازمين في بعد تاريخي محدد المستويات والاعماق من جهة ثانية. ومن المفيد الاشارة الى ان التاريخ الاجتماعي ليس من المستجدات المرتبطة بمناهج البحث الحديثة . فبصرف النظر عما وضعه القدامى من مصنفات في التراجم والطبقات والانساب التي لا مجال لحصرها في هذا المقام ، لا تعوز الدلائل عن الاهتمام المبكر بتواريخ القبائل والعشائر. ولدينا اكثر من مثال عمن «الف في تاريخ قومه وقرابته»[2] كتبا ومصنفات .

وتقدم المصادر المغربية الاندلسية بهذا الخصوص ترسانة من المصطلحات والادوات المفهومية الكفيلة بفتح الاغلاق المرتبطة باكثر من زاوية في الموضوع. فبالاضافة لمستويات الانتظام الاجتماعي في «القبائل والعمائر والبطون والافخاذ»[3]، يمكن الانتقال الى مكونات ادق للنظر في طبيعة «الاسر والعصائب»[4] وترابط اصناف البيوت والفصائل[5]. وتزخر متون المصادر القديمة بجملة من الالفاظ المحددة الدلالات حسبما تقتضيه سياقاتها

2 – ابن الخطيب ، الاحاطة في اخبار غرناطة ، م 1 ، 164 .

3 – المقري ، المصدر السابق ، ج 1 293 .

4 – ابن عات الشاطبي ، الطرر على الوثائق المجموعة ، مخطوط المكتبة العامة تطوان ، رقم 797 ، 25 . ويفسر ابن خلدون هذا المستوى بالقول ان المقصود بـ« عصبة الرجل اقاربه من الرجال» المقدمة ، ج2 ، 463 .

5 – عن الفصائل راجع مقتطفات من منظومة عبد الرحمن الغرناطي ضمن : المقري ، المصدر السابق ، ج 4 ، 309 – 310 . لمزيد من التفاصيل انظر : جلال الدين السيوطي ، لب الالباب في تحرير الانساب ، تحقيق جوهانس فيث ، بغداد 1940 .

النصية . نذكر منها فضلا عن مصطلحي «الاحياء» و«الاعراق»[6] ، اشكالا من «التشعب» و«التحزب» [7] . ولا تعوز الاشارات المتعلقة بمعاني اللفوف والاحلاف والحميات [8] وبغيرها من اشكال التجمع والارتباط العشائري المؤقت . ينطبق نفس الشيء على المنحى المعاكس في اتجاه التلاشي والتشرذم القبلي الذي عادة ما يفصح عنه بعبارات ذات مضامين كاشفة مثل التقاطع والتدابر المؤديين الى الهلاك والانقراض [9].

كما نتوفر على مقاييس في غاية الاهمية بخصوص مناحي التداخل بين الاعراق المؤدية الى فقدان الاصول وظهور ما يعرف بـ «اخلاط الامم»[10]. بينما يتواتر الحديث في كتب الانساب عن «اعقاب البيوت»[11] و«البيوت المتفرقة»[12] ، بما يدل على صيرورة التشتت الجغرافي للوحدات المجتمعية . وفي الاتجاه المعاكس ، لا تعوز المصطلحات الكاشفة عن التماسك في «دور جامعة»[13] او عن توسيع القواعد القبلية بواسطة «ولاية النسب»[14] .

لعل في هذه الملاحظات ما يفصح عن سذاجة السير في ركاب مدارس ضجت بالشكوى من شح المادة التاريخية ذات المضامين الاجتماعية[15] ومن فقر ومشاكسة الادوات المفاهيمية ، ولم تتوان من جهة ثانية عن الترويج للاعتقاد بعجز المعجم العربي على المستويين الاصطلاحي والدلالي عن مسايرة تطلعات البحث المعاصر في التاريخ

---

6 - راجع : ابن بسام ، المصدر السابق ، ق1 م1 ، 104 و ق 3 م1، 188 .

7 - انظر : ابن حيان ، المقتبس ، انطونيا ، 71 . عن مصطلح التشعب وعن صياغاته المختلفة مثل الشعوب والشعاب والشعب انظر : ابن بسام ، المصدر السابق ، ق4 م1 ، 35 ؛ مجهول ، الحلل الموشية في الاخبار المراكشية ، نشر علوش ، رباط الفتح 1936 ، 33 .

8 - راجع ابن حيان ، المقتبس ، انطونيا ، 71 ؛ ابن بسام ، المصدر السابق ، ق4م1 53 .

9 - انظر: الباجي ، وصيته لولدية ، 41 .

10 - الزبيدي ، لحن العامة ، تحقيق عبد العزيز مطر ،القاهرة 1981 ، 35 .

11 - ابن خلدون ، المقدمة ، تحقيق علي عبد الواحد وافي ، ج 3، 878 .

12 - ابن حزم ، الجمهرة ، 419 .

13 - نفس المصدر والصفحة .

14 - ابن رشد ، الولاء والمواريث ، المصدر السابق، 159 وجه .

15 - انظر على سبيل المثال : E.MICHAUX BELLAIRE, *Rif et Jbala*, Paris 1925, p . 35

الاجتماعي . وحتى لا تضيع الجهود فيما يشبه متاهة من العلاقات المتقاطعة ، فالاجدر منهجيا الشروع في اعادة تركيب العناصر المجتمعية ببلاد نكور خلال عصر بني صالح ، ابتداء من الاصول المرتبطة بالفتوحات الاسلامية الى غاية تخريب نكور على اثر الحملة المرابطية ، فيما يشكل مرحلة تاريخية تكاد تكون متكاملة في وحدة بارزة المفاصل .

ولا تقل محاولة التوطين الجغرافي للبطون والعشائر القبلية مع ضبط محاور حركتها وموجات الهجرة اهمية في فك جملة من القضايا الملغزة . وفي تقديرنا ان الاعتكاف على استخلاص النتائج من ابحاث مماثلة تهم جهات اخرى من بلاد المغرب ، كفيل بتقديم المادة المعرفية اللازمة لانجاز خرائط اجتماعية تغطي مختلف الحقب التاريخية . ولعل في ذلك ما يقدم مفاتيح جديدة لسبر اغوار غير معهودة في تاريخ المغرب الوسيط .

وبخصوص نكور، امكن من خلال استقراء واسع في متون جملة من المصادر المغربية الاندلسية الوقوف على مكانة نفزة باعتبارها اقوى وابرز تجمع قبلي بالمنطقة منذ البدايات الاولى لاندماجها في دار الاسلام الى مستهل القرن الرابع الهجري . فاليعقوبي[16] على سبيل المثال يصرح نصا في سياق حديثه عن امارة بني صالح بان نفزة هم اهل البلد .كما سبقت الاشارة الى انتساب الثائر الخارجي الصفري داوود الرندي في نفس القبيلة اذ كان معروفا لدى الجميع بكونه «رجلا من نفزة»[17] ، التي امرته لفترة ثم عادت ثانية الى تنحيته وقتله .

ومن المفيد في هذا السياق اثبات ترجمة «صالح بن يزيد بن صالح بن موسى بن ابي القاسم بن علي بن شريف النفزي من اهل رندة»[18]. واضح ان صاحب هذه الترجمة يجتمع مع الثائر داوود الرندي في ازدواج الانتماء لرندة من جهة ولنفزة من جهة ثانية ، مما يلقي اضواء كاشفة عن بواكير الروابط الاجتماعية بين نفزة ببلاد نكور ورندة بالاندلس ويؤكد ما سلف ذكره عن قدم وكثافة المواصلات البحرية بين العدوتين . والراجع ان هذه البصمات الدالة عن زرع فصائل جديدة لقبائل نفزة برندة في الاندلس ترتبط بعمليات الفتح الاولى التى قادها طارق بن زياد النفزي هو ايضا ، كما سلف الذكر . تجدنا اذا امام قرائن جديدة

---

16 - المصدر السابق ، 356 .

17 - انظر : البكري ، المصدر السابق ، 91 ؛ ابن خلدون ، العبر ، ج 6 ، 284 ؛ ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج 1 ، 176 .

18 - ابن الخطيب ، الاحاطة ، تحقيق شقور ، 57 .

تؤكد صحة ما ذهبنا اليه بخصوص نسب طارق بن زياد ، وكذا بدور نفزة احد اهم التجمعات القبلية ببلاد طنجة في انجاز الفتوحات الاسلامية بالاندلس . ولا غرو فلقد اختصت بكونها اولى البطون القبلية بالمغرب الاقصى التي دخلت الاسلام على يد العبد الصالح صالح بن منصور .

ومهما يكن من امر، فلقد استمرت المصادر التاريخية تكشف عن مكانة نفزة باعتبارها النواة الصلبة والقاعدة القبلية الاساسية التي ارتكزت عليها اركان الامارة . يتجلى ذلك بوضوح تام من خلال داب القدامى ، بمن فيهم شيخ المؤرخين ابي مروان بن حيان [19] على وسم امير بنى صالح بـ«صاحب نكور ونفزة» . وبينما اقتصر ابن الابار [20] على القول بان «نفزة من قبائل البربر» ، تعمد رواية المقري ، المنقولة عن مصادر مغربية مفقودة - حسبما يتجلى من السياق - الى توطين نفزة بالمغرب الاقصى ، اذ ورد النص تصريحا على ان عبد الرحمن الداخل قد «بلغ المغرب الاقصى ونزل بنفزة» [21] . وفي رواية للقاضي عياض [22] ما يقدم دلائل اضافية تساعد على مزيد من الدقة في الضبط والتوطين ، اذ قال مترجما لاحد اعلام كورة البيرة المقابلة بالاندلس ان اصله «من نفزة من البربر من العدوة» ، وهو ما يعنى بلاد نكور بالذات .

مع ذلك ، فعلى غرار معظم البطون القبلية ، لم تتمكن نفزة من الاستقرار في دار جامعة واحدة ببلاد المغرب ، كما يتجلى من خلال جملة من القرائن الدالة . نخص منها بالذكر المؤشرات الكاشفة عن اهمية الفرع ان لم يكن الاصل الافريقي لنفزة المتشعب في

---

19 - المقتبس 5 ، 290 .

20 - الحلة السيراء ، ج1 ، 35 .

21 - المقري ، المصدر السابق ، ج 3 ، 49 . ومن المفيد ازالة اللبس بخصوص الرواية التي تنص على ان عبد الرحمن الداخل قد «خلص الى المغرب ونزل على اخواله بطرابلس من برابرة العدوة» ابن خلدون ، المقدمة ، تحقيق خليل شحادة ، ج4 ، 155. ونجد تصحيح ذلك لدى ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج2 ، 41 الذي يدقق في كون عبد الرحمن الداخل قد انصرف من القيروان هاربا في اتجاه الغرب يريد الاندلس «حتى اتى نفزة وهم اخواله» .

22 - ترتب المدارك ، تحقيق سعيد اعراب ، منشورات وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية ، الرباط ، 1982 ، ج7 ، 18 .

عدد من البيوتات . يذكر الرقيق القيرواني[23] من ضمن المشاهير «عبد الملك بن ابي الجعد النفزي» المستخلف على القيروان. الا ان اشهر المنتمين في هذا الفرع القبلي على الاطلاق هو ابو محمد عبد الله بن ابي زيد القيرواني من اهل القرن الرابع الهجري والملقب بمالك الصغير «علم الملة وهو من نفزة ايضا» على حد تعبير ابن خلدون [24] . وبهذا النسب اشتهر في كتب التراجم التي تعرفه بـ «ابي محمد عبد الله بن ابي زيد عبد الرحمن النفزي» [25] .

ويقدم ابن خلدون بهذا الخصوص تفاصيل في غاية الاهمية تكشف عن الاصول وكذا عن المسالك وخطوط الهجرة التي اتبعتها الفروع المتشعبة عن نفزة في انتقالها عبر البلاد المغربية . فجماعاتهم الاولى مرت حسب هذه الرواية باحواز ارض طرابلس و «نزل قوم بقربها وهم نفزة ثم امتدت بهم الطرق الى القيروان وما وراءها الى تاهرت الى طنجة وسجلماسة الى السوس الاقصى وهم طوائف صنهاجة» [26] من الفروع المتشعبة بمختلف جهات البلاد المغربية. ويبدو ان الامر يتعلق هنا بهجرات حدثت قديما خلال المراحل السابقة للاسلام، كما يتجلى من طبيعة السياق الاخباري الذي يتعرض لسام وحام ويافث ويحيلنا على اصول البربر حسبما ورد في القصص القديم .

ولدينا في رواية ابن خرداذبه[27] التي تتناول اعراض البربر ما يؤكد ذات الحقيقة اذ يشير مرتين في سياق واحد الى فرعين مختلفين من «نفزة» . وهو بالضبط ما اثبته ابن حيان[28] ضمن اللائحة التي بعثها موسى بن ابي العافية سنة 323 هجرية للخليفة عبد الرحمن الناصر باسماء قبائل الطاعة من بربر العدوة بالمغرب الاقصى ، اذ يوطن احد الفروع باحواز فاس بالقرب من مكناسة الجبل ، مشيرا الى ذلك بالقول ان «جيرانهم نفزة». بينما يتعلق الامر في الاشارة الثانية بنفزة نكور ، كما يتجلى من خلال تتابع اسماء البطون القبلية الضاربة في اتجاه ملوية وحوز جراوة ، وبالخصوص من خلال تصريح موسى

23 – المصدر السابق ، 103 . وذلك بعد قيام الدولة العباسية على اثر سقوط خلافة بني امية بالمشرق.

24 – العبر ، ج6 ، 138 ؛ انظر كذلك ، الزياني ، المصدر السابق ، 74 .

25 – الحميدي ، المصدر السابق ، ق1 ، 269 .

26 – ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، 126 .

27 – المصدر السابق ، 90 .

28 – المقتبس 5 ، 370 .

بن ابي العافية ان الامر في الحالة الثانية يهم «ما احاط بنا نحن من قبائل البربر من مكناسة واورية...ونفزة»[29]. ومن المفيد الانتباه الى تواتر ذكر نفزة ضمن عدد من المصادر التاريخية وكتب المسالك والممالك الجغرافية[30]، معظمها يتعلق حسبما يتجلى من سياقاتها بنفزة نكور التي شكلت كما سلف الذكر احدى اهم البطون القبلية ببلاد طنجة خلال القرون الثلاثة الاولى من الهجرة .

وفي نص بالغ الاهمية ، يفصح ابن خلدون[31] عن اهم البطون المتفرعة عن نفزة نكور، ويتعلق الامر بـ«بني ورياغل وكزناية وبني يصليتن»، مضيفا بانهم يجتمعون في مكلاتة احدى اهم البطون القديمة المتشعبة عن تطوفت بن نفزاو . ولم يغفل في هذا السياق الاشارة الى شيوع القول بان «مكلاتة من عرب اليمن وقع الى تطوفت صغيرا فتبناه ، وليس من البربر»[32]، مؤكدا بما لا يدع مجالا للشك صحة ما ذهبنا اليه من تحاليل بخصوص نسب بني صالح وحيثيات نشاة وتاسيس امارتهم بنكور حسبما بيناه ضمن الفصول السابقة .

ولا تعوزنا المعلومات الكفيلة بالتوطين الجغرافي لهذه البطون الثلاث التي كان لها ابلغ الاثر في ماجريات التطور التاريخي لبلد نكور . ولقد سلفت الاشارة الى اولوية بطن بني يصليتن في احتضان مؤسس الامارة صالح بن منصور الذي «لجا اليهم»[33] على اثر نزوله بمرسى تمسامان . وفي نص لابن خلدون[34] ما يحدد بدقة مواطن «بني يصليتن اهل جبل ابي الحسن» الذي تشرف سفوحه الغربية على فحص نكور ، بينما تتحيف سفوحه الشرقية بمجموع حوض الوادي الكبير المعروف في لسان اهل البلد بـ«اغزار امقران» الذي حرفته الترجمة العربية فاستحال على يد النقلة الى «وادي البقر» .

والجدير بالذكر ان موطن بني يصليتن المعروف بجبل ابي الحسن هذا هو بالذات

---

29 – نفس المصدر والصفحة .

30 – انظرعلى سبيل المثال : البكري ، المصدر السابق ، 123 ؛ الادريسي ، نزهة المشتاق ، القاهرة ج1 ، 222 ، ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، 122 ، 126 ، 138 ، 195، 205 ، 283 .

31 – العبر ، ج6 ، 150 .

32 – نفس المصدر والصفحة .

33 – البكري ، المصدر السابق ، 90 .

34 – العبر ، ج6 ، 284 .

«البلدة [التي] يقال لها تمسامان»[35] المنصوص على ذكرها في جملة من المصادر القديمة . ويبدو ان عبارة تمسامان التي اقتصرت في الاصل على دلالة جغرافية : بلدة كانت ام مدينة سرعان ما انضاف اليها البعد الاجتماعي القبلي ، تبعا للاختفاء التدريجي لمصطلح بني يصليتن الذي لم يعد يشغل نفس الحيز الجغرافي ان لم يكن نفس الدلالة الاجتماعية ضمن المصادر المتاخرة [36].ومن المعلوم ان «يصلتن» من اسماء الاعلام الذكور الشائع الاستعمال لدى بربر العدوة المغربية منذ حقب مبكرة من تاريخ الغرب الاسلامي[37] ، مما ينبه الى ضرورة الاحتياط من التعميم تفاديا للارتباك والوقوع في الخلط كما هو الشان بخصوص عدد من العشائر والبطون القبلية التي اوقعت ثلة من المؤرخين بمن فيهم ابن خلدون في تشابك لا مخرج منه .

ولا يقل بنو ورياغل المتفرعون هم ايضا عن نفزة اهمية ، اذ تواتر ذكرهم في عدد من المصادر باعتبارهم من ابرز البطون القبلية التي شكلت عماد الامارة وساهمت بفعالية في صياغة فصول من تاريخ المنطقة كما سلف الذكر . ويحدد كل من البكري وابن خلدون[38] «بلد بني ورياغل»، انطلاقا من مواطنهم بمنابع وادي غيس وبمجوع السفوح الجبلية الممتدة الى فحص نكور والى الحاضرة التي سميت احدى ابوابها باسمهم وعرفت في المصادر التاريخية باسم «باب بني ورياغل» [39]، اثباتا لحجمهم ومكانتهم . وفي مكان آخر يثبت ابن خلدون [40] امتداد مواطن «بني ورياغل على واد المزمة» .

---

35 – ابو حامد الغرناطي ، المصدر السابق ، 123 .

36 – انظر : البادسي ، المصدر السابق ، 56 ، 62 .

37 – راجع علي سبيل المثال لا الحصر ، ابن الفرضي ، المصدر السابق ، ق2 ، 210 ، ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، 120 ؛ الناصري ، المصدر السابق ، ج1 ، 206 ؛ ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج 1 ، 178 . والملاحظ ان رسم اللفظ يرد احيانا بالالف واللام كالتالي : بني يصلاتن .

38 – البكري ، المصدر السابق ، 90 ؛ ابن خلدون العبر ، ج6 ، 284 .

39 – البكري ، نفسه ، 90 ؛ الحميري ، المصدر السابق ، 577 .

40 – العبر، ج6 ، 274 . كما يقدم في سياق مخالف معلومات عن بطن مشابه في الرسم فقط يدعى بني ورياكل وهم من صنهاجة «كانوا ساكنين بوادي بجاية» العبر ، ج6 ، 167 ، 302 ، وكذلك ج7 ، 384 . راجع ايضا : الناصري ، المصدر السابق ، ج2 ، 80 . مما يدعو الى التحفظ وعدم الخلط عند التعرض لانسابهم .

وبينما يؤكد على انتمائهم - على غرر بني عمومتهم بني يصليتن السالفي الذكر- في «الطبقة الثالثة من صنهاجة»[41] ، يشير الجغرافي الشهير ابن حوقل[42] ضمن لائحة مفصلة لاحياء البربر وفصائلهم الى «بني ورياغل» باعتبارهم بطنا من صلب زناتة متفرعا عن عصبة لواتة . وهو التاصيل الذي تناقلته على ما يبدو عدد من المصنفات القديمة التي اصبحت في حكم المفقود . مصداق ذلك رواية الزياني[43] التي تتناول نزول حسان بن النعمان ببلاد الريف ونكور «وعليه اسلم قبائل لواتة» . وفى سياق آخر، يضيف بان مدينة بادس قد «اسسها امير لواتة الذي كان مع ادريس [ابن صالح] واسمه بادس»[44] .

واضح ان هذا التصنيف يختلف اختلافا بينا مع الصورة الشائعة في معظم المصادر المتداولة التي تحدد الاساس القبلي المكون لامارة بني صالح في مجموعتين وهما : «صنهاجة وغمارة»[45] . ومن المفيد الاشارة بهذا الخصوص الى اقرار ابن حوقل[46] بضعف معلوماته المتعلقة باحياء البربر وجزئية روايته السالفة مصرحا بان «العلماء بانسابهم واخبارهم وآثارهم هلكوا وكنت قد اخذت عن بعضهم رسوما اثبتها ولم ارجع منها الى غير ما قدمته من ذكر قبائلهم» على حد قوله، مما يترك الباب مفتوحا للتاويل .

ومن الملاحظ ان هذا البطن القبلي قد استمر طوال القرون اللاحقة والى اليوم محتفظا بنفس التسمية القديمة ومستوطنا ذات المنطقة . يتجلى ذلك من خلال رواية ابن الخطيب[47] الواردة على لسانه ، في احالة على عصره وزمانه تتعلق بحاضرة نكور التي «هي اليوم

---

41 - العبر ، ج6 ، 273 .

42 - المصدر السابق ، 106 . وقد ورد لديه رسم هذا البطن القبلي بالنون كالتالي : «بني ورياغن» الى جانب فصائل وبطون اخرى مثل بني زوراغ وبني بطوي وبني عمرت ، ما يفصح على ان الامر يتعلق فعلا ببني ورياغل .

43 - المصدر السابق ، 79 .

44 - نفس المصدر والصفحة .

45 - البكري ، المصدر السابق ، 91 ؛ ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج1 ، 176؛ الحميري ، المصدر السابق ، 577 ؛ مجهول ، الاستبصار ، 136 ؛ ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، 283 .

46 - المصدر السابق ، 106 .

47 اعمال الاعلام ، 179 .

مزارع لبني رياغل»، على حد تعبيره . ولا تعوز الاشارات التي تتناول «قبيل بني ورياغل»[48] في غيره من المصادر التاريخية المتاخرة .

وتشكل كزناية ثالث اهم البطون المتفرعة عن نفزة ، وتمتد مواطنهم في المرتفعات الجبلية التي تنبعث منها السيول العليا لنهر نكور . وهو ما عبرت عنه جملة من المصادر القديمة تصريحا بان «بلاد كزناية من جبل كوين»[49]. وتقدم المصادر المعتمدة تفاصيل اضافية عن هذه المرتفعات الجبلية المعروفة بكوين التي ينبعث منها ايضا النهر المعروف بنهر ورغة وهو من مشهور انهار المغرب»[50] ، مما يسمح بتوطين بطون كزناية بما يكفي من الدقة الطبوغرافية . ومن المفيد الانتباه الى انفراد البكري بتسمية هذه المرتفعات بـ«جبل بني كوين» نسبة على ما يبدو للنواة القبلية الصلبة المكونة لقبيلة كزناية .

وقد سلفت الاشارة ضمن الفصول السابقة الى انعقاد اللف بين قبيلتي بني ورياغل وكزناية اللتين اعلنتا العصيان ضد الامير صالح بن سعيد خلال منتصف القرن الثالث الهجري . ولقد انطلقت حركتهما من جبل كوين بالذات الذي غدا بمثابة القاعدة الخلفية لهذا اللف القبلي الذي كاد ان يعصف بالامارة ويمسك بزمام المبادرة . ولعل في ذلك ما يفصح عن ثقل حجمهما ضمن التركيبة الاجتماعية للبلاد .

وبرغم صمت ابن خلدون وغيره من مصادر تاريخ المغرب الاقصى عن ذكر بني يطوفت واغفال الحديث عن مواقعهم ضمن الخريطة الاثنية لبلاد نكور[51] ، نتوفر على

---

48 - انظر على سبيل المثال : البادسي ، المصدر السابق ، 110 . لمزيد من التفاصيل عن مضارب هذه القبيلة انظر: التقي العلوي ، اصول المغاربة ، صنهاجة الشمال ، مجلة البحث العلمي الرباط ، العدد ، 27 ، 209 .

49 - البكري ، المصدر السابق ، 90 ؛ مجهول ، الاستبصار ، 136 ؛ ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، 284 .

50 - راجع نفس المصادر والصفحات .

51 - لا يتعلق الامر هنا بكل العشائر والبطون القبلية التي حملت اسم بني يطوفت . فبصرف النظر عن يطوفت بن نفزاو السالف الذكر ، تشير المصادر المتداولة الى يطوفت بن ورنيد الزناتي وعقبه بالمغرب الاوسط انظر: ابن حزم ، الجمهرة ، 498 . كما يذكر ابن خلدون في اماكن متعددة من عبره يطوفت بن بلكين ويطوفت بن المنصور وغيرهما ممن حمل هذا الاسم . ولعل في هذا ما ينبه الى المزالق التي قد تواجه البحث في تاريخ المغرب الاجتماعي .

اشارات عرضية وردت عفوا في سياقات اخبارية تسمح بانتشال هذا الفرع القبلي من طي النسيان . والراجح انه قد شكل قديما والى حدود مستهل القرن الرابع الهجري احدى اهم المكونات القبلية في بلاد نكور . يتجلى ذلك من خلال المكانة التي شغلوها ضمن جند الامارة في الصراع ضد الشيعة العبيديين ، حسبما يتضح من دور احد اعلام قادة الجند «يقال له حمد بن العياش من بني يطوفت»[52] . والغالب على الظن ان اضطرار هذا القائد على اثر وقوعه في الاسر بمعسكر الشيعة الى خيانة آل صالح فداء لروحه ، قد انعكس سلبا على مجموع افراد عشيرته الذين ابعدوا عن مراكز القرار ، ان لم يكونوا قد صودروا وتوبعوا باصناف من المضايقات والاغرام .

ونتوفر على نص فريد وبالغ الاهمية في الكشف عن اصول هذا الفرع القبلي ، اورده ابن حيان[53] تصريحا بان «بني يطفت من نفزة». نجد تاكيد ذلك في رواية اخرى[54] تشير الى ان «بني يطوفت من نفزاوة». وعلى غرار رايه في بني وياغل ، ينفرد ابن حوقل[55] بتصنيف «بني يطوفت...في زناتة» .

وسواء عند ابن خلدون او لدى ابن حزم وفي مختلف ما لدينا من لوائح عن الفروع القبلية بالمغرب الاقصى ، وباستثناء ما قيل عن يطوفت بن نفزاو، لا نجد اثرا لعقب نفزي آخر باسم يطوفت، مما يجعلنا نعتقد بانتساب هؤلاء راسا في قمة الهرم ضمن سلسلة النسب النفزي اي في يطوفت بن نفزاو بالذات . بذلك يكون بنو يطوفت الذين نحن بصدد دراستهم الفرع الوحيد الذي احتفظ باسم الجد الاعلى دون بقية الفروع المذكورة آنفا التي انتسبت في الاعقاب. ويذكر البادسي[56] ان مواطن «قبيلة بني يطفت، بينها وبين بادس مسيرة يوم».

ينطبق نفس الشيء على مرنيسة المذكورة هي الاخرى ضمن الفروع المتشعبة عن يطوفت بن نفزاو حسب روايتي ابن حزم وابن خلدون[57] . وبرغم اقرار هذا الاخير بصعوبة

52 - البكري ، المصدر السابق ، 94 ؛ ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج1 ، 179 .

53 - ابن حيان ، المقتبس ، نشر محمود على مكي ،القاهرة1971 ، 171 .

54 - ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، 119 .

55 - المصدر السابق ، 106 .

56 - المصدر السابق ، 125 . وما زالوا يحتفظون الى اليوم بنفس مواطنهم هذه وبنفس تسميتهم القديمة .

57 - انظ : الجمهرة ، 497 ؛ العبر ، ج6 ، 150 .

التوطين الجغرافي لهذا الفرع بقوله :«واما مرنيسة فلا يعلم لهم موطن»[58] ، يبدو من خلال رواية البكري[59] المزدوجة في سياقين مختلفين انها كانت تستوطن المنطقة الواقعة مباشرة الى الشرق من ديار بنى ووردين . فبينما يذكر مرنيسة في السياق الاول الى جانب اهل كبدان وغساسة ، يعود مرة اخرى للتدقيق في مواقعهم في سياق حديثه عن حملة سعيد بن صالح التاديبية بالجند الى القبائل المخالفة ، «فادخلوه قلوع جارة ونهد بهم الى مرنيسة وزناتة»[60] . يسمح ذلك بالتماس مواطن ديارهم في الحيز الممتد غرب نهر ملوية في اتجاة تسول وزناتة تابريدا . والراجح ان مضارب مرنيسة قد تدحرجت خلال القرون اللاحقة في اتجاه احواز ورغة ، كما يتجلي من خلال الاشارات المصدرية المتاخرة[61] .

وتتفق الروايات القديمة والمتاخرة [62] على توطين «اهل كبدان» في التخوم الشمالية الشرقية لبلاد نكور ، وبالضبط على مشارف الساحل بـ «حوز وادي ملوية» .

مع ذلك ، فمن المفيد الانتباه الى ان ثمة فروع نفزية ، استمرت منذ القديم مستقرة في اوطانها الواقعة الى الشرق من مصب نهر ملوية . ويتعلق الامر بـ«بني يزناسن اهل الجبل المطل على وجدة»[63] . يتجلى ذلك من خلال رواية ابن حيان [64] التي تتناول بالذكر«من كان على ملوية وصاع من قبائل بنى راسين وبني يفرن وبني يزناسن» . وحسب رواية ابن خلدون[65] التي لم نجد لها اثرا في بقية المصادر المعتمدة ، فان بني يزناسن يجتمعون مع البطون النفزية الثلاث التالية : بني يصليتن وبنى ورياغل وكزناية في مكلاتة باعتباره جدهم الاعلي المشترك .

وتشكل بطون مكناسة المجموعة القبلية الثانية التي التحمت مع نفزة واندمجت في

---

58 - العبر ، ج6 ، 152 .

59 - المصدر السابق ، 90 ، 94 .

60 - نفسه ، 94 .

61 - انظر على سبيل المثال : البادسي ، المصدر السابق ، 144 .

62 - البكري ، المصدر السابق ، 90 ؛ البادسي ، المصدر السابق ، 140 - 141 . حيث ما زالت مواطنهم قائمة الى اليوم .

63 - ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، 81 ؛ راجع كذلك : ابن ابي زرع ، المصدر السابق ، 399 .

64 - المقتبس ، ج5 ، 370 .

65 - العبر ، ج6 ، 150 .

سلك الامارة والتحقت بسلطان الجماعة في نكور . ويقدم ابن حزم[66] التفاصيل عن سلسلة نسبهم التي تصعد الى مادغيس بن بر حسب الرواية المنسوبة لابن ابي يزيد مخلد بن كيداد المثبتة لدى يوسف الوراق التاريخي . وتمتد «مواطنهم على وادي ملوية من لدن اعلاه سجلماسة الى مصبه في البحر ، وما بين ذلك من نوتحي تازة وتسول»[67] . ويكشف ابن خلدون في نفس السياق عن انقسام بطون مكناسة الى مجموعتين قبليتين : الاولى تضرب في احواز ملوية العليا ، وهي التي ارتبطت بامارة بني مدرار الصفرية التي انشئت بسجلماسة[68]. اما المجموعة الثانية ، فقد ارتبطت منذ عهد مبكر بامارة نكور ، للتحول على راس المائة الرابعة الى قوة مناهضة تحت امرة زعيمها موسى بن ابي العافية المذكور ضمن الفصول السابقة .

ويمكننا اعتمادا على جملة من القرائن المتناثرة ان ندقق في الحدود الفاصلة بين الامارتين ، عند مضارب احد الفروع القبلية المعروفة باسم مطماطة التي يوطنها البكري[69] في آخر الحدود الجنوبية الشرقية لامارة بني صالح مسيرة خمسة ايام من الحاضرة .لا يتعلق الامر هنا بمطماطة[70] الواقعة في احواز تيهرت المذكورة في جملة من المتون

---

66 - الجمهرة ، 495 .

67 - ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، 170 ؛ ابن ابي زرع ، المصدر السابق ، 286 .

68 - وبها انشئت احدى بواكير الامارات بالمغرب الاقصى التي اتخذت من الصفرية دليلها المذهبي . وباستثناء الدراسة الرائدة التي انجزها محمود اسماعيل عبد الرزاق عن الخوارج ببلاد المغرب وبعض الاشارات الواردة عنهم ضمن التواريخ العامة ، ما زالنا في حاجة الى دراسة مخصصة لتاريخ سجلماسة ، نظرا للدور المحوري الذي لعبته على مدارتاريخ المغرب الاقصى منذ تاسيسها سنة 140 هجرية الى منتصف القرن الخامس الهجري . ولقد صدر مؤخرا لحسن حافظي علوي كتاب يتناول العصور المتاخرة من تاريخ سجلماسة بعنوان : سجلماسة واقاليمها في القرن الثامن الهجري، منشورات وزارة الاوقاف والشوون الاسلامية ، الرباط 1997 مما يدعو الى العمل في بحث آخر على استكمال دراسة الاصول .

69 - البكري ، المصدر السابق ، 90 .

70 - راجع : نفسه ، 66 ، 75 ؛ مجهول ، الاستبصار ، 200 ؛ ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، 120 ، 134 ، 154 .

المصدرية، بل «بمطماطة امكسور وهي بلد كبير على نهر ملوية»[71] . والجدير بالملاحظة ان المؤرخ الاندلسي ابن حيان [72]يشير بدوره في نص تاريخي اقدم الى قبيلة بنفس الاسم منسوبة لذات الموضع بقوله : ان المقصود بـ«مطماطة اهل ملوية» ، الذين يرتفعون بنسبهم - كما هو شان باقي شعوب مكناسة - الى مادغيس بن بر ، حسب روايتي ابن حزم وابن خلدون[73] .

والى اقصى الشمال الشرقي للامارة ، اتخذت زواغة مضاربها بالقرب من مصب نهر ملوية ، حسبما يستفاد من رواية البكري[74] التي تنص على ان «بلد نكور حده ينتهي من جانب الشرق الى زواغة» . ولقد اقر ابن خلدون بصعوبة تناول هذا الموضوع باعتباره من المواضيع الشائكة اذ قال :«واما زواغة فلم يتاد الينا من اخبارهم وتصاريف احوالهم ما نعمل فيه الاقلام» . وبصرف النظر عن اوزاع هذا البطن المتناثرة ببلاد المغرب[75] ، بما في

---

71 - مجهول ، الاستبصار ، 193 . وامكسور هو الرسم الاصلي باللسان المحلي للموقع الذي ما زال الى اليوم يحمل نفس الاسم مع تحوير طفيف ناتج عن النطق المخفف للكاف التي تستحيل لدى بعض بطون البربر الى ما يشبه الياء : ميسور .

72 - المقتبس ، ج5 ، 370 .

73 - الجمهرة ، 496 ؛ العبر ، ج6 ، 155 . والملاحظ ان اسم هذا البطن قد ورد مصحفا في الجمهرة كالتالي : مطمامة . ولعل في كثرة الملاحظات من هذا النوع ما يفصح عن رداءة الطبعات المحققة لعدد من امهات المصادر وما يستحث الهمم على مراجعة جملة من المتون المتداولة بما في ذلك مسالك البكري وبيان ابن عذاري وعبر ابن خلدون وجمهرة ابن حزم واللائحة طويلة . ولا يسعنا الا ان نشير الى سطحية الانتقادات التي وجهت لنا من طرف مختصين فيما يتعلق باضطرارنا مرارا للرجوع الى الاصول المخطوطة لبعض المصادر المطبوعة باعتبار ان المطبوع يغني عن المخطوط ، حسبما هو شائع. الا ان الانخراط في تناول التاريخ العمراني والحضري والاجتماعي لبلاد المغرب يتطلب التحقيق في المفاهيم وتدقيق الالفاظ. وفي تقديرنا ان اتقان اللغة الامازيغية والاستعانة بالطبونيمية الشفوية من خلال المقابلات الميدانية كفيل بجعلنا اقل اندفاعا في التعامل مع جملة من النصوص العربية المحققة المتعلقة بالتاريخ الحضاري للغرب الاسلامي. ولا يخالجنا شك في ان مكانة الامازيغية بالنسبة للبحث في تاريخ الغرب الاسلامي لا تقل اهمية عن الاغريقية واللاتينية بالنسبة للتاريخ القديم .

74 - المصدر السابق ، 90 .

75- في ناحية قسنطينة وبجبال شلف ، ومنهم رهوط مفترقون في البراري بنواحي طرابلس، ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، 170.

ذلك فرع زواغة الشهير باحواز فاس[76] ، لا تعوز القرائن المؤكدة على صحة ما ذهبنا اليه بخصوص استقرار شعبة من زواغة باحواز جراوة .

وليس مصادفة على ما يبدو ان تتفق روايتي البكري وابن خلدون [77] على نعتها بـ«زواغة جراوة» ، تمييزا لها عن بقية الاوزاع المتناثرة. والملاحظ ان البكري [78] يعود في سياق آخر الى الجمع بين «جراوة وزواغة» . ومما يثير الانتباه ان ابن عذاري [79] يشير الى وجود «مدينة زواغة التي كانت للحسن بن ابي العيش مسيرة خمسة ايام» من حاضرة نكور. مع العلم ان جراوة هو الاسم الذي يطلق على المدينة التي اتخذها بنو ابي العيش قلعة يتحصنون فيها بهذه المنطقة ، حسبما فصلته جملة من المصادر التاريخية وكتب المسالك والممالك الجغرافية[80] . ان في هذا ما يفصح عن التلازم الذي نسج لدى الاخباريين فيما بين اللفظين : جراوة وزواغة ، كلاهما معرفا بالآخر ومميزا له .

والجدير بالذكر ان جراوة من الالفاظ ذات الدلالة القبلية المتجذرة في تاريخ المغرب القديم ، كما يتضح من خلال ما قيل عن انتساب «الكاهنة داهيا الزناتية ثم الجراوية» [81] في قبائل جراوة البترية المتاصلة بجبال اوراس . وفي تقديرنا ان الشعبة التي نحن بصددها قد استقرت باحواز ملوية خلال فترة الفتوحات الاسلامية على اثر مقتل الكاهنة داهيا فـ«افترق جراوة اوزاعا بين قبائل المغرب ، وكان منهم قوم بسواحل مليلة ، وكان لهم آثار بين جيرانهم هناك» حسب رواية ابن خلدون [82] . ومن المفيد الاشارة بهذا الصدد الى اقدام الفقيه الاندلسي النسابة ابن حزم على رفع اصول زواغة عبر سلسلة متصلة الى مادغيس بن

---

76 – ابن ابي زرع ، المصدر السابق ، 20 ، 139 .

77 – المغرب ، 90 ؛ العبر ، ج6 ، 283 .

78 – المصدر السابق ، 140 .

79 – المصدر السابق ، ج1 ، 176 .

80 – انظر : البكري ، المصدر السابق ، 88 وفي اماكن متعددة ؛ الحميري ، المصدر السابق ، 162 – 63 ؛ ابن حيان ، المقتبس ، 309 ، 382 ، 414 .

81 – الناصري ، المصدر السابق ، ج1 ، 92 . عن شعاب جراوة انظر : ابن خلدون ، العبر ، ج 7 11 –12 .

82 – العبر ، ج7 ، 13 .

بر[83] . ولدينا في اقدام صاحب الروض المعطار على تسمية مدينة بني ابي العيش بـ«جراوة مكناسة» منسوبة لهذه المجموعة القبلية الضاربة كما سلف الذكر منذ البداية على طول مجرى وادي ملوية ، ما يفصح عن سلامة هذا التحليل وعن اهمية ما يقدمه من عناصر كفيلة بفتح جملة من الاغلاق الملغزة . تجدنا اذا امام المكونات المتفرعة عن نفس الاصل القبلي تحيط في شكل حزام واسع بامارة نكور من اعالي ملوية حيث مضارب مطماطة الى مصبه عند ديار زواغة .

وتتشكل النواة المركزية المتحكمة في هذه الكتلة القبلية من مجموع الفروع المتشعبة عن زناتة والضاربة بنواحي «صاع والكدية المعروفة بتاوريرت»[84] . ويمثل «بنو يرنيان» الذين تواتر ذكرهم في جملة من المصادر القديمة[85] ، العمود الفقري لهذه المجموعة المتحزبة في قوة ضاربة . وينتسب هؤلاء حسب رواية ابن حزم المعتمدة من طرف ابن خلدون[86] في جد اعلى مشترك مع قبائل مغراوة وبني يفرن يدعى «يصليتن بن مسرا بن زاكيا» . وتضرب الفروع والفصائل المتشعبة عن بني يرنيان في «موطنهم بملوية من المغرب الاقصى»[87] ، حيث اتخذوا عددا من القصور والقلاع على طول مجراه الى حد اجرسيف .

وتجتمع «قبائل بني واسن»[88] مع بني يرنيان في نفس الجد الاعلى يصليتن بن مصرا

---

83 - الجمهرة ، 496 وذلك بقوله : «وولد سمجان بن يحيى : زواغة» . وتتصل السلسلة كالتالي : زواغة بن يحيى بن سمجان بن يحيى بن ضري بن مادغيس بن بر . ولا ندري هل هناك من علاقة بين هذه السلسلة وبين القبيلة الضاربة الي اليوم بالتخوم الجافة والشبه الجافة غربا من ملوية وجنوبا من قلعية والمعروفة بـ«بني بويحيي».

84 - البكري ، 90 .

85 - نفسالمصدر والصفحة ؛ ابن حيان ، المقتبس ، ج5 ، 370 ؛ ابن خلدون ، العبر ،ج6 ، 283

86 - الجمهرة ، 498 ؛ العبر ، ج6 ، 33 . ولقد افرد لهم ابن خلدون في مكان آخر فصلا خاصا ، انظر : ج6 ، 66 - 67 .

87 - ابن خلدون ، العبر ، ج7 ، 66 .

88 - هكذا ورد ت لدى ابن حزم بالواو ، الجمهرة ، 498 . وينطبق نفس الشيء على الرسم المذكور عند ابن خلدون في العبر ، ج7 ، 15 وفي اماكن متعددة . اما ابن حيان ، المقتبس ج5 ، 370 فينص عليها بالراء «بنو راسين» . في حين نجدها مثبتة لدى البكري بالميم وبدون ياء كالتالي : «بنو مراسن» وهو الارجح .

بن زاكيا وتتحزب معها اعتبارا لاشتراك مراقبتهما لمسالك التجارة الصحراوية الرابطة بين القطبين : سجلماسة ونكور، انطلاقا من مضاربها التي يوطنها ابن خلدون [89] بـ«القفر ما بين ملوية وصا» .

وثمة بطون اخرى تنتمي في نفس الكتلة القبلية وتتحزب معها في احدى اهم احلاف العصر ، ويتعلق الامر بـ«زناتة» التي ذكرها ابن خلدون [90] بهذا التعريف العام ضمن لائحة القبائل المنتجعة في التخوم الشرقية لبلاد نكور . ويضيف البكري في سياق حديثه عن البطون المتحيفة بحدود الامارة - في اشارة مقتضبة - ما يفيد بان المقصود :«زناتة اهل تابريدا» . وفي هذه الصفة ما يميزهم عن سائر البطون المتفرعة من صلب زناتة ، والتي تند عن الحصر كما هو معلوم . ولقد امكننا الوقوف على نص فريد وفي غاية الاهمية بخصوص الفصائل المتشعبة عن «زناتة : من بني سنان وحيمال وبني وراين وبني دهنة ومجاصة وبني مصلان» [91] .

الا ان المعاجم الجغرافية وكتب المسالك والممالك تكاد تصمت عن ذكر تابريدا التي لا نجد لها اثرا ضمن اسماء المواقع المغربية . من ثم الاهمية الخاصة التي تكتسيها التوضيحات التي تتناول بالتفصيل المراحل والسكك القائمة على الطريق من وجدة في اتجاه «صاع ومنها الى تابريدا ومنه الى مكناسة وهم اهل اخصاص ومنها الى عين الطير ومنها الى مدينة فاس» [92] .

ان في هذه التفاصيل ما يمكننا من ضبط موقع تابريدا ضمن خريطة المغرب الاقصى

---

89 - العبر ، ج7 ، 83 .

90 - نفسه ، ج6 ، 283 .

91 - ابن حيان المقتبس ، ج5 ، 370 . والملاحظ ان بني وراين استمروا الى اليوم يحملون نفس الاسم ويقيمون بمرتفعات الاطلس المتوسط المشرفة على ممر تازة . اما بقية الفصائل المذكورة ضمن هذا النص فمن المطلوب اخضاعها للدراسة الطبونيمية والطبوغرافية وللمقارنة المصدرية قصد تصحيح ما قد تحمله من تصحيف .

92 - البكري ، المصدر السابق ، 88 . ولعل في استثناء مكناسة باعتبارهم اهل اخصاص ، ما يدل على الطبيعة البدوية الترحالية لزناتة تابريدا ، علما بان المقصود بالاخصاص البيوت المتخذة للاقامة والاستقرار ، والتي تستعمل القصب في التسقيف . ولقد ذكر الخصيبي المنجم ، كتاب المواليد ، مخطوط الاسكوريال ، رقم 940 ، ورقة 48 وجه ان الاخصاص «كل بناء من قصب» .

مع تحديد ديار زناتة المقصودة هنا بما يكفي من الدقة . ولا يخالجنا شك في انها شغلت النطاق الممتد الى الضفة اليسرى لمجرى وادى ملوية . ابتداء من اجرسيف الى السفوح الجبلية المشرفة شمالا وجنوبا على ممر تازة . مصداق ذلك ، ما اورده ابن خلدون [93] من تفاصيل عمن اصبح من زناتة «ملوكا بتازة وتسول» . ويبدو انهم قد تمكنوا من الانتزاء بالمنطقة معلنين قيام مملكتهم الطائفية[94] في ظل الاختلال الشامل الذي مس العدوتين بالمغرب والاندلس قبيل قيام الدولة المرابطية .

ومهما يكن من امر ، فالواضح ان تابريدا قد شكلت الملتقى الفعلي لخط القوافل التجارية القادمة طولا من سجلماسة في اتجاه نكور ، بالطريق العرضي الرابط بين المغربين الاوسط والاقصى . من ثم الثقل الذي مارسته هذه التجمعات القبلية الضاربة في التخوم القصوى لبلاد نكور.

تجدنا اذا امام احدى اوسع الكتل القبلية المندمجة في امارة نكور والمتشعبة في عدد من البطون الممتدة عبر التخوم المتحيفة في اتجاه السهوب الجافة والشبة الجافة . ونظرا لغلبة «مكناسة وسائر بطون بني ورسطف»[95] على بقية الفروع المجتمعة معها في جد اعلى مشترك ، شاع في كتب التاريخ وحوليات العصر نعتهم جميعا بمكناسة . لذلك ، فمن الطبيعي ان يتم الجمع في الحوليات المعتمدة[96] بين «نفزة ومكناسة وغمارة» باعتبارها الاركان الثلاثة التي وضعت عليها اسس الامارة .

ولا تعوز القرائن الدالة على مكانة هذا التكتل وعلى دوره الفاعل في ماجريات الاحداث . على اثر عزو المجوس النورمان لنكور سنة 244 هجرية ، واختلال الاوضاع

93 – العبر ، ج6 ، 246 .

94 – من الملاحظ ان مصطلح عصر الطوائف قد اقتصرت دلالاته في الدراسات الحديثة على وسم الاوضاع الساسية بالاندلس . وهو خطا شائع ، علما باتساع نطاق الظاهرة لتشمل خلال القرن الخامس الهجري العدوة المغربية ، ان لم يكن مجموع دار الاسلام . ولعل في الوقوف على نماذج متزامنة من ممالك الطوائف بالمغرب الاقصى مثل مملكة سقوت البرغواطي بسبتة والامارة الازداجية بنكور ومملكة زناتة بتازة وتسول، ما يقدم العناصر الاولية للمراجعة ويستحث الهمم على فتح اوراش جديدة للبحث في الفصول المنسية من تاريخ المغرب الوسيط .

95 – ابن خلدون ، العبر ج6 ، 170 ؛ انظر كذلك : ابن حزم ، الجمهرة ، 496 .

96 – انظر ، ابن خلدون ، نفسه ، ج 6 ، 195 ؛ ابن ابي زرع ، المصدر السابق ، 20 .

الداخلية نتيجة تمرد بني ورياغل وكزناية ، لم تجد مكناسة - هي الاخرى - بدا من اعلان العصيان . وهو ما خصته بعض المصادر المعتمدة[97] بتفاصيل طريفة ، اذ ذكرت «امتناع مكناسة عن صالح وحبسوا مغارمهم ، فكتب اليهم يوعدهم وختم الكتاب وادخله في مخلاة وشدها على حماره وبعثه مع ثقة من ثقاته وقال : اذا توسطت بلاد مكناسة فاترك الحمار بما عليه وانصرف ففعل ، فاصابت مكناسة حمار صالح وكان معروفا بينهم واخذوا المخلاة ، فلما قراوا الكتاب ائتمروا على عقر الحمار والتمادي في امتناعهم ، ثم انصرف رايهم الى جمع ما كان عليهم لصالح فجمعوه وجللوا الحمار بملحفة مروية واتوا صالحا بالحمار مجللا ومغارمهم موفاة ، واستعتبوه فاعتبهم» .

يحمل هذا النص اكثر من دلالة عن طبيعة العلاقة السياسية والمالية التي كانت تربط هذه القبائل بمركز الامارة في نكور . ولا يخفى اثر اليد الطولى التي كان لامراء بني صالح بواسطة ما كانوا يتحكمون فيه من ادوات ، في تهديد واخضاع ابعد المناطق عن الحاضرة . حقيقة ان التمرد اقتصر على رفض اداء المستحقات الواجبة وفق النظام الجبائي الجاري بعموم البلاد، ولم يرق الى مستوى المفارقة لنظام الجماعة، الا انه يفصح عن استمرار اهمية التركيب القبلي العشائري في هيكلة النظام، وفق تراتب تحتل فيه بطون نفزة دور النواة المركزية .

وليس ادل على الثقل المتزايد للقبائل المتحيفة بالتخوم ، من اشراك زعاماتها في تسيير دفة الحكم ، وتقريب المشايخ المتنفذين من مركز القرار بدار الامارة . ونتوفر بهذا الخصوص على اشارة بالغة الدلالة لاحدهم ممن اشتهر باسم «قاسم صاحب صاع والكدية»[98] المعروف ايضا بالوسناني ، نسبة على ما يبدو، لاحدى الفصائل الزناتية المذكورة في بعض المصادر باسم «بني [و]سنان»[99] .

لم يقتصر دور مشايخ القبائل بالحاضرة على اسداء الراي وتقديم المشورة لامراء بني صالح ، بل شكلوا قوة سياسية وازنة بحجم القبائل الممثلة ، كفيلة بصياغة وتوجيه القرار. يتجلى ذلك من خلال التفاصيل المرتبطة بفشل حركة التمرد التي قادها الدعي ادريس بن

97 - البكري ، المصدر السابق ، 93 ؛ انظر كذلك : ابن عذارى ، المصدر السابق ، ج1 ، 177 .
98 - البكري ، نفسه ، 90 ؛ راجع كذلك : ابن خلدون . العبر ، ج6 ، 283 .
99 - ابن حيان ، المقتبس ، ج5 ، 370 .

سعيد ضد اخيه الامير صالح بن سعيد الذي «اشار عليه قاسم الوسناني صاحب صاع والكدية بقتله والح عليه في ذلك فامر الموالي بقتله فامتنعوا فامر فتى من فتيانه يقال له عسلون فقتله»[100] ارضاء لرغبة شيخ قبائل مكناسة واتقاء لشره .

ومن المعلوم ان نجم قبائل مكناسة قد تالق بعدئذ خلال بدايات القرن الرابع تحت زعامة موسى بن ابي العافية ، مستفيدة من اختلال اوضاع نكور وتوالي النكبات عليها نتيجة حملات التخريب الاموية والفاطمية المتوالية في موجات عاتية . لم يتوقف دور موسى بن ابي العافية عند حد اعلان المفارقة لنظام الجماعة القائم بنكور، بل سارع بلا هوادة في قلب الموازين لتصبح مكناسة بمثابة النواة القبلية المتحكمة وتتدحرج نفزة الى هامش من القبائل المفككة . وهو المشروع الذي وافق اهواء الخلافة الاموية بقرطبة ، فلم تذخر جهدا في دعمه برا وبحرا بالجند والمال وباصناف من السياسة والتدبير .

ولا تقل مشاركة قبائل البرانس[101] في صياغة فصول من تاريخ نكور اهمية . وبصرف النظر عما كان له من بلاء خلال الفترة السابقة للاسلام ، لا تعوزنا القرائن الدالة عن المكانة المتميزة لجملة من فروعها التي آثرت الاستقرار بالمغرب الاقصى ، وغدت على

---

100 - البكري ، المصدر السابق ، 93 .

101 - يتجلى من خلال احداث الفتح ان «عدة من قبائل البرانس» كانت تضرب بالمغرب الاقصى غرب تلمسان . انظر : ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج 1 ، 28 . ومن المعلوم ان كسيلة بن لمزم البرنسي قد سلف ان ظفر به ابا المهاجر قائد الفتح والوالي الاموي على افريقية وبلاد المغرب باحواز تلمسان «وعرض عليه الاسلام فاسلم» ، انظر : نفسه ، ج1، 28 - 29 . الا ان التغيير الذي مس سياسة الامويين المغربية قد افضى الى تمرد البربر بقيادة البرانس وزعيمهم كسيلة بن لمزم الذي تمكن من دخول افريقية حيث «امن كسيلة من بقي بالقيروان من المسلمين واقام بالقيروان اميرا على سائر افريقية والمغرب وعلى من فيه من المسلمين» . ان هذا النص يصرح بان كسيلة اعلن نفسه اميرا على المسلمين ، وهو ما لم تستطع الدراسات المعاصرة قراءته ، كما لم تتمكن من قراءة النص السالف الذي يؤكد بان كسيلة قد سبق له ان اسلم في ولاية ابي المهاجر . وهو ما ينطبق على معظم ما تتضمنه المصادر القديمة التي كثيرا ما لا تقرا قراءة توثيقية هادئة تتوخى اكتساب المعارف التاريخية . بلغت هذه الآفة الغاية في الفكر العربي المعاصر الميال الى الجدال النظري والعراك الكلامي حتى غدت التاريخانية ان صح التعبيرمطلبا في كل الحقول المعرفية المفتقرة الى هذا البعد الضروري للشروع في انجاز الحلقات الاولى من التراكم العلمي.

اثر الفتوحات الاسلامية «من اعظم قبائل بلاد المغرب»[102] ، كما اشتهرت بكونها «اكثر عددا واشد باسا»[103] . وثمة دلائل كاشفة عن اهمية البطون القبلية البرنسية ضمن النسيج الاجتماعي لبلاد نكور وعن تعاظم ثقلهم السياسي ، على الاقل الى حدود منتصف القرن الثالث الهجري . مصداق ذلك ، اضطرار صاحب نكور الى التعويل عليهم في طرد الغزاة النورمان المحتلين للحاضرة ، فاجتمع اليه «البرانس واخرجوهم عنها»[104] . ولعل في اقدام البرانس ، على غرار بقية القبائل ، على التمرد واعلان العصيان ضد الامير كما فصلناه سابقا ، ما يؤكد ذات الحقيقة .

والغالب على الظن ان مواطن البرانس ببلاد نكور قد شغلت شريطا من المرتفعات الجبلية الممتدة طولا ، ابتداء من حصن مسطاسة وساحل بالش شمالا الى سفوح الحوض الاعلى لنهر ورغة في الداخل . ويبدو من خلال جملة من الادلة ان هذه البطون البرنسية هي بالذات المقصودة في المصادر المعتمدة بصنهاجة . وبصرف النظر عن اقتران «صنهاجة وغمارة»[105] في نفس السياقات ضمن عدد من المتون ، اعتبارا لجوارهما الجغرافي ولاندماجهما المبكر في امارة نكور، ففي نص للبكري[106] ، ما يؤكد ذات الحقيقة اذ قال : و«بالش مرسى صنهاجة» ، نسبة لهذه البطون القبلية الضاربة في السفوح الجبلية التي تزداد ارتفاعا كلما تعمقنا الى الداخل .

ومن الملاحظ ان الساحل الممتد من مسطاسة غربا الى حوز بادس شرقا مرورا بمرسى بالش و«قلعة صنهاجة» استمر معروفا الى عصر متاخر في انتسابه لصنهاجة[107] . ومما يثير الانتباه ان المصادر القديمة التي تناولت اعراض البربر بشمال المغرب الاقصى

---

102 – مجهول ، الاستبصار ، 194 ويتعلق الامر هنا بقبائل اوربة البرنسية . لمزيد من التفاصيل عن مكانتهم ضمن الخريطة الاثنية بالمغرب الاقصى راجع : نفسه ، 200 وكذا الناصري ، المصدر السابق ، ج1 ، 153 .

103 – ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، 192 .

104 – ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، 283 .

105 – راجع : ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج1 ، 176 ؛ الحميري ، الروض المعطار ، 577 ؛ مجهول ، الاستبصار ، 136 .

106 – المصدر السابق ، 90 .

107 – البادسي ، المصدر السابق ، 60 ، 95 .

تميز بما لا يدع مجالا للشك بين «صنهاجة ونفزة»[108] . وبالمثل ، فمن الملاحظ ان ابن خلدون[109] يذكر في سياق حديثه عن غمارة ان «صنهاجة جيرانهم» . نفهم اذا التمييز الذي اصر ابن عذاري[110] على ابرازه ضمنا بين نفزة وصنهاجة بقوله متحدثا عن ذرية صالح بن منصور: و«كان له من الولد ثلاثة : المعتصم وادريس امهما صنهاجية ، وعبد الصمد» سليله الثالث من امراة نفزية على ما يبدو . ولعل في عقد المصاهرة في قمة السلطة بين نفزة وصنهاجة البرنسية ، ما يفصح عن ثقل هذه الاخيرة ابان فترة التاسيس . يتجلى ذلك من خلال اجماع المتنفذين على اثر وفاة العبد الصالح على تولية «المعتصم ومكث فيهم يسيرا ومات فولوا على انفسهم ادريس»[111] ، وكلاهما شقيقان من نفس الام الصنهاجية . ان في مجموع العناصر السابقة ما يجعلنا نمسك بالعناصر الضرورية لتوطين صنهاجة بما يكفي من الدقة الجغرافية .

وليس ادل على التطابق بين الاصل البرنسي لهذه المجموعة القبلية وشيوع تسميتها بصنهاجة في المصادر المتداولة من اقرار القلقشندي[112] بان «القبيلة الثالثة من البرانس : صنهاجة» بالذات . وهي التي وردت لدى ابن خلدون وغيره[113] باسم «صنهاجة مفتاح» ، تمييزا لها عن بقية البطون الصنهاجية الضاربة في اكثر من مكان على طول وعرض بلاد المغرب[114] .

والراجح ان صنهاجة مفتاح هذه هي بالذات المقصودة ضمن بعض كتب التاريخ

---

108 – انظر : ابن خرداذبه ، المصدر السابق ، 90 .

109 – العبر ، ج 6 ، 320 .

110 – ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج1 ، 176 .

111 – نفس المصدر والصفحة .

112 – القلقشندي ، قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان ، تحقيق ابراهيم الابياري ، القاهرة 1963 ، 170 .

113 – العبر ، ج6 ، 284 ؛ ابن ابي زرع ، المصدر السابق ، 209 . وقد قراها احد الدارسين خطا على ما يبدو كالتالي «مصباح» انظر : التقي العلوي ، المرجع السابق ، 224.

114 – عن التمييز بين صنهاجة الخلص وصنهاجة الخارجة وصنهاجة بني تاغاك ملوك تادمكة ، راجع ابن حوقل ، المصدر السابق ، 104 – 105 . كما يشير ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج 1 ، 26 بخصوص نفس الموضوع الى ان «بطون صنهاجة كثيرة تفترق من قبيلتين» .

والانساب [115] التي تجردت لاحصائها ضمن الاجذام السبعة المكونة لشعبة البرانس . وليس صدفة ان يتم تضمين ازداجة وكتامة واوربة المتفرعة من نفس الاصل البرنسي في جملة الاجذام المذكورة . ومن الملاحظ ان هذه الفروع الثلاثة تحيط بنواة بلاد نكور ، اي بمضارب نفزة في شكل حزام يمتد من احواز وليلي غربا الى نواحي وهران وتلمسان شرقا [116].

ولقد سلفت الاشارة الى ان حدود نكور تنتهي من جانب الغرب الى «صنهاجة ومن ورائهم اوربة حزب فرحون» [117]. مما لا يدع مجالا للشك في صحة هذا التحليل ومما يكشف من جهة ثانية عن الحدود الفاصلة من هذه الناحية بين امارتي بني صالح والادارسة . تجدنا اذا امام بطنين متجاورين : صنهاجة واوربة متفرعين عن نفس الاصل القبلي ، اذ ان كليهما من «ولد برنس» [118] ، الاول يدور في فلك نكور والثاني يشكل العمود الفقري لدولة الادارسة [119]. وفي نفس السياق ، يتناول ابن ابي زرع [120] بالذكر «غمارة وصنهاجة واوربة»، بما يؤكد صحة التوطين الجغرافي لهذه البطون المتجاورة حسبما اقدمنا عليه في هذا التحليل .

ومن ابرز التجمعات القبلية التي اندمجت منذ عهد مبكر في امارة بني صالح وتآلفت مع نفزة وصنهاجة لصياغة النواة المؤسسة للامارة : قبائل غمارة . يتجلى ذلك من خلال ما

---

115 – راجع : ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، 117 ؛ الناصري ، المصدر السابق ، ج1 ، 65 ؛ ابن حزم الجمهرة ، 495 .

116 – مما يجعلنا نميل الى الاعتقاد بان استقرار البرانس بهذا الشريط قد حدث على اثر مقتل الزعيم كسيلة بن لمزم في حروب الفتح بعدما توبعت الفلول المنهزمة من بطش القائد الاموي زهير بن قيس البلوي «الى وادي ملوية بالمغرب» ابن عذاري ، البيان ، ج1 ، 32 .

117 – البكري ، المصدر السابق ، 90 .

118 – ابن حزم ، الجمهرة ، 495 ؛ ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، 117 .

119 – لاحظ تكرر نفس الظاهرة سواء بالتخوم الجنوبية الشرقية لامارة نكور حيث الكتلة القبلية المكناسية مقسمة الى قسمين : الاولى تابعة لبني واسول اصحاب سجلماسة والثانية تدور في فلك نكور ، او بهذه الجهة الجنوبية الغربية حيث انقسمت البرانس ايضا الى كتلتين : صنهاجة المنجذبة الى نكور واوربة الدائرة في فلك فاس حاضرة الادارسة .

120 – المصدر السابق ، 209 .

تواتر ذكره في جملة من المصادر التاريخية وفي كتب المسالك والممالك الجغرافية[121] التي اجمعت على القول بان غمارة قد اسلمت على يد العبد الصالح صالح بن منصور صاحب نكور خلال البعث الاول ايام الفتح .

حقيقة ان ثمة اخبارا تشير لدخول عقبة ابن نافع الفهري الى بلاد طنجة خلال الستينات من القرن الاول الهجري فـ«اطاعته غمارة واميرهم يومئذ يليان»[122] ، وقد حصل ذلك كما سلف الذكر بدون حرب وانما بـ«الصلح والمسالمة بسياسة يليان»[123] . الا انه من المفيد الانتباه الى الفرق بين مفهومي الصلح والمسالمة ذوي البعدين السياسي والدبلوماسي المنعكسين مباشرة على الوضعين الاجتماعي والمالي ، الجاري بهما العمل في علاقة الفاتحين بالشعوب الاخرى ، وفيما بين الاندماج الحضاري في دار الاسلام وحصول القناعة بالمعتقدات والتصورات الجديدة . والراجح ان اختلالات عصر الفتح قد افضت الى اقتناع غمارة باهمية الانفصال عن امارة يليان والانتظام جملة في سلك مشروع صالح بن منصور المتمحور حول نكور .

ومن المعلوم ان «غمارة من بطون المصامدة»[124] ، ينتسبون حسب بعض الروايات الى غمار بن مصطاف بن مليل بن مصمود»[125] . بينما يعتقد «بعض العامة انهم عرب غمروا تلك الجبال فسموا غمارة»[126] . والمقصود هنا «جبل غمارة [وهو] من اخصب جبال المغرب» حسب جملة من الروايات[127] ، او بالاحرى «جبال غمارة»[128] الممتدة عبر «رحاب الريف بساحل بحر الدر من عن يمين بسائط المغرب...[في شكل] جبال شاهقة اتصل بعضها ببعض سياجا

121 – راجع : البكري ، المصدر السابق ، 91 ؛ مجهول ، الاستبصار ، 136 ؛ الحميري ، المصدر السابق ، 577 ؛ ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، 176 .

122 – حدث ذلك في ولاية عقبة بن نافع الثانية ايام الخليفة الاموي يزيد بن معاوية سنة 62 هجرية ، انظر : ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، 142. وفي مكان آخر يؤكد على ذات الحقيقة بالقول: ان « يليان امير غمارة » ، نفسه ، ج6 ، 193 .

123 – ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج1 ، 26 .

124 – ابن خلدون ، العبر ، ج6 280 .

125 – نفسه ، ج6 . 117 – 118 .

126 – نفسه ، ج6 . 280 .

127 – مجهول ، الاستبصار ، 190 ؛ الحميري ، المصدر السابق ، 134 .

128 – ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، 289 ، 320

بعد سياج »[129] ، خمس مراحل او ازيد طولا في خمس مراحل عرضا . وهو بالذات الموضع الجغرافي المصطلح على تسميته في مصادر العصر نسبة لاهله «بلد غمارة»[130] و«مواطن غمارة»[131] .

ويتضح الثقل الديموغرافي للبلد من خلال التصريح بتشعب ما احتواه من «قبائل كثيرة من غمارة وهى امم لا تحصى»[132] . نجد تاكيد ذلك لدى ابن خلدون[133] الذي لم يتردد عن القول : بانـ «هم شعوب وقبائل اكثر من ان تحصر». تجلى ثقلهم هذا في اكثر من مناسبة ، نذكر منها دعم غمارة لثورة داوود الرندي الخارجية الموجهة ضد مؤسس الامارة صالح بن منصور كما سلف الذكر ضمن الباب الاول من هذا العمل .

ولا تعوز الاشارات الكاشفة عن مسايرة قبائل غمارة لمهب رياح المذهب الخارجي الصفري الذي اصبحت له سوق نافقة بالمغرب الاقصى وببلاد طنجة بالذات منذ بدايات القرن الثاني الهجري . فبصرف النظر عما قيل عن تخلي غمارة خلال هذا التاريخ عن تقاليدها في اسدال الشعور واتخاذ الظفائر وتطييبها وتحولهم جملة الى سنة «حلق الرؤوس اقتداء بالازارقة واهل النهروان»[134] ، فلقد اشار ابن خلدون[135] بوضوح تام الى هذا الموضوع بالقول :«ولم تزل الخوارج تقصد جبالهم للمنعة فيها» .

مع ذلك ، ورغم بعض الاضطرابات الناتجة عن اختلالات عصر الفتح ، يبدو من خلال داب المصادر التاريخية على ذكر «نفزة ومكناسة وغمارة»[136] في سياق متسلسل ضمن نفس المتن ان هذا اللف القبلي الثلاثي قد نجح في الحفاظ على التماسك والوحدة الى غاية سبعينات القرن الثاني الهجري . لم يدم ذلك طويلا ، اذ سرعان ما «انتفضت غمارة بعدها

---

129 - نفسه ، ج6 ، 281 .

130 - البكري ، المصدر السابق ، 100 .

131 - ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، 295 .

132 - مجهول ، الاستبصار ، 190 .

133 - العبر ، ج6 ، 281 .

134 - مجهول ، اخبار مجموعة ، النص المخطوط ، 16 - 17 ؛ انظر كذلك ، مجهول ، الاستبصار ، 193 .

135 - العبر ، ج6 ، 281 .

136 - انظر : نفسه ، ج6 ، 195 وكذلك ابن ابي زرع ، المصدر السابق ، 20 .

على سعيد فخلعوه وولوا عليهم رجلا منهم اسمه مسكن وتزاحفوا »[137] على نكور التي كادت ان تختل تحت ضربات جموعهم ، في احدى اكبر واخطر الثورات التي زعزعت بنيان الامارة.

وبرغم نجاح امير نكور سعيد بن ادريس في صدهم وتشتيت جمعهم وقتل زعيمهم ، يبدو ان ثمة انشقاقا سياسيا ومذهبيا قد مس في العمق قبائل غمارة ابان قيام دولة الادارسة. انعكس ذلك على المستوى الجغرافي بانجذاب البطون الضاربة في الشمال والغرب نحو اوربة البرنسية ، يجمعهما الانتماء للمذهب الزيدي العلوي ذي الابعاد الاعتزالية والانخراط في سلك الدعوة الادريسية . في حين استمرت الفروع المشارفة لبلاد صنهاجة في طوع صاحب نكور. وهو خط التماس الذي عمد اليعقوبي[138] في اقدم رواية لدينا عن الحدود الغربية لامارة بني صالح الى ضبطه بالقول :«واول حد مملكتهم بلد يقال له غميرة». وفي نص لاحق يتعلق بذات الموضوع ما يقدم تفاصيل اضافية اذ يصرح ان بلد نكور «ينتهي من جانب الغرب الى قبيل من غمارة يعرفون ببني مروان وبني حميد»[139] .

نخلص الى ان نفزة قد شكلت النواة القبلية المحورية التي انتظمت على اساسها اركان الامارة . ومنذ البداية تمكن المشروع الجديد الذي وضعه صالح بن منصور من لم قبائل صنهاجة البرنسية وغمارة المصمودية ومكناسة الزناتية ، في تكتل قبلي متارجح بين التكامل والانسجام - الى حد الشروع في الذوبان تحت تاثير التالق التجاري واستبحار العمران الحضري - وبين التعصب القبلي والانفلات العشائري الذي هدد في اكثر من مرة بانشطار الامارة .

ونتوفر على بعض ما تخلف من اطلال وبصمات كاشفة عن دور التجارة والنشاط الحرفي وتاثير العمران الحضري ، في خلخلة البنيان القبلي وتوفير اسس الانتظام الاجتماعي وفق تراتب طبقي ، في اول نموذج للتحول النوعي بالغرب الاسلامي . ومن المفيد الانتباه الى مكانة «اصحاب السلامة من التجار»[140] بنكور والمزمة ، باعتبارهم المفتاح المتحكم في تدفق البضائع وتراكم الاموال . والجدير بالذكر ان هذه الطبقة التي عادة ما تصنف

137 - ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، 284 .

138 - المصدر السابق ، 357 .

139 - المصدر السابق ، 90 .

140 - ابن حيان ، المقتبس ، ج5 ، 414 .

ضمن «الاكفاء» من «اوساط » الناس و«متوسطي الحال»[141] ، لم تحظ بعد بما تستحقه من عناية في الكتابة التاريخية المعاصرة التي تتناول العصر الوسيط . ومن المفيد بهذا الخصوص التذكير بتقويم احد ابرز الفقهاء المعاصرين لابن حيان اذ قال في راي مماثل «واسلم الطبقات الطبقة المتوسطة»[142] .

ويبدو من خلال ما سلف ذكره عن تحكم محور نكور - المزمة في شرايين المواصلات البرية والبحرية بمجموع الحوض الغربي للمتوسط -الى حدود مستهل القرن الرابع الهجري- وعن احوال المكاييل والسكة وتدفق البضائع ونشاط الاسواق وغير ذلك مما يرتبط بالتجارة والتجار ، اننا امام اول نموذج كاشف عن بواكير النظام التثميري التعاقدي بالغرب الاسلامي[143] وعن قدراته على خلخلة البنيان القبلي العشائري .

ومن ابرز المظاهر الدالة على هذا المنحى ، التمفصل الاجتماعي داخل الحاضرة نكور بين «الخاصة» و «العامة»[144] ، باعتبارهما طبقتين اجتماعيتين تبلورتا استنادا الى موقعهما من الثروة ودورهما في النشاط الاقتصادي . وعلى عكس ما هو شائع من خلط وابهام ان لم يكن من جهل لدى المعاصرين بهذا الخصوص ، فالجدير بالملاحظة ان القدامى لم يذخروا جهدا في تحديد مفهوم العامة اعتمادا على المعيار الاقتصادي والموقع في الهرم

---

141 - عن استعمالات هذه المصطلحات في المصادر العربية ، انظر على سبيل المثال لا الحصر : الفارابي ، رسالة في آراء المدينة الفاضلة ، تحقيق فريدريك ديتريش ، ليدن 1964 ، 8 ؛ ابن الفقيه الهمذاني ، المصدر السابق ، 1 ؛ ابن رضوان ، المصدر السابق ، 318 . ولقد خصص محمود اسماعيل بحثا في هذا الموضوع بعنوان : دور الطبقة الوسطى في الفكر والتاريخ الاسلامي صدر ضمن ، دراسات في الفكر الاسلامي ، القاهرة 1994 ، صفحات 11 - 35 .

142 - الباجي ، وصيته لولديه ، تحقيق جودة عبد الرحمن ، مجلة المعهد المصري للدراسات الاسلامية، العدد 3 م1 ، مدريد 1955 ، 45 .

143 - وهو الاصطلاح الانسب للدلالة على النمط الذي وقفنا على بعض خصائصه وعلى جملة من مظاهره باندلس الخلافة . كما تابعنا التنقيب على تداعياته باندلس الطوائف ضمن الدراستين اللتين خصصناهما على التوالي لعامة قرطبة ثم لعامة اشبيلية اللتين استغرقتا قرابة عقدين من العمر. وهو ما لخصناه في المحاضرة السالفة الذكر التي القيناها بكلية الآداب بتطوان يوم 15 يناير 1995 بعنوان: « التاصيل التاريخي للنظام التثميري التعاقدي بالغرب الاسلامي» .

144 - انظر : البكري ، المصدر السابق، 93 ، 94 ؛ ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج1 ، 177 .

الاجتماعي . ومن جملة التعاريف ، نذكرعلى سبيل المثال لا الحصر تحديد اخوان الصفا [145] العامة فيمن «فنيت ابدانهم في خدمة اهل [الدنيا] وكثرت همومهم من اجلها ولم يحظوا بشيء من نعيمها ولذاتها» . على غرارهم عرف الفارابي[146] العامة باعتبارهم «الذين يَخدمون ولا يُخدمون ويكونون في ادنى المراتب ويكونون هم الاسفلون» .

وقد سلفت الاشارة ضمن الفصول السابقة الى تصاعد الثقل الاجتماعي والسياسي لعامة نكور من السوقة والحرفيين ، الذين قدموا اولى صور الصراع الاجتماعي الحضري ذي العمق الطبقي بالغرب الاسلامي . تجلى ذلك في عدة فصول ، نخص منها بالذكر تجردهم لانقاذ الشرعية ودعم الامارة من مخاطر سطوة الجند وارباب الدواوين من الخاصة الذين انتهت بهم الجراة الى مهاجمة القصر وخلع الامير سعيد بن صالح ، «فقامت العامة فاخرجوهم من البلد وهزموهم»[147] في سابقة تاريخية مثيرة للانتباه .

ويبدو من خلال جملة من المؤشرات ان آل صالح قد تفطنوا منذ عهد مبكر الى اهمية بناء ادوات وخطط خاصة بالامارة تسمو عن الاختلافات القبلية ، ولا تمت بصلة الى السخائم العصبية المحلية . لذلك عمدوا الى الاستكثار من اقتناء العبيد البيض المعروفين بالصقالبة واتخاذهم بطانة . الا ان اعدادهم قد بلغت من الكثرة وسطوتهم من القوة والمناعة ان راموا الانفراد بالسلطة ، مقدمين عبيد الله اخ الامير القائم سعيد بن صالح في جملة كبيرة من آل صالح الى سدة الحكم ، فيما يكشف عن اكبر حركة انقلاب يقودها قطاع من الخاصة بنكور . وفي نص متواتر ، ما يفصح عن مكانة الفتيان الصقالبة ضمن اجهزة

---

145 - الرسائل ، نشر خير الدين الزركلي ، القاهرة 1928 ، ج1 ، 258 . ولا يسعنا في هذا المقام تعداد بقية المعايير المستعملة لدى القدامى في تصنيف الناس الى عامة وخاصة وخاصة الخاصة ...الخ ، الثقافية والاخلاقية والدينية ، فضلا عما داب المتصوفة والفقهاء والمتكلمون على استخدامه من تعابير باستعارة الادوات الاجتماعية المتخصصة لاستعمالها بدلالات مخالفة في حقولهم المعرفية . وهو ما لم يتمكن المعاصرون من الانتباه اليه بعد ، علما بالتخلف الذي ما زال يجثم على قطاعات هامة في البحث اللغوي العربي المعاصر الذي ظل اسيرا اما للقواعد النحوية وللمباحث النمطية الموروثة عن الماضي او منجذبا بانبهار الى الخلاصات والشبكات النظرية والفلسفية والتطبيقية في اللسانيات المعاصرة .

146 - المصدر السابق ، 55 .

147 - البكري ، المصدر السابق ، 93 ؛ ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج1 ، 177 - 178 .

الحكم وعن طبيعة العلاقة التي كانت تربطهم بالامير سعيد بن صالح الذي جلس على صغر سنه لاخذ البيعة من الخاصة والعامة فـ«دخل عليه عبيدهم الصقالبة فسالوه العتق فقال لهم انتم جندنا وعبيدنا ولا تدخلون في المواريث ولا تجري عليكم المقاسم فما طلبكم للعتق ؟ فالحوا عليه في ذلك فابى فناله منهم جفاء وغلظة»[148] .

ويبدو من خلال رواية البكري ان ثمة اقلية يهودية قد تعايشت في ظل مناخ التسامح الديني مع غيرها من المكونات المجتمعية ، مستفيدة من حركة التبادل التجاري الى الافاق البعيدة ، ومن نشاط الاسواق بالحاضرة . ولا يستبعد ان يكون لها بداخل الحاضرة ربض خاص «في الجوف [حيث]باب اليهود »[149] المعروف لذلك باسمهم . والراجح انهم قد ساهموا منذ وقت مبكر في استجلاب الرقيق الصقلبي الابيض من مواطنه بالارض الكبيرة عبر الاندلس الى نكور . مصداق ذلك ، رواية ابن حوقل[150] التي نصت على ان «جميع من على وجه الارض من الصقالبة الخصيان فمن جلب الاندلس...يفعل ذلك بهم تجار اليهود ».

ومن جهة اخرى ، لم يذخر آل صالح وسعا في اصطناع الرجال الذين عرفوا بالموالي من خاصة جند الامارة[151] . ولعل فيما قيل عن انهزام سعيد بن صالح على يد بني يصليتن المتمردين عليه بتمسامان فـ«قتلوا من مواليه نحو الف رجل» ، ما يقدم مؤشرا اضافيا لتقدير حجم جند الحاضرة ، بالقياس مع مقاتلي اهل الطاعة من المنتمين في البطون والعشائر القبلية . ندرك اذا لماذا كان على قبائل مكناسة ان تحسب الف حساب ليستقر بها الراي على نبذ المفارقة والعودة تحت طائلة التهديد الى سلطان الجماعة .

الا ان العامل القبلي ما لبث ان عاد للتحكم من جديد في بنيان الامارة . وبصرف النظر عما سلف ذكره عن ثورة غمارة والبرانس وعصيان مكناسة وزناتة اهل تابريدا ، ففي

---

148 - البكري ، نفس المصدر والصفحة ؛ ابن عذاري ، نفس المصدر والصفحة . وهو ما سيحدث لاحقا بتفاصيل تكاد تكون متشابهة الى حد مثير بقرطبة الخلافة ، وبالذات عند وفاة الحكم المستنصر ، اذ كان الصقالبة « اكثر جمعا واحد شوكة يظنون ان لا غالب لهم وان الملك بايديهم » حسب رواية ابن عذاري ، نفسه ، ج 2 ، 259 ، لمزيد من التفصيل انظر احمد الطاهري ، عامة قرطبة ، 199 - 201 .

149 - البكري ، المصدر السابق ، 90 .

150 - المصدر السابق ، طبعة بيروت ، 1979 ، 106 .

151 - راجع ، ابن عذاري ، نفسه ، ج1 ، 178 . البكري ، نفسه ، 94 .

تمرد بني ورياغل وكزناية اولا ثم في «اعلان بني يصليتن بالخلاف» بعدئذ ، ما يفصح عن الوهن الذي ما فتئ يدب في المكونات العصبية المشكلة للمجموعة القبلية المؤسسة : نفزة. ما كان لتوالي الضربات البرية والبحرية ، اموية وعبيدية ضد نكور ، وتعاقب عمليات التخريب التي طالت العمران الحضري وعمت البلاد والعباد ، الا ان تفضي الى تفكيك النواة القبلية المركزية : نفزة وتداعي بطونها المتفرعة ، مما فسح المجال امام جملة من الفصائل الطارئة للاستقرار بالمنطقة .

اسفر ذلك عن ارتباك التوازن الاجتماعي ، فسارعت احدى المجموعات القبلية الضاربة في نواحي وهران بالمغرب الاوسط الى استغلاله . ويتعلق الامر بقبيلة ازداجة المتاصلة ضمن الاجذام السبع المتفرعة عن البرانس[152] ، لما كانت عليه ازداجة من «وفور وكثرة»[153] . ونظرا للضعف الذي دب في بيت بني جرثم الحاكم المتفرع عن آل صالح ، ولما آلت اليه اوضاع نكور من اختلال ، «زحف اميرهم يعلى بن الفتوح الازداجي سنة ست واربعمائة»[154] ، مخترقا قبائل نفزة وضاربا في احواز نكور«مستظهرا بوفور قبيلة»[155]. استمرت الحرب سجالا بين الطرفين طوال ما ينيف عن اربع سنوات ، لينتهي الامر بانقراض آل صالح على يد هذا الجذم البرنسي «فغلبهم على نكور وخربها»[156] في رابع حملة هدم للعمران الحضري .

لم يكتف المتغلبون «بقتل من بقي بنكور من اولاد صالح وجرثم»[157] ومتابعة الفصائل والبيوتات المتفرعة بالمصادرة والنفي «من جميع بلاد نكور»[158] ، بل عمدوا ايضا الى اعادة صياغة النظام الاجتماعي على اساس قبلي تحتل فيه ازداجة دور النواة البديلة المتحكمة في

---

152 – وهي كالتالي : ازداجة ، مصمودة ، اوربة ، عجيسة ، كتامة ، صنهاجة واوريغة. ابن خلدون ، ج6 ، 117 . وقد افرد لهذا الجذم فصلا خاصا بعنوان : « الخبر عن ازداجة ...» نفسه ، ج6 ، 190 .

153 – نفسه ، ج6 ، 191 .

154 – نفسه ، ج6 ، 286 .

155 – ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، 179 .

156 – ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، 286 .

157 – ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، 179 .

158 – البكري ، المصدر السابق ، 99 .

السلطة بواسطة زعيمها يعلى بن الفتوح الازداجي . فما كان الا ان «بايعته قبائل البربر»[159] الضاربة بالمنطقة في لف جديد . لم يفلح كما هو معلوم في التصدي لمرابطي لمتونة الذين سرعان ما اكتسحوا البلاد «وخربوا المدينة»[160] نكورمرة اخرى واخيرة ، فلم تعمر بعد .

جميع العناصر تصب في اتجاه ابراز خصائص هذه المرحلة المتميزة بخراب العمران الحضري والعودة للانتظام من جديد في الاطار القبلي وا تجاه الحياة الاجتماعية نحو الانكماش في الاطار البدوي . ولعل فيما تعرضت له المنظومة القبلية القديمة من تفكك واعادة تركيب في ظل اختلالات العصر ، ما افضى الى اختفاء نفزة من متون المصادر اللاحقة . والراجح انها لم تعد ابتداء من القرن الخامس الهجري تشكل اطارا للتعريف ، بعدما تناثرت وحداتها وتداخلت بعض الفصائل المتفرعة مع غيرها وانتظمت فيما استجد من لفوف بالمنطقة.

وبينما احتفظت كزناية وبني يزناسن وبني وياغل وغيرها من البطون باسمائها الاصلية، لم يعد اهل ابي الحسن بتمسامان يعرفون كما في القديم ببني يصليتن . بالموازاة لذلك تدحرجت بعض مستويات التراتب القبلي فاسحة المجال لتالق جملة من الفصائل المتفرعة ، التي غدت بمثابة اصول جديدة للانتساب . نحص منها بالذكر«بني سعيد»[161] المتفرعين عن سعيد بن ادريس رابع امراء بني صالح واكثرهم خلفا[162]. اما بقية الاعقاب المتفرعة عن آل صالح بن منصور فقد آلت الى الانقراض . لا سيما «اولاد صالح وجرثم»[163] المعروفين في المصادر التاريخية على التوالي بـ«بني صالح»[164] و«بني جرثم»[165]، الذين شملهم حد السيف وُغرب من خلص منهم في الافاق على يد يحيى بن فتوح الازداجي،

159 - ابن الخطيب ، اعمال الاعلام، 179 .

160 - نفس المصدر والصفحة .

161 - البكري ، المصدر السابق ، 97 ؛ ابن ابي زع ، المصدر السابق ، 382 ؛ ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، 176 . وما زال بنو سعيد الى اليوم يحملون نفس الاسم ويضربون حول راس افراو في المنطقة الممتدة من وادي سيدي صالح الى مصب نهر كرط.

162 - عن كثرة اعقاب هذا الامير راجع الرسم الملحق رقم 9 المتعلق بشجرة نسب آل صالح التي انجزناها اعتمادا على جملة من المصادر العربية .

163 - ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، 179 .

164 - ابن حوقل ، المصدر السابق ، 104 -105 .

165 - البكري ، المصدر السابق ، 99 ؛ ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، 179 .

المستظهر عليهم بوفور قبيله كما سلف الذكر . والغالب على الظن ان اعقاب يوسف بن يعلي ثاني امراء ازداجة بنكور قد تمكنوا من الانتظام في فصيلة ما زالت الى اليوم تعرف بآيت يوسف وعلي المندمجين كربع هام في قبيلة بني ورياغل .

ولا يستبعد ان يكون بنو وارشكين المقيمون بالمنطقة الواقعة بين تمسامان وبني سعيد قد تفرعوا في شكل فصيلة عن جدهم الاعلى «محمد بن سعيد بن ابي سليمان واسمه وارشكين...من نفزة ، وهو المعروف بحمدون والملقب بالاصمعي» حسب تدقيقات شيخ المورخين ابي مروان بن حيان[166] . ويضيف ابن حيان بانه من بني يطفت الذين سبق ذكرهم كفرع من نفزة . مما يجعلنا نعتقد باقدام سادس امراء نكور سعيد بن صالح على تشتيت بني يطفت على اثر خيانة القائد حمد بن العياش فتغرب فصيل منهم للاستقرر في مواطنهم الحالية غرب ديار بني ورياغل ، بينما آثر بنو وارشكين الاستقرار في مواطنهم الاصلية . مع ذلك يبقى هذا التحليل مجرد فرضيات اولية تنقصها الدلائل التاريخية .

وتطالعنا المصادر التاريخية ابتداء من منتصف القرن الرابع الهجري وطوال القرون اللاحقة باسماء جملة من الفصائل والعصائب والافخاذ المساهمة في نسج الخريطة القبلية ببلاد نكور التي غدت على اثر خراب الحاضرة تعرف ببلاد الريف . ومن اقدم هذه الفروع ، نذكر «بني عمرت...وبني زوراغ»[167] .

ونتعرف من خلال المصادر العربية المتاخرة على عدد من الفصائل والافخاذ المتفرعة عن «قبيلة بقوية»[168] المنتصبة كما هو معلوم على طول مرتفعات الساحل الشرقي لمرسى بادس . والغالب على الظن انها من الفروع القديمة المنتظمة في المجموعة النفزية علما بان البكري[169] قد نص على «ذكرمرسى بقوية وبالش من صنهاجة» في سياق واحد . وفي ذلك ما يفصح عن موقع بقوية في آخر الحدود الغربية لنفزة المتاخمة من جهة الساحل

166 - المقتبس، نشر محمود علي مكي ، 171.

167 - ابن حوقل ، المصدر السابق ، 106 . ويقيم بنو عمرت الى اليوم في المنطقة الفاصلة بين نهري غيس ونكور جنوب غرب ديار بني ورياغل والى الجنوب الشرقي للموقع الحالي لترجيست . والراجح ان المقصود ببني زوراغ الربع القبلي المعروف بنفس الاسم ضمن قبيلة بني ورياغل ويقيمون في السفوح الجبلية الواقعة جنوب غرب موقع حاضرة نكور .

168 - البادسي ، المصدر السابق، 122 ، 124 .

169 - المصدر السابق ، 90 .

لصنهاجة ، التي شكلت ثاني كبريات المجموعات القبلية المتالفة ضمن الامارة .

اما «فخذ بني توزين» [170] المتفرع عن قبيل بني محسن الذي اعتبره بعض الدارسين زناتي الاصول [171]، فلم نعثر له على اثر في المصادر القديمة . ومن المعلوم ان دياره تشغل الى الجنوب الشرقي من موقع حاضرة نكور حيزا هاما ضمن الامتدادات الجنوبية لبلاد بني يصليتن القديمة . مع ذلك ، ففي سياق حديث البادسي [172] عن «عقبة تابلخاشت من بلد بني بلند»، ما يكشف عن الاصول النفزية لبني توزين، او على الاقل للفرع البلندي منه ، اذ يجتمعون مع اهل تمسامان في نفس الجد الاعلى يصليتن، كما يؤكد ذلك البادسي [173] بالقول «ويلند هو ابن يصليتن».

ومن ابرز المظاهر الكاشفة عن تفكك البنيان القبلي القديم وعن تداخل الفصائل الاصلية بالاجذام الطارئة ، حلول بطوية محل نفزة - وان بمضامين مختلفة - كاطار قبلي متصاعد الاهمية ابتداء من منتصف القرن الرابع الهجري وبعدئذ طوال القرون اللاحقة .

وتعتبر رواية ابن حوقل [174] اقدم ما لدينا لحد الآن عن «بني بطوي»، اذ اصلهم اسوة ببني ورياغل وبني عمرت في صلب زناتة . وهو التاصيل الذي سبق التنبيه على ضعف اسسه والذي اوقع جملة من الدارسين في الخلط . ما كان لمنظار ابن خلدون المنغلق في ثنائية معيارية نظرية وتصنيفية مميزة في قالبين بين صنهاجة وزناتة الا ان يضفي مزيداً من الارتباك على مجمل الدراسات التي تناولت الموضوع [175].

ولا تقل اهمية رواية البكري [176] الذي اعتمد في اخبار نكور على كتابات محمد بن يوسف الوراق ، اذ يشيرهو الاخر «الى بلاد بطوية» . على غراره ، يذكر الادريسي [177] من

---

170 - البادسي ، المصدر السابق ، 118 .

171 - التقي العلوي ، المرجع السابق ، 208 .

172 - المصدر السابق ، 56 .

173 - نفس المصدر والصفحة .

174 - المصدر الساق ، 106 .

175 - انظر على سبيل المثال : التقي العلوي ، المرجع السابق ، 208 .

176 - المصدر السابق ، 94 . انظر كذلك : ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج 1 ، 178 ؛ ابن خلدون ، العبر ، ج 6 ، 284 .

177 - المصدر السابق ، نابولي 1975 ، 533 .

ضمن «قبائل البربر بطون بطوية» . ويتضح من السياق التطابق التام على المستوى الجغرافي بين بلاد بطوية ومواطن بني يصليتن،على الاقل الى حدود القرن الرابع الهجري . وثمة تطابق آخر لا يقل اهمية ان لم نقل اثارة ، اذ يشير البكري[178] في سياق مخالف لموقع ساحلي قرب سفاقس بافريقية يعرف ب«محرس بطوية». ولقد سلفت الاشارة الى الروابط المتاصلة بين فرعي نفزة : الاول بافريقية والثاني ببلاد نكور. ناهيك عما قيل بخصوص نزول صالح بن منصور خلال البعث الاول زمن الفتح بمرسى تمسامان بالذات . وليس صدفة ان يعمد مؤرخي الرجال وواضعي التراجم[179] الى موافقة النسب الحميري والصنهاجي والبطوئي باعتبارها جميعا اسماء لنفس المسمى . نخص نها بالذكر ترجمة الفقيه الشهير «علي بن يحيى بن القاسم الصنهاجي ويال البطوئي»، حسب توضيحات تبن عبد الملك المراكشي[180] .

والراجح ان اعتماد مصطلح بطوية بدل نفزة ابتداء من منتصف القرن الرابع الهجري، راجع الى انفراط وحدة بلاد نكور وتفكك المجموعات القبلية المكونة لنفزة ، لتنصهر منفردة في لفوف جديدة . يتجلى ذلك من خلال المضمون الجغرافي الذي يوطن بطوية في المنطقة الممتدة «من وادي النكور من حوز المزمة الى وادي ملوية»[181] . وهو ما يعرف في المصادر المتاخرة بـ«ساحل بطوية»[182] . ان في ذلك ما يقصي بني ورياغل وكزناية وبني يطفت ومرنيسة وغيرها من الفروع النفزية الواقعة غرب وادي نكور ، بل وكذلك بني يزناسن الضاربة شرق وادي ملوية .

لم يعد لعبارة نفزة اذا من دلالة على المستويين الاجتماعي والجغرافي . بل وحتى المحتوى التاريخي الذي اجهدنا لانتشاله من الضياع ، سرعان ما تداعى هو الآخر ليصبح من ذكريات الماضي التي آلت تدريجيا الى زاوية النسيان . بالمقابل ، لم تكن الحدود

178 – المصدر السابق ، 20 .

179 – انظر : ابن عبد الملك المراكشي ، المصدر السابق ، س 8 ، ق 1 ، 213 .

180 – المصدر السابق ، س8 ، ق1، 213.

181 – البادسي ، المصدر السابق ، 51 .

182– المقري ، المصدر السابق ، ج 5 ، 105 ؛ انظر كذلك لنفس المصنف ، ازهار الرياض في اخبار عياض ، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، القاهرة 1939 .225 ؛ ابن خلدون ، العبر ج 6 ، 152 ؛ احمد بن محمد الشناوي ، المصدر السابق ، ورقة 3 ب .

الاجتماعية والجغرافية لعبارة بني يصليتن لتسع باقي الفروع القبلية الضارية شرق جبل ابي الحسن في اتجاه سهوب ملوية . من ثم الركون الى اطار وسيط بين المستويين في سلسلة النسب يجمع بين كل الفصائل والافخاذ المتآلفة في المنطقة التي اصبحت منذ هذا التاريخ تدعى باسم «بلاد بطوية»[183].

ومن المفيد في هذا السياق التذكير بالمعايير الشائعة لدى النحاة والمناطقة في صياغة دلالات الالفاظ، في توافق تام بين المنطوق والمفهوم ، فيما عرف لدى القدامى بحدود الالفاظ[184] .

وقد كشف البادسي[185] عرضا عن هذا الاطار المعتمد في الانتساب الجديد الى بطوية ، في سياق رفع نسب احد المترجمين له الى «ابي حبيل بن ورترد بن يصليتن بن بطوي» . وسواء في روايات اهل القلم القدامى او المتاخرين ، يتجلى بان «بطوي» اسم علم في شجرة النسب اعلى من يصليتن وادنى من نفزاو، مما يفصح عن خطا التفاسير اللغوية[186] التي اعتبرته اشتقاقا من لفظ «بطو» الذي يؤدي معنى التجزئة والتقسيم . ومن البديهي لغويا ان تضاف تاء التانيث عند نسب المنطقة الجغرافية المعنية الى الجد الاعلى المشترك فتنطق كالتالي : بطوية، الشائعة الاستعمال في المصادر المتاخرة .

ان التدرج في المعيار الاصطلاحي ضمن سلسلة النسب نحو الاسفل بعد حوالي اربعة قرون ، افضى الى ارتفاع جملة من الفصائل الى مستوى الافخاذ والبطون . نذكر منها «بني تمسامان»[187] وبني سعيد و«فخذ بني توزين»[188] ، اضافة لواشكين و«بني ورتردين»[189] و اهل خصاص او غساسة السالفي الذكر . لذلك ، فبعدما كانت بطوية الى حدود القرن

183 – ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، 284 ، ج7 ، 225 ؛ الناصري ، المصدر السابق ، ج2 ، 104 .
184 – لمزيد من التفاصيل بهذا الخصوص راجع : ابو الوليد الباجي ، بيان حدود الالفاظ الدائرة بين المتناظرين ، مخطوط المكتبة العامة بتطوان ، رقم 353 ، 118 (ضمن مجموع) .
185 – المصدر السابق ، 51 .
186 – انظر : التقي العلوي ، المرجع السابق ، 208 .
187 – ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج 1 ، 176 .
188 – البادسي ، المصدر السابق ، 118 .
189 – البكري ، المصدر السابق ، 88، 94 . وبنو ورتردين او فصيل منهم على الاقل هو الذي اصبح فيما بعد يعرف بقلعية نسبة لقلوع جارة .

الرابع الهجري مجرد «بطن من البربر»[190]، اصبحت بعدئذ تنعت بالجمع ، حسبما يتجلى من رواية الادريسي[191] الذي نص على ذلك بالقول :« من قبائل البربر بطون بطوية» .وبالمثل ، لم يتردد ابن خلدون[192] لاحقا عن نعتها «بقبائل بطوية».

والراجح ان جملة من العصائب الزناتية قد اندمجت في هذه البطون ، على اثر الاندفاع المكناسي نحو السهوب الشبه الجافة لحوض وادي كرط في ظل زعامة موسى بن ابي العافية ، خلال بدايات القرن الرابع الهجري . ينطبق نفس الشيء على الموجة القبلية الازداجية التي توغلت على راس القرن الخامس الهجري الى اعماق بلاد نكور .

من الطبيعي ان يسفر هذا التدحرج المعياري في شجرة النسب الى بروز جملة من الفصائل الجديدة التي تالقت تباعا خلال القرون اللاحقة ، تاركة بصماتها في كتابات المتاخرين . نخص منها بالذكر : آيت يوسف بن يعلى وبني يملك من قبيل بني ورياغل[193] وبني بلند وبني محسن من «فخذ بني توزين»[194] وبني يفراسن او يفلوسن[195] من قبيلة بقوية ، وغيرهم ممن يند عن الحصر في هذا المقام . لعل في هذه الملاحظات ، ما يقدم مؤشرات اولية كفيلة بحفز البحث التاريخي للنظر في التطورات الطارئة لاحقا على مجمل المنظومة القبلية بالمنطقة[196]، وهو ما يتطلب دراسة تاريخية مستقلة.

وبانقراض الامارة وخراب الحاضرة موازاة مع اعادة الانتظام القبلي وفق معايير جديدة لم يعد لاصطلاح بلاد نكور من محتوى على المستويين الاجتماعي والسياسي ، مما اسفر عن اختفائه من الكتابات التاريخية ، ليحل محله اصطلاح بلاد الريف . وعلى عكس مزاعم ثلة من الدارسين الذين تناولوا الاصول التاريخية لهذه العبارة ، يبدو من خلال جملة من القرائن ان مصطلح الريف المتاصل في لسان العرب قد استعمل منذ وقت مبكر بدلالات

---

190 - ابن حوقل ، المصدر السابق ، 78 .

191 - المصدر السابق ، نابولي ، 533 .

192 - العبر ، ج7 ، 634 .

193 - البادسي ، المصدر السابق ، 110 ؛ ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، 179 .

194 - البادسي ، المصدر السابق ، 118 ، 56 .

195 - المقري ، ازهار الرياض ، 226 ؛ البادسي ، المصدر السابق ، 122 .

196 - راجع بهذا الخصوص : E. MICHAUX-BELLAIRE, *op.cit* , pp. 35-45.

جغرافية وعمرانية لنعت مجمل الشريط الساحلي الممتد شمال المغرب الاقصى [197] . مصداق ذلك، ما ورد لدى ابن عذاري[198] اعتمادا على مصادر قديمة ، في سياق حديثه عن حملة النورمان على حاضرة نكور وبلاد «العدوة فاستباحوا اريافها» .

والجدير بالملاحظة ، ان نفس اللفظ استعمل للدلالة على المناطق الساحلية العامرة بالعدوتين المغربية والاندلسية ، بل وكذا على غيرهما من مناطق دار الاسلام التي تحمل نفس المواصفات [199] . ونتوفر بهذا الخصوص على جملة من القرائن الدالة ، نذكر منها على سبيل المثال : «ريف شذونة»[200] وكذا «ريف غمارة» ، الذي ورد لدى ابن عذاري منقولا فيما يبدو عن شيخ المؤرخين ابي روان بن حيان . مما يفصح بما لا يدع مجالا للشك عن صحة ما ذهبنا اليه بخصوص التداول المبكر لمصطلح الريف بدلالات عمرانية لنعت الشريط الساحلي للعدوة المغربية ، التي اشتهرت كما سلف الذكر بالخصب والسعة واستبحار

---

197 – ذكر ابن منظور ، المصدر السابق ، حرف الفاء ، مادة ريف ، ان المقصود بـ«الريف: الخصب والسعة في المآكل ، والجمع ارياف وريوف . قال ابو منصور: الريف حيث يكون الحضر والمياه . والريف : ارض فيها زرع وخصب ، ورافت الماشية اي رعت الريف . وفي الحديث : تفتح الارياف فيخرج اليها الناس ، هي جمع ريف وهو ارض فيها زرع ونخل ، وقيل: هو ما قارب الماء من ارض العرب وغيرها . ومن حديث العرنيين : كنا اهل ضرع ولم نكن اهل ريف ، اي انا من اهل البادية لا من اهل المدن ...» ج4 ، 128 -29 . . يقر احدهم بعد فحص كتابات ابن حوقل والبكري ان عبارة الريف لم تستعمل للدلالة على جزء من شمال المغرب الاقصى الا ابتداء من العصر المريني خلال القرن السابع الهجري . وذلك اعتمادا على ما ذكره البادسي ، المصدر السابق ، 15 «عن الريف الكائن ما بين مدينتي سبتة وتلمسان» ، وعما تواتر عن بلاد الريف لدى المتاخرين ، امثال ابن ابي زرع في قرطاسه وابن خلدون في عبره . ولم يتردد عن تاصيل عبارة الريف لغويافي اللهجة المغربية المحلية العامية . وما زالت نتائج هذا التحليل معتمدة الى اليوم باعتبارها حقائق مسلمة . بل ومن الدارسين من عمد الى تكرارها بالحرف . انظرالتطابق التام في الرسم والمعنى فيما ورد نقلا ضمن الدراستين التاليتين:

E. MICUAUX-BELLAIRE,*op.cit*,pp. 35-36; Patrice CRESSIER, *Prospection*, pp.1-2.

198 – المصدر السابق ، ج 2 ، 97 .

199 – عن كورة «بطن الريف» بمصر انظر : ابن خرداذبه ، المصدر السابق ، 82

200 – ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج 2 ، 97

العمران الحضري . من الطبيعي في ظل التشابه العمراني بين سواحل العدوتين ان يعمد اهل القلم الى تمييز «ريف الاندلس»[201] عن «ريف المغرب»[202].

الا ان الجديد يكمن في اضافة دلالات اجتماعية وتاريخية لريف المغرب خاصة دون بقية الارياف ، بما في ذلك ريف الاندلس . وذلك اعتبارا للفراغ الحاصل على اثر انقراض امارة بني صالح وخراب نكور ، لا سيما ، وان لفظ بطوية لا يشمل كل البلاد المقصودة . هكذا تبلورت معالم مصطلح ذي دلالتين تتمايزان في السياق حسب الاستعمال : الريف بمعناه الجغرافي والعمراني الاصلي القديم ، ويشمل مجموع المنطقة الشمالية بالمغرب الاقصى . وهو ما عبر عنه ابن سعيد[203] بالقول :«وذلك الساحل يعرف بالريف» او «بلاد الريف»[204] او «جبال الريف»[205]. ثم الريف بمعناه الاجتماعي والتاريخي ، الذي يستثني معظم جبال غمارة وينضبط بدقة في المناطق التي شملتها امارة بني صالح الغابرة ، حسبما يتجلى من خلال جملة من المصادر المعتمدة [206]. اما التمييز الذي ورد في بعض الكتابات المتاخرة «بين الريف وكرط»[207] ، فما هو الا نتيجة تقسيم اجرائي يعتمد احصاء الاقاليم المغربية بمعيار اداري يجعل «خامسها هو الريف...وسادسها هو كرط»[208] . ان في هذا ما يكشف عن سطحية الزعم [209] المغالي في نعت المادة المصدرية المتعلقة بالموضوع بالتداخل والغموض .

نخلص الى ان تاريخ بلد نكور ينتهي في فصل اول عند حدود القرن الخامس الهجري، في وحدة تاريخية متكاملة على كافة المستويات . يليه بعدئذ ، كما هو الشان بالنسبة لعموم الجناح الغربي من دار الاسلام ، فصل آخرمتمايز.

---

201 – نفس المصدر والصفحة .

202 – المقري ، ازهار الرياض ، 67 .

203 – المصدر السابق ، 139 .

204 – ابن الخطيب ، الاحاطة ، م2 ، 151 .

205 – الغساني ، حديقة الازهار ، 321 .

206 – انظر : ابن عبد الملك المراكشي ، المصدر السابق ، س8، ق1 ، 213 ؛ ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، 289 ، الناصري ، المصدر السابق ، ج1 ، 187 .

207 – الحسن الوزان ، المصدر السابق ، 256 .

208 – مارمول ، المصدر السابق ، ج1 ، 26 .

E. MICHAUX-BELLAIRE, *op.cit*, p. 36. – 209

ثانيا : مظاهر الحياة الثقافية

من المعلوم اننا نكاد نجهل كل شيء عن جذور الثقافة المغربية الوسيطة ، خلال هذه الحقبة الغامضة الممتدة على مدار الثلاثة قرون الهجرية الاولى من تاريخ الفكر بالمغرب الاقصى . ويبدو ان ما تحقق بالاندلس من تطور شامل لمختلف فروع المعرفة خلال القرنين الرابع والخامس للهجرة ، كان له ابلغ الاثر في حجب الاصول السابقة ، وذوبان ثمرات العطاء الفكري التي تحققت بنكور فيما اصبح يعرف ضمن الدراسات المعاصرة بالفكر الاندلسي . بينما استمرت حاضرة فاس الى حدود القرن الرابع الهجري مشهورة في الآفاق بكثرة ما كان في اهلها من «ثقل وغبا قليلة العلماء، كثيرة الغوغاء»[1] .

ومهما تجردنا للنبش في الاصول المتاحة ، يبدو ان اعادة تركيب هذه الحلقة المبتورة في السياق العام للتطور الثقافي بالغرب الاسلامي ، تكاد تكون من المهام المستحيلة . مع ذلك ، يمكن من خلال جملة من العناصر المتناثرة معاينة البصمات القليلة التي افلتت من يد الدهر واستمرت مطبوعة في وشم الذاكرة لاكثر من حقل معرفي . ولعل في ما امكن انتشاله من طي النسيان ، ما يفصح عن موقع بلاد نكور في وضع اللبنات المؤسسة للصرح الثقافي الذي تالق بالغرب الاسلامي .

ويتجلى دور بني صالح المتميز في نشر الاسلام وتفقيه العامة في امور الدين منذ البدايات الاولى . فقد سلفت الاشارة الى نزول صالح بن منصور في «بني تمسامان وعلى يديه اسلم بربرها»[2] . وسرعان ما اجتمعت اليه «قبائل غمارة وصنهاجة مفتاح واسلموا على يده»[3] هم ايضا . كما «اسلم البربر المجاورين»[4] بعدئذ تباعا . واعترافا بالجميل ، لم يتردد اهل البلد عن وسم المؤسس بـ«العبد الصالح»[5] .

لم يكن خلفه المعتصم اقل اهتماما بالشرائع والتعاليم ، واعتمادا لاساليب الترشيد

---

1 - المقدسي ، المصدر السابق ، 23 .
2 - ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج1 ، 176 .
3 - ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، 283 .
4 - الحميري ، المصدر السابق ، 577 .
5 - نفس المصدر والصفحة .

والخطابة المستندة الى الفضيلة ، في دمج القبائل ضمن المناخ الحضاري الجديد .لذلك اشتهر لدى معاصريه بكونه «شهما شريف النفس كثير العبادة . وكان يلي الصلاة والخطبة لهم بنفسه»[6] . على غرارهما سار الخلف من امراء بني صالح احسن سيرة في الرعية ، الذين شكلوا احصن درع للوقاية من عوادي الزمن ومما تكالب على البلاد من مخاطر . وقد سلفت الاشارة الى وقوف العامة في اكثر من مناسبة بحزم دفاعا عن سلطة الجماعة ونبذا للتفرقة . لذلك ، لم يتردد خامس الامراء صالح بن سعيد لدى تقلده زمام الامور عن «تقبل مذهب سلفه في الاستقامة والاقتداء»[7] .

ونظرا لاستمساك آل صالح بالسنة والجماعة ، لم يجد الخليفة الاموي بدمشق الوليد بن عبد الملك بدا من توصية عامله الموجه الى بلاد المغرب بعدم التعرض لصاحب نكور«لعدله ويتركه على رايه»[8] . وبرغم هبوب رياح «الخوارج في كل جهة»[9] من بلاد المغرب خلال بدايات القرن الثاني الهجري ، ونبضت في اهله «عروق الخارجية فدانوا بها»[10] لم تفلح ثورة الصفرية بقيادة داوود الرندي في الامساك طويلا بدفة الحكم . اذ سرعان ما عدلت العامة عن السير في ركاب الثورة ، فعمدوا الى قتل الرندي «واستردوا صالحا فبقي هنالك الى ان مات»[11] بتمسامان .

كما تمكن بنو صالح من اطفاء جذوة قبائل مكناسة المتمردة لاحقا في اطراف التخوم الجنوبية الشرقية المتحيفة بالامارة. ومن المعلوم ان «مطماطة ومكناسة وزناتة...كانوا جميعا على دين الخارجية ، وعلى راي الاباضية»[12] .

---

6 - ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، 283 .

7 - نفس المصدر والصفحة .

8 - الزياني ، المصدر السابق ، 81 .

9 - ابن خلدون ، العبر ، ج 6 ، 157 .

10 - نفسه ، ج6 ، 144 . لمزيد من التفاصيل عن القبائل المغربية التي اخذت بالمذهب الخارجي بشقيه الاباضي والصفري انظر: ابن حزم ، الجمهرة ، 498 ؛ ابن خلدون ، العبر ، ج 6 ، 158 ، 171 -172 ؛ المسعودي ، المصدر السابق ، ج1 ، 169 .

11 - البكري ، المصدر السابق ، 91 -92 .

12 - ابن خلدون ، العبر ، ج6 158 . عن اباضية بني مراسن الضاربين بناحية صاع والكدية ، انظر: ابن حزم ، الجمهرة ، 498 .

لم يكن التيار الواصلي المعتزلي المتوافق مع المذهب الزيدي العلوي اقل خطرا . اذ تمكن من التغلغل في اوساط قبائل غمارة وصنهاجة ، بعدما اصبح له شان في اوربة ، احدى اكبر القبائل المغربية واشدها شوكة وعددا . مع ذلك ، لم تفلح ثورتهم بقيادة زعيمهم مسكن من دخول حاضرة نكور ، فآلت هي الاخرى الى الفشل ، بعد قتل مقدمهم وتشتيت جمعهم ، ليصبحوا مجرد «شرذمة قليلة» على حد تعبير احد ابرز مؤرخي [13] الملل الاسلامية .

ومن المعلوم ان التحالف الذي انعقد بين التيار الشيعي المعتزلي والمذهب الواصلي قد اثمر قيام الدولة الادريسية ، التي طمحت في ظلال الامامة الزيدية الى بناء شرعية بديلة للخلافة العباسية ، انطلاقا من المغرب الاقصى. والغالب على الظن ان بني صالح الذين وجدوا انفسهم بعد سقوط الخلافة الاموية بدمشق حيص بيص بين التيارات المتصارعة قد آثروا تقديم نوع من البيعة لادريس الاول من خلال وفد قاصر على المشيخة القبلية، وفي ظل شروط نجهلها .

نستشف ذلك من خلال القراءة في لائحة القبائل الوافدة على وليلي لتقديم فروض الولاء، اذ شملت حسب رواية ابن ابي زرع [14] «نفزة ومكناسة وغمارة» ، التي شكلت حسبما سلف ذكره المجموعات الثلاث الكبرى المتآلفة ضمن بلد نكور . لعل في هذا ما يفسر حسن الجوار، ان لم يكن التعاون بين الامارتين، الذي بلغ الى حد التصاهر بين الاسرتين . ومن المعلوم ان البيعة لامام ينطبق مع اصول اهل السنة والجماعة . والغالب على الظن ان بني صالح الذين عانوا الامرين في امتداداتهم الغربية على يد الدعاة الواصلية قد اشترطوا في الولاء المفترض ، الفصل بين الشرعية السياسية والمحتوى المذهبي .

ومن جهة اخرى ، فقد عاينا في الفصول السابقة دور نكور المتقدم كدرع واق لمجموع البلاد المغربية والاندلسية من التشيع الفاطمي ، الذي امتد في موجات عاتية ، لم تفلح في وضع ركائز الدعوة الاسماعيلية بالمغرب الاقصى . اما الاندلس ، فبصرف النظر عما تخللها الى حين قيام الخلافة، من حركات المولدين والمستعربين المناوئة ، ومن

---

13 - الشهرستاني ، المصدر السابق ، ج1 ، 46 .

14 - المصدر السابق ، 20 .

الهرطقات الدينية والمذهبية ، اضافة للحركة المسرية والحفصونية[15] ، فمن المعلوم انها قد اخذت منذ القرن الثاني الهجري بمذهب الاوزاعي واهل الشام في التشريع والاحكام[16]. ولم تكن الاوضاع بافريقية - على ما لها من اثر في هذا المجال - لتوفر مناخا افضل للمذهب المالكي الذي شهد احدى اشد محنه منذ العصر الاغلبي الاخير ، وبالخصوص بعد قيام الخلافة الفاطمية[17].

ان في مجموع هذه العناصر ما يكشف عن دور نكور المركزي في صيانة الاعتدال المذهبي وسط اعصار التيارات المناوئة، والحفاظ على مذهب اهل السنة والجماعة بالمغرب الاقصى ، لتمتد آثاره لاحقا الى كافة ربوع الغرب الاسلامي ، في حلقة مفقودة ، لم تتمكن الدراسات المعاصرة التي انجزت لحد اليوم من الامساك بخيوطها الموجهة .

حقيقة اننا ما زلنا نجهل الملامس الاولى التي اسفرت عن انتقال مذهب مالك الى نكور عبر الاحتكاك بالنهضة الفكرية المشرقية التي اثمرت ظهور المذاهب الاربعة . مع ذلك، فليس ادل على العناية التي اولاها بنو صالح للمذهب المالكي ، من المكانة العالية التي اكتسبها عبد الرحمن بن سعيد بن ادريس بن صالح الملقب بالشهيد، الذي تردد على ديار المشرق طلبا للفقه وعلوم الشرائع وحج اربعا ، حتى غدا من افقه الناس «بمذهب مالك»[18]. ولقد آثر عبد الرحمن الشهيد على غرار كبار العلماء المستشرفين للتصوف العلمي

15 - لمزيد من التفاصيل بهذا الخصوص، راجع : احمد بدر ، الاندلس وحضارتها من الفتح حتى الخلافة . احمد الطاهري ، العامة والاتجاهات الفكرية بالاندلس في عصر الخلافة ، مجلة دراسات عربية ، العدد ، 45 -54 . Manuel ACIEN ALMANSA, *op.cit*

16 - تم ذلك على يد صعصعة بن سلام وهو «اول من ادخل مذهب الاوزاعي» الضبي ، المصدر السابق ، 324 . ولقد استمر العمل به في الفتيا والاحكام الى ان تم الانتقال عنه جملة الى مذهب مالك في امارة الحكم الربضي حسب رواية مجهول ، ذكر بلاد الاندلس ، مخطوط المكتبة العامة الرباط ، رقم ج 85 ، 104 . بينما يذكر غيره ان التحول الى مذهب مالك في الاندلس قد حدث في امارة سلفه هشام الرضى ، الونشريسي ، المصدر السابق ، ج 6 ، 356 .

17 - وقد افرد محمود اسماعيل بحثا خاصا لهذا الموضوع بعنوان : محنة المالكية في افريقية المغربية ، ضمن مغربيات ، 57 - 83 .

18- البكري ، المصدر السابق ، 97 .

الرفيع[19]، الزهد في الدنيا فـ «عبر الى الاندلس برسم الجهاد»[20]، حيث انتهى به المطاف الى الاستشهاد في احدى الغزوات الى دار الحرب .

ومن اوائل فقهاء البلد الذين جلسوا لاقراء قواعد المذهب بحاضرة نكور نشير الى «ابن عبد الله وابن عيسى»، اللذين ورد اسمهما عرضا في جملة من المصادر المتاخرة [21] . كما احتفظ ابن الفرضي[22] بترجمة حسين بن فتح النكوري المكنى بابي علي الكاشفة عن «اصله من نكور». ويتضح من نفس الرواية ان حسين بن فتح قد زار الديار المشرقية «وسمع من ابي جعفر البغدادي كتب ابن قتيبة»[23].

وعلى عكس غيره ممن طالهم الاهمال وسقطوا من كتب التراجم التي اغفلت كما هو معلوم التاريخ لرجال العدوة ، فان اشارة ابن الفرضي قد تواترت مع بعض التلخيص في جملة من التواريخ المتاخرة [24]. ومما يثير الانتباه ان عددا من كبار علماء الاندلس قد اخذوا عنه سماعا «وحدث عنه ابو محمد الباجي واحمد بن عبادة الرعيني واثنى عليه خيرا»[25] لما كان له من فضل ودراية بالقرآن وعلوم الفقه والحديث . بلغت مكانة حسين بن فتح لدى الخليفة عبد الرحمن الناصر ان ولاه قضاء مدينة سبتة ، حسبما ورد لدى ابن حيان[26] في رواية مقتبسة عن كتاب الانيق لابن مسعود .

وممن هاجر من فقهاء نكور هاربا الى الاندلس خشية من عساكر الشيعة الفاطميين

---

19 – وقد افردنا لهذا الشكل الاصيل من التصوف دراسة خاصة بعنوان : التصوف بالاندلس من التامل العلمي الى الطرقية العامية ، ضمن محاضرة القيت بفرع اتحاد كتاب المغرب في الجديدة ، 1994 سيظهر قريبا ضمن كتاب .

20 – ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج1 ، 177 .

21 – القاضي عياض ، الغنية ، 155 : العباس بن ابراهيم ، الاعلام بمن حل بمراكش واغمات من الاعلام، تحقيق عبد الوهاب بن منصور ، الرباط 1977 ، ج8 ، 187 .

22 – المصدر السابق ، ق1، 113 .

23 – نفس المصدر والصفحة .

24 – انظر : الضبي ، المصدر السابق ، 267 ؛ السيوطي ، بغية الوعاة ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، القاهرة ، 1964 ، ج1 ، 583 .

25 – ابن الفرضي ، المصدر السابق ، ق1 ، 114 .

26 – المقتبس ، ج5 ، 298 – 299 .

نذكر احمد بن فتح المليلي المكنى بابي جعفر، الذي استجار بالخليفة الاموي بقرطبة «فاجاره الناصر وسجل له على قضاء ناحيته»[27] . ويخيل الينا ان سعيد بن الناكوري عرف بهذا النسب كناية لابيه الملقب بالناكوري في اشارة لاصله ، بعدما دخل هو الآخر الاندلس على اثر خراب الحاضرة على يد موسى بن ابي العافية ، الذي تركها بلاقع تسفي عليها الرياح . ولقد لقي ابنه سعيد هذا الحظوة لدى المنصور بن ابي عامر فـ «استادبه لولده وولاه الصلاة والخطبة بجامع الزاهرة »[28] حيث استمر اماما الى حين وفاته صدر دولة خلفه المظفر بن محمد بن ابي عامر .

الا ان ابرز فقهاء نكور ممن طبعوا بعمق الفقه المالكي بالمغرب والاندلس ، نذكر عبد الله بن عيسى بن ابى زمنين ، المكنى بابي محمد والمتوفى سنة 359 هجرية . وعلى غرار عدد من اهل القلم المتاصلين في العدوة المغربية ، تقدم اسرة ابن ابي زمنين نموذجا للفقهاء الذين انتسبوا في مستقرهم الجديد بالاندلس، بينما آلت اصولهم كما آلت حاضرة نكور ذاتها الى طي النسيان . هكذا نسب عبد الله هذا في البيرة ، التي يبدو انه قد هاجر اليها بعدما توالت على نكور ما سلف تفصيله من نكبات. وقد ذكره القاضي عياض[29] محققا في «اصله من نفزة من البربر من العدوة». ومن المعلوم ان ابنه محمد بن عبد الله بن ابي زمنين المكنى بابي عبد الله المتوفي سنة 368 هجرية قد نال الدرجة العالية وتبوا المكانة الرفيعة ضمن كبار فقهاء الاندلس[30] .

ولا يقل ابو محمد عبد الله بن ابراهيم بن قاسم بن منصور اللخمي تالقا ، لا سيما في مجال الفقه . وقد تواترت ترجمته في جملة من المصنفات التي كشفت عن «اصله من نكور»[31] . والجدير بالذكر، انه قد اختص بكبير فقهاء عصره ابي الاصبغ بن سهل وتفقه

---

27 - ابن الفرضي ، المصدر السابق ، ق1 ، 61 .

28 - ابن عبد الملك المراكشي ، المصدر السابق ، تحقيق احسان عباس ، بيروت 1973، س4 . 46

29 - ترتيب المدارك ، ج4 ، 18 .

30 - ابن سهل ، المصدر السابق ، 23 .

31 - ابن الابار ، المعجم ، 204 ؛ القاضي عياض ، الغنية ، 155 ؛ العباس بن ابراهيم ، المصدر السابق ، ج8 ، 187 .

عنده . وقد بلغ من النباهة والنظر والتفنن والمشاركة في ضروب العلم ان «كان ابن سهل يعجب في شبيبته من نبله»[32] . الا ان الدراية والفهم كانت اغلب عليه من الرواية والحفظ، حتى غدت مجالسه حافلة بكبار مشايخ عصره ، لكثرة فوائده ولتمكنه من قواعد المناظرة في المدونة والموطا وغير ذلك مما يتعلق باصول الدين وقضايا الفقه. لذلك نال الحظوة لدى السلطان المرابطي الذي اسند له قضاء سبتة ثم قضاء الجماعة بحضرة مراكش «ثم انكر من حاله شيئا فاستعفى فعوفي سنة عشر»[33] وخمسمائة للهجرة .

ويبدو ان علماء نكور قد ابدوا اهتماما مبكرا بعلم الوثائق والشروط . ومن اوائل من اشتهر في هذا الحقل ، ابو غالب بن تمام بن محمد الهمذاني ، الذي نعت بكونه «صاحب وثائق وتفقه»[34] . ولا يستبعد من خلال وسمه بالهمذاني ان يكون ممن زار الديار المشرقية ودخل همذان طلبا للعلم . على غراره ، اصبح خلفه عبد الله بن غالب المكنى بابي محمد المتوفي سنة 434 هجرية «واحد عصره علما وتقوى وجلالة ودينا وفضلا ...وكان متفننا في علوم جمة قائما بمذهب المالكية نظارا حافظا»[35] . ولم يذخر جهدا في الرحلة وطواف البلدان بالمشرق والمغرب، حيث التقى بكبار مشايخ عصره في الاندلس وبافريقية وبمصر والعراق . وعلى غرار معظم من وصلتنا اخبارهم من اهل نكور، نسب ابو محمد عبد الله بن غالب هذا في اهل سبتة، مع العلم ان «اصلهم من نكور وسكنوا سبتة»، حسب توضيحات ابن فرحون[36]. لا غرابة في ذلك، ما دام غيره ممن ينتمي في نكور قد نسب باعتبار موطن اقامتة : البيريا او قرطبيا او جزيريا او غير ذلك من مواطن الهجرة .

ومن اشهر فقهاء المالكية ممن اعتنوا بعقد الوثائق والشروط المتاصلين في بلاد نكور، نذكر علي بن يحيى بن القاسم الحميري الصنهاجي المتوفى سنة 585 هجرية ، ويقال

---

32 – القاضي عياض ، الغنية ، 156 .

33 – نفس المصدر والصفحة .

34 – ابن فرحون ، المصدر السابق ، ج 1 ، 435 .

35 – نفس المصد والصفحة .

36 – نفسه ، ج1 ، 435 . والراجح ان اهله قد هاجروا من حاضرة نكور على اثر خرابها الاول على يد موسي بن ابي العافية فاستوطنوا مدينة سبتة .

البطوئي نسبة «لبطوية من بلاد الريف» حسب توضيحات ابن عبد الملك المراكشي[37] . ولقد نسب هو الآخر في مستقره بالجزيرة الخضراء حيث ولي القضاء ، فعرف لذلك بالجزيري. وما زال مصنفه الشهير المقصد المحمود في تلخيص العقود يعتبر الى اليوم من انبل واكمل ما وصلنا من التآليف في هذا الباب. لا غرابة في ذلك ، ما دام صاحبه ممن عرف بالتواضع والمثابرة «فقيها حافظا مدرسا عاقدا للشروط نافذا في معرفتها»[38] .

لم يقتصر اهتمام علماء نكور على الفقه والمسائل والوثائق ، بل شمل اللغة والآداب ايضا . فحسين بن فتح النكوري ، كان له «بصر بالعربية والنحو والشعر»[39] . وبالمثل ، فعبد الله ابو محمد بن غالب كان «اديبا شاعرا مجيدا»[40] . ويبدو ان قرض الشعر قد كانت له سوق نافقة ببلاد نكور التي تالقت منذ وقت مبكر في مجال الابداع الفني والادبي، حتى غدت نبراسا لم يسلم منه الا بعض النتف الباهتة التي تمكنت من مقارعة عوادي الزمن .

ومن ابرز اشعار البلد ، احتفظ البكري باربعة ابيات يتيمة من ضمن قصيدة طويلة في في ذكرى نكورلشاعرها ابراهيم بن ايوب النكوري[41] . وليس دل على المكانة التي اصبحت للشعر ببلاط آل صالح من تقاطر الشعراء الاندلسيين من مختلف حواضر الجزيرة متنافسين للانتظام في ديوان الشعراء الملحق بخدمة الامارة . نذكر منهم «رجل من شعراء الاندلس من اهل طليطلة ...تلقب بالاخمش وكان شاعر ال صالح في ذلك العصر»[42] ، ايام الامير

37 - المصدر السابق ، س8 ، ق1 ، 213 .

38 - نفسه ، س8 ، ق1 ، 214 .

39 - ابن الفرضي ، المصدر السابق ، ق1 ، 113 ؛ السيوطي ، بغية الوعاة ، ج 1 ، 538 .

40 - ابن فرحون ، المصدر السابق ، ج1 ، 435 .

41 - اذ قال :

ايا املي الذي ابغي وسولــــي	ودنياي الذي ارجو وديــــن
الحرم من يمينك ري نفســـي	ورزف الخلف في تلك اليمين
ويحجب عن جبينك لحظ طرفي	ونور الارض من ذلك اليميــن
وقد جبت المهامة من نكــــور	اليك بكل ناحية امــــون

المصدر السابق ، 91 . ومن الملاحظ ان ابرهيم بن ايوب النكوري هذا قد حظي بمكانه ضمن احدى موسوعات الاعلام المغربية ، انظر: عبد الوهاب بن منصور، اعلام المغرب العربي، الرباط 1979 ، ج1 ، 30 .

42 - نفسه ، 95 .

سعيد بن صالح . ولعل فيما تبادله هذا الامير من مراسلات مع الخليفة الفاطمي بافريقية مذيلة بقصائد شعرية [43]، ما يؤكد صحة ما ذهبنا اليه في هذا المقام .

تجدنا اذا عند الجذور الاولى للادب المغربي الذي اختفت آثاره من متون المصادر اللاحقة واستمرت اذياله فاعلة فيما اصبح يعرف بالادب الاندلسي . ولعل في تعميق البحث عن الاصول ببلاد نكور وكشف انساب جملة من الشعراء والادباء والنحاة الذين هاجروا في الاتجاه المعاكس للعطاء بالاندلس ، ما يزيل اللبس الذي ما زال قائما في اوساط المختصين بتاريخ الآداب في الغرب الاسلامي ، وما يعيد النظر في ابعاد ما اصطلح على تسميته بالادب الاندلسي .

ولم تكن فنون الكتابة المتمرسة في اشكال الترسيل السلطاني اقل حظا ، وكثيرا ما كان امراء بني امية بالاندلس يضطرون الى الاستعانة بخبرة اهل نكور العريقة. وممن ذاع صيته في هذا المجال «محمد بن سعيد بن ابي سليمان ، واسمه واشكين من بني يطفت من نفزة ، وهو المعروف بالاصمعي لقب بذلك لذكائه وقوة حفظه» [44] . مما حذا بالامير الاموي عبد الرحمن بن الحكم الى استلطافه واستقدامه الى قرطبة، فاستكتبه ايام عز الامارة ، واستمر بعدئذ في خدمتها «فكتب لابنه محمد بعده» [45]. وعلى يد هذا الكاتب تكون جيل من امثاله المتمكنين من فنون الكتابة والترسيل ، منهم «ابنيه عبد الله وحامد...فكانا كاتبين نحريرين كلاهما كتب للسلطان» [46] .

ينطبق نفس الشيء على علوم الحساب والفرائض التي وضع فيها موسى بن ياسين المكنى بابي عمران مولى صالح بن ادريس صاحب نكور«كتبا نافعة معروفة به» [47] منذ القرن الثالث الهجري . وخلال القرن اللاحق ، تالق في هذا المضمار ابو غالب بن تمام الهمذاني

---

43 – نفس المصدر والصفحة ؛ انظر كذلك ابن الابار ، الحلة السيراء ، ج1 ، 194 وكذا المقريزي المقفى الكبير ، 98 –99 .

44 – ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق محمود علي مكي ، 171 .

45 – نفس المصدر والصفحة .

46 – نفس المصدر والصفحة .

47 – ابن عبد الملك المراكشي ، المصدر السابق ، س8 ، ق2 ، 386 .

النكوري السالف الذكر ، اذ اصبح له باع في «الحساب والفرائض وله في ذلك تآليف»[48] . ان في هذا ما يكشف عن جذور اقدم مدرسة مختصة في علوم الحساب المرتبطة بالفرائض في الغرب الاسلامي . ولعل فيما سلف ذكره عن عدل المؤسس الاول صالح بن منصور والتزامه بالشرائع في مجال الجبايات وملكية الارض ، ما يدل على الاهتمام المبكر بوضع القواعد الحسابية المعقدة لعلم الفرائض وكذا لما اصبح يعرف بالمواريث ، التي افردت لها لاحقا[49] خطط مختصة .

ولعل فيما اورده البكري[50] عن رجل مرسى بادس الذي يكرمه اهل البلد «ويذكرون انه ينبط المياه في المواضع التي لم يعد فيها ماء عيونا وابارا وانه يخبر بقرب الماء وبعده وانه يستدل على ذلك باستنشاق هواء ذلك الموضع»، ما يدل على التداول المبكر لكتب الفلاحة القديمة ببلاد نكور. ويتضح من خلال مضمون هذا النص ان صاحبنا كان على علم بالشرح الذي وضعه ابو يوسف يعقوب بن اسحاق الكندي لكتاب في فوائد المياه[51] ، ان لم يكن على اصول المصادر القديمة ، سيما كتاب قليون البربطي المعتمد في هذا المجال من طرف علماء الفلاحة بالاندلس ، حتى اشتهروا بكونهم يونانيين «في استنباطهم للمياه»[52] . ومما يدل على صحة هذا التحليل ان ثمة اشارة مطابقة في الحرف والمعنى لما اورده البكري عن رجل بادس مضمنة في كتاب الطغنري الموسوم بزهرة البستان ونزهة الاذهان[53] ، اذ تطرق هو الآخر لطرق «الاستدلال عن قرب الماء وبعده». ناهيك عن الاشارات المشابهة في

48 – ابن فرحون ، المصدر السابق ، ج1 ، 435 .

49 – لمزيد من التفاصيل عن خطة المواريث التي بلغت الغاية باندلس الخلافة راجع : التهامي الراجي الهاشمي ، نظم وادارة بني امية بالاندلس من خلال المقتبس لابن حيان ، الرباط ، 1984 ، 63 .

50 – المصدر السابق ، 101 .

51 – عن هذا الكتاب انظر: كتاب في الفلاحة ، مخطوط المكتبة الحسنية ، رقم 69 ، 3 .

52 – ابن غالب ، فرحة الانفس في تاريخ الاندلس ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، نشر لطفي عبد البديع، م1 ، ج2 ، القاهرة 1955 ، 281 .

53 – المصدر السابق ، 40 .

جملة من كتب الفلاحة[54] بخصوص طرق استخراج المياه الجوفية.

ومما يثير الانتباه ان ثمة مؤشرات دالة على دور نكور في بلورة اول اشكال الموسيقى الغنائية للموشحات والقصائد الشعرية الممزوجة باصناف من الدف والزمر . يتجلى ذلك من خلال اضطرار الخليفة الاموي عبد الرحمن الناصر الى استقدام المطربين من حاضرة نكور الى قرطبة قاعدة الخلافة ، مستفيدا من انهيار صرح الحضارة ببلاد العدوة وانتقال ازمة المبادرة نحو الضفة الاخرى بالاندلس .

ومن اشهر من تالق في هذا المجال المدعو «النكوري الزامر ...وكان فيما مضى يزمر لعبد الرحمن الناصر»، ثم تخلى عنه بعدئذ ليغدو من المع نجوم الطرب العامي بالحاضرة . مصداق ذلك ، ما تواترته كتب التراجم[55] من اوصاف لصاحبنا «النكوري الزامر [وهو] قاعد في وسط الحفل وفي راسه قلنسوة وشي وعليه ثوب خز عبيدي وفرسه بالحلية يمسكه غلامه...وهو يزمر في البوق بقول احمد بن كليب في اسلم...ومغن محسن يسايره فيها» .

بلغ هذا الصنف الادبي ذي العمق العامي والابعاد الارستقراطية درجات غير معهودة بالاندلس ، ابتداء من هذا التاريخ وطوال القرون اللاحقة .مما يفصح عن قيمة البذور الاولى التي انتشرت بنكور لما كانت حاضرة عظمى ، لتنتقل بعدئذ لقحا الى مختلف المدن الاندلسية انطلاقا من حاضرة قرطبة . ومن المعلوم ان التراث الشفهي والآداب العامية قد

---

54 - انظر : ابن بصال ، المصدر السابق، 175 ؛ ابو الخير الشبيلي ، كتاب الفلاحة ، نشر التهامي الناصري الجعفري ، فاس 1357هجرية ، 5 - 8 .

55 - الضبي ، المصدر السابق ، 203 ؛ الحميدي ، المصدر السابق ، 143 - 144 . تناولت المصادر الاندلسية قصة هيام الشاعر احمد بن كليب في هوى الفتى اسلم هذا وما نظمه من شعر في الغزل الرقيق الذي يتخذ احيانا بعدا فاضحا . ومن ضمنه الابيات التالية التي كان يتغنى بها النكوري الزامربشوارع قرطبة مع الفرقة الموسيقية المرافقة له :

اسلمني في هـــوا   اسلم هذا الرشـــــا
غزال له مقلـــــة   يصيب بها من يشـــا
وشى بيننا حاسد   يسال عما وشــــى
ولو شاء ان يرتشى   على الوصل روحي ارتشى

شهدت على مر العصور «مصيرا مؤلما»[56]. اذ ان هذا الصنف الموسوم لدى اهل القلم القدامى بالادب «النازل الغث...من اقوال البطالين والاميين على طريقة النوع الذي يسمى الازجال وهي معان شعرية بالفاظ عامية لافهام الجهال»[57]، لم ينل ادنى حظ في متون المصادر القديمة . وبقدرما كانت هذه المعاني الشعرية «عند العامة محفوظة»[58] ،كانت عند الخاصة محتقرة مرفوضة. لذلك لم يبق منه ...شيء لان مصنفي هذا الكتب ازدروه وضربوا عنه صفحا » حسب تعليلات ابن قزمان الزجال[59] .

والجدير بالذكر ان الشعر العامي ارتبط بالسماع والغناء وبـ«الشجا والطرب»[60] وبانواع من الدك والرقص والانكسار، لا سيما الاغزال والرقيق مما يتقنه البطالون واهل الفتوة والشطارة[61] ، ويغنيه من يصنف عادة ضمن «اهل السفه من كناسي الحشوش والمعاناة لصنعة الزمير وضرب القرقرة»[62] امثال صاحبنا النكوري الزامر .

ويقدم ابن الحاج[63] نص نازلة بالغة الدلالة في الكشف عن مظاهر الفرح العام بالاندلس ، التي استمرت الى عهد قريب حية في بلد نكور، اذ قال :«في رجل زوج ابنته ولد رجل وكانت سيرة البلد اذا اتا الزوج الى البناء بالزوجة قصر الرجل بجماعة من الاحداث والنساء والغناء بالليل على وجه التحليقة المتعارفة بينهم . فلما اتوا برجالهم ونسائهم الى حوز دار العروصة قامت طائفة من جيران العروصة الساكنين بحوزها فوقع بينهم كلام آل

56 – محمد اركون ، تاريخية الفكر العربي الاسلامي ، بيروت 1986 ، 30 . وهو ما حاولنا تداركه فيما يتعلق بعامة قرطبة خلال عصر الخلافة وعامة اشبيلية خلال عصر الطوائف ضمن الدراسات التي انجزناها في الموضوع ، حسبما تتيحه المادة التاريخية المتوفرة .

57 – ابن خيرة المواعيني ، ريحان الالباب وريعان الشباب ، مخطوط المكتبة الحسنية ، الرباط ، رقم 2647 ، 130 .

58 – المقري ، ازهار الرياض ، 116 .

59 – انظر : انخل جونثالث بالنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسي ، ترجمة حسين مؤنس، القاهرة 1955، 158 .

60 – الخصيبي المنجم ، المصدر السابق ،50 - 51 .

61 – المقري ، المصدر السابق ، ج3 ، 263 .

62 – ابن حزم ، رسالة في مراتب العلوم ، ضمن الرسائل ، ج4 ، 67 ؛ ابن بسام ، المصدر السابق ، ق1 ، م2 ، 596 .

63 – المصدر السابق ، 302 .

حالهم الى ان وقع بين الطائفتين قتيل لم يدم على احد بلسانه...فقالوا انا راينا رجلا من الطائفة الثانية قد قتله وبين الطائفتين عداوة قديمة متصلة».

تجدنا اذا امام مظهر آخر من مظاهر الحياة الاجتماعية التي انتقلت الى الاندلس منذ عهد مبكر خلال عصر بني صالح . والغريب في الامر ان التقصير بالليل وفي حوز الدار بقرض الشعر العامي باللغة المحلية ارتجالا مصحوبا بالرقص والدك والزمر، بمشاركة الاحداث والنساء من اهلي العريس والعروس ، قد اخترق قرونا من الزمن ليستمر الى اليوم مظهرا بارزا في تقاليد اهل نكور والاحواز . ومما يثير الانتباه ان المشاداة بالكلام الساقط الذي قد ينتهي بالعراك والتدمية ، ما زال هو الآخر من ضمن الامور المألوفة في مثل هذه التحليقة المتعارفة .

ومن جهة اخرى ، فمن المعلوم ان اهل الاندلس قد اشتهروا ابتداء من القرن الرابع الهجري بالاناقة والنظافة في الملبس والمسكن والمطعم «وغيرذلك مما يتعلق بهم، وفيهم من لا يكون عنده الا قوت يومه فيطويه صائما ويبتاع صابونا يغسل به ثيابه ولا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها»[64] . ولا تعوزنا المؤشرات الدالة بهذا الخصوص ايضا على الاصول التي تبلورت بادئ ذي بدء في حاضرة نكور، التي غدت نموذجا للحياة الرفيعة المرتبطة باستبحار العمران الحضري وبالرقة الى حد المبالغة لدى الخاصة والعامة على السواء . مصداق ذلك، ما اورده ابن هشام اللخمي[65] عرضا بقوله :«ويقولون للمتقزز المكثر من استعمال الماء في الوضوء والغسل وغيرهما نكاري ، والصواب نكوري منسوب لنكور بلد كان اهله موصوفين بالتنطس والتقزز ولهم في ذلك اخبار مشهورة فنسب اليهم كل من فعل فعلهم» .

ليس هناك ادل على عمق التاثير الذي مارسته نكور في مظاهر الحياة الاجتماعية بالاندلس من هذا الاختراق الاصطلاحي للفظها الذي غدا مرادفا للمغالاة في النظافة والاناقة، التي قد تبلغ حد التنطس حسبما ورد ضمن هذا الوصف الذي لا يخلو من بعض

---

64 - المقري ، المصدر الساق ، ج 1 ، 223 .

65 - المدخل لى تقويم اللسان وتعليم البيان ، تحقيق خوصيه بيريث لاثرو ، مدريد 1990 ، م2 306 .

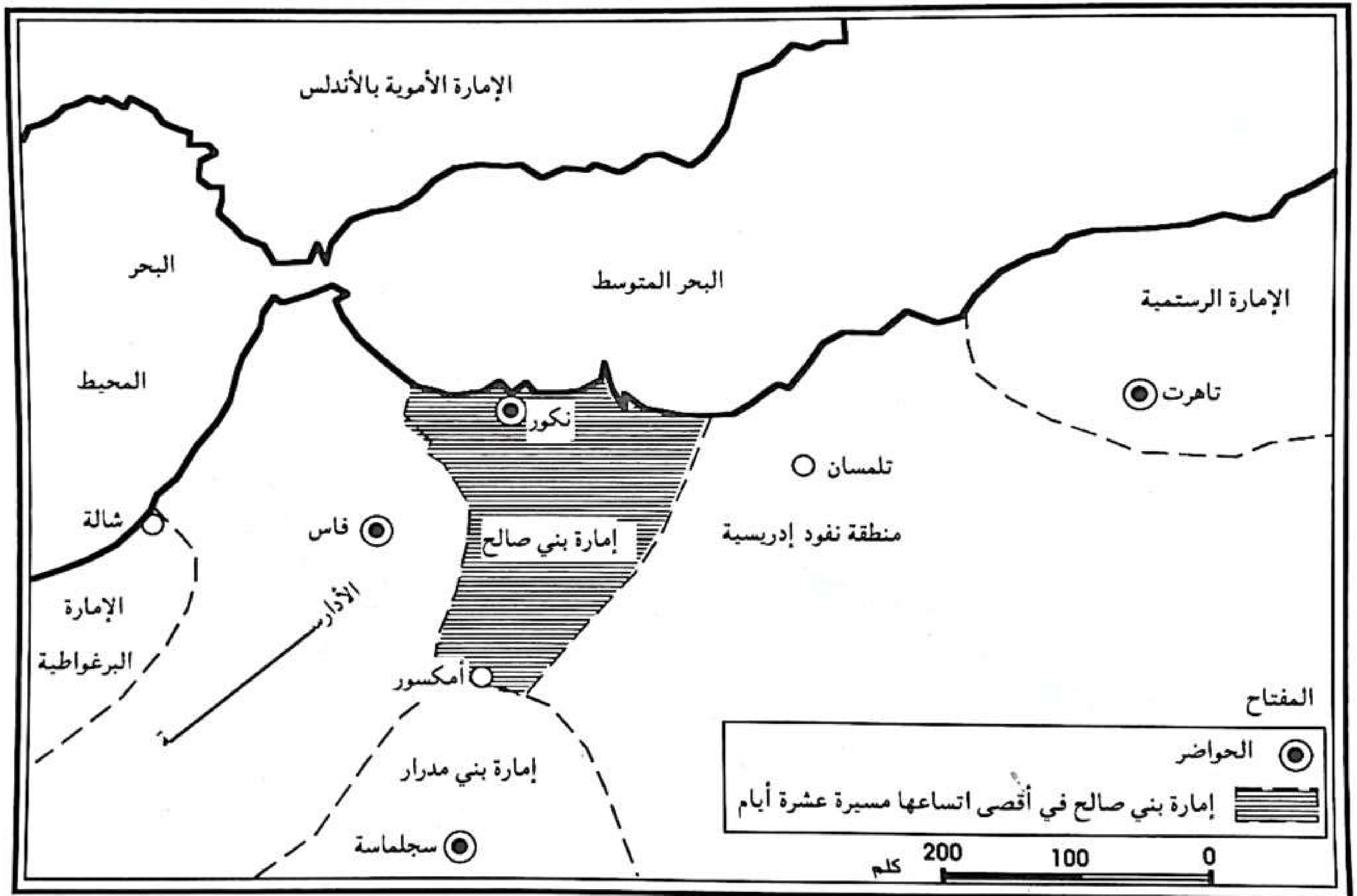
التحامل الناتج عن التفاوت الحضاري بين العدوتين. تجدنا اذا امام الجذور الحقيقية للثقافة والحضارة المغربية الاندلسية التي تبلورت بنكور خلال ثلاثة قرون من العطاء، لتنتقل على اثر خراب عمرانها نحو الضفة الاخرى بالاندلس حيث بلغت ابتداء من القرن الرابع الهجري درجات غير معهودة .

تم بحمد الله

الخرائط والرسوم

خريطة رقم : 1

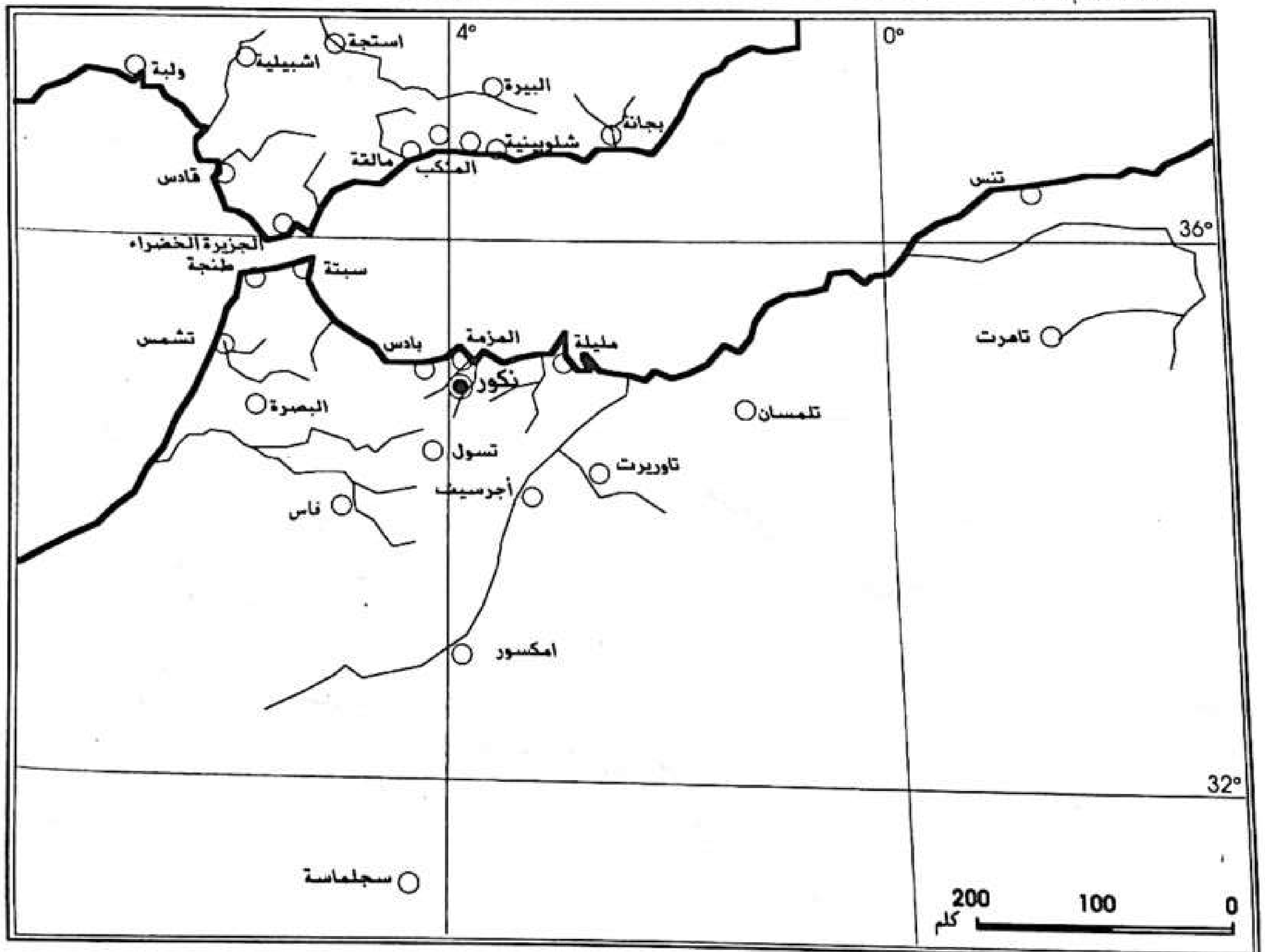
الإمارات المنتظمة بالمغرب والأندلس خلال القرن الثاني الهجري



إنجاز : د -أحمد الطاهري -

خريطة رقم : 2

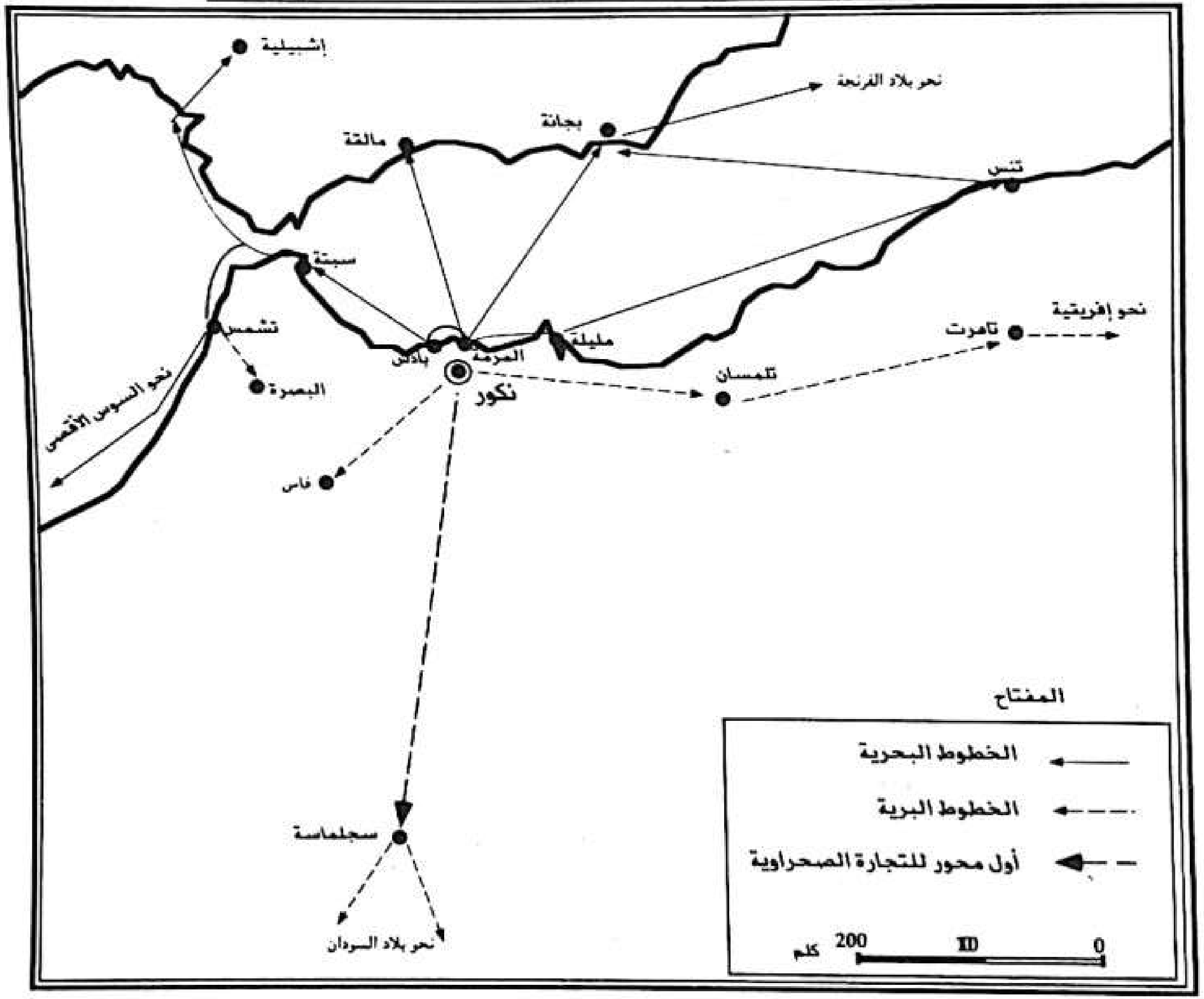
أهم المراكز الحضرية في عدوتي المتوسط خلال عصر بني صالح



إنجاز : د -أحمد الطاهري -

خريطة رقم : 3

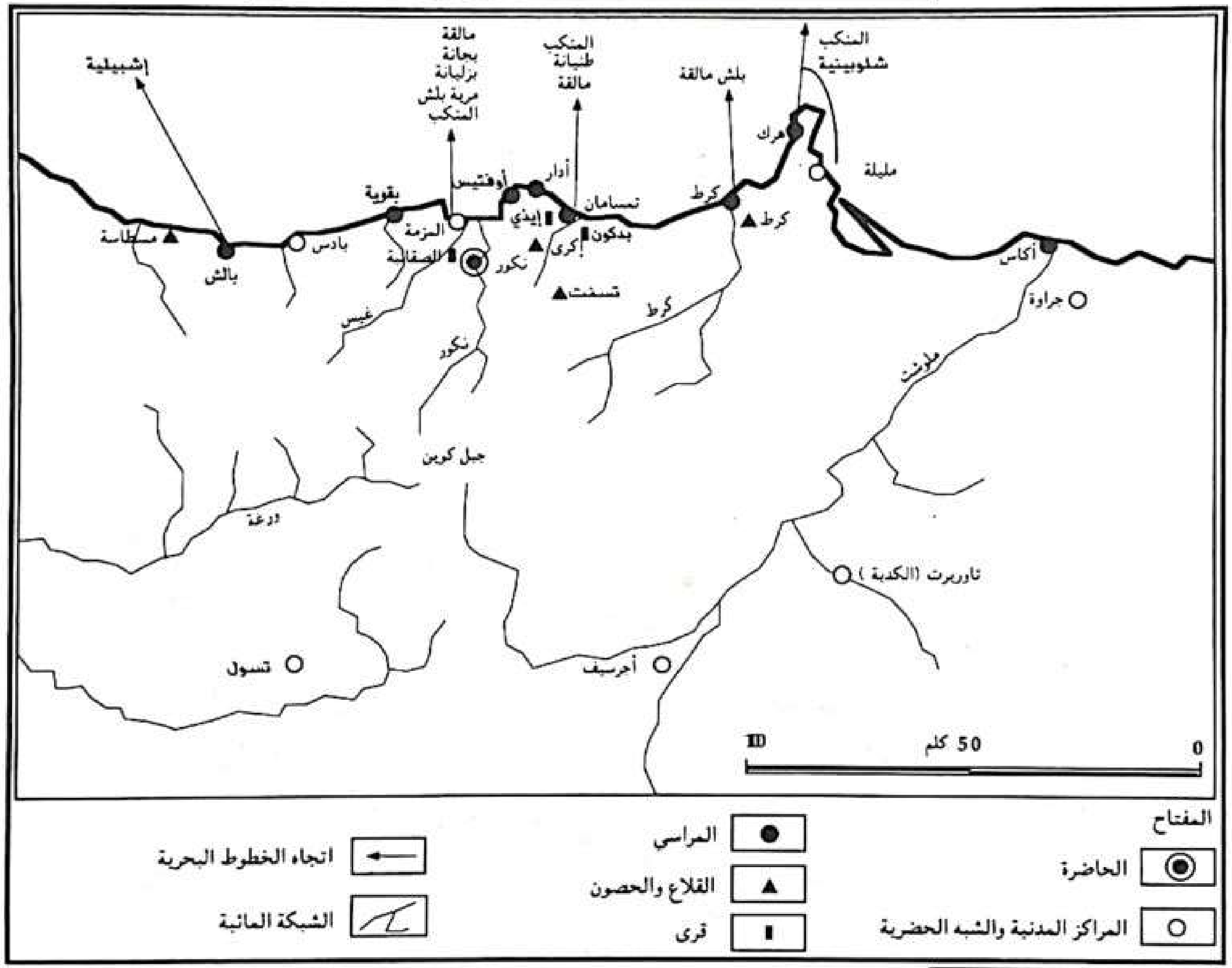
محاور المواصلات إلى الآفاق بالحوض الغربي للمتوسط خلال عصر بني صالح



إنجاز : د -أحمد الطاهري -

خريطة رقم : 4

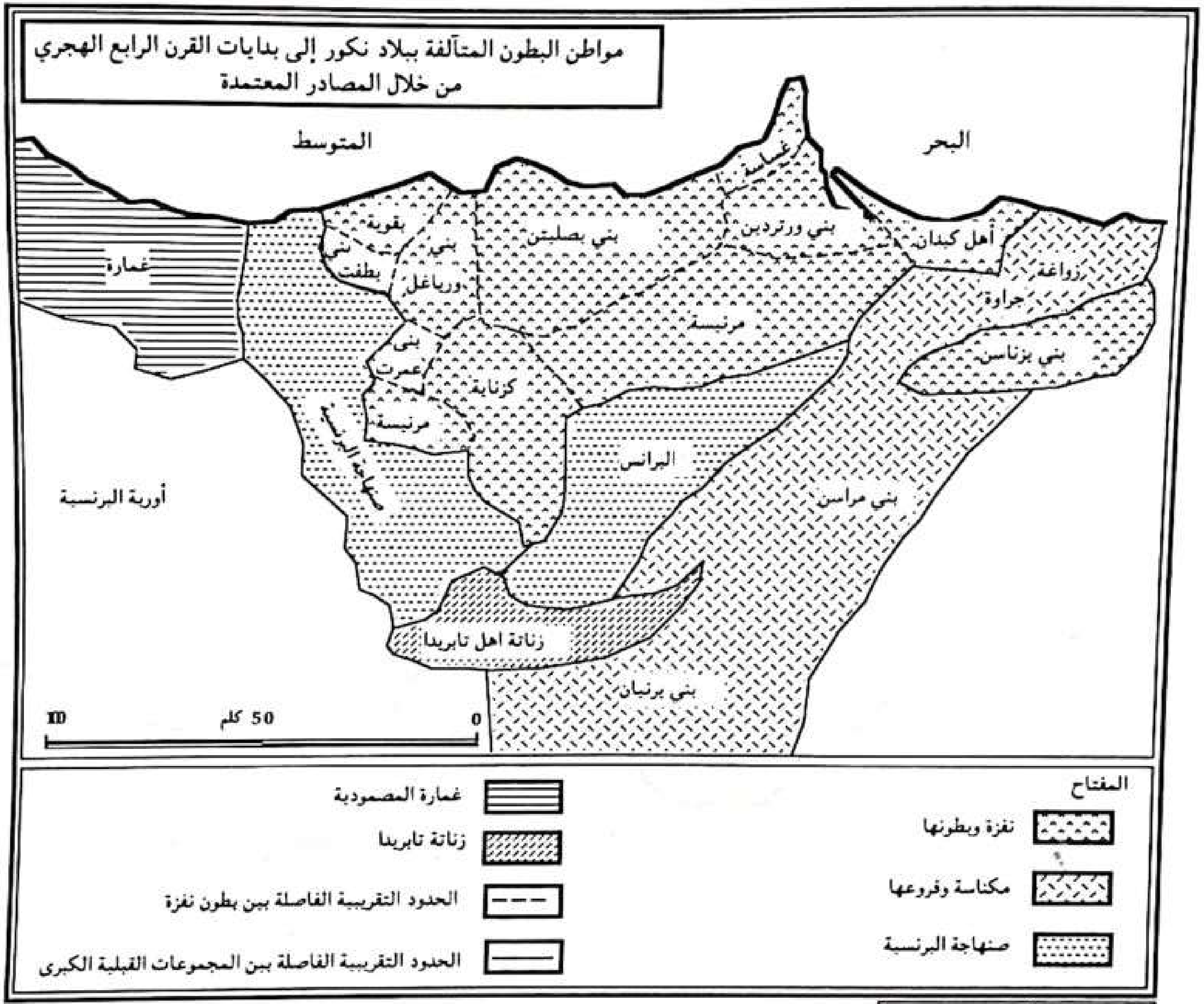
العمران الحضري والقروي ببلاد نكور من خلال المصادر العربية المعتمدة



إنجاز : د - أحمد الطاهري -

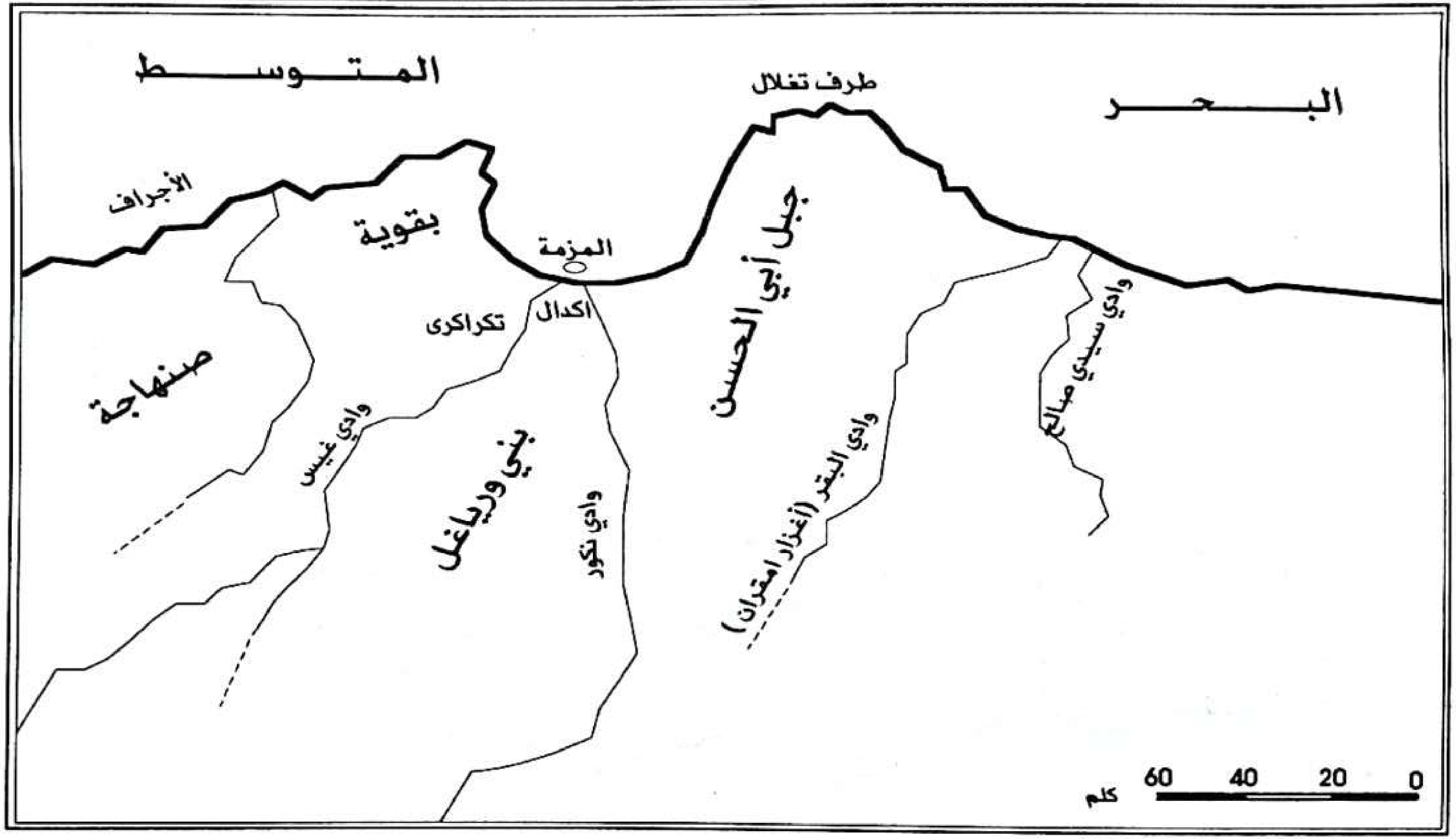
خريطة رقم : 5

خريطة رقم : 5



إنجاز : د -أحمد الطاهري -

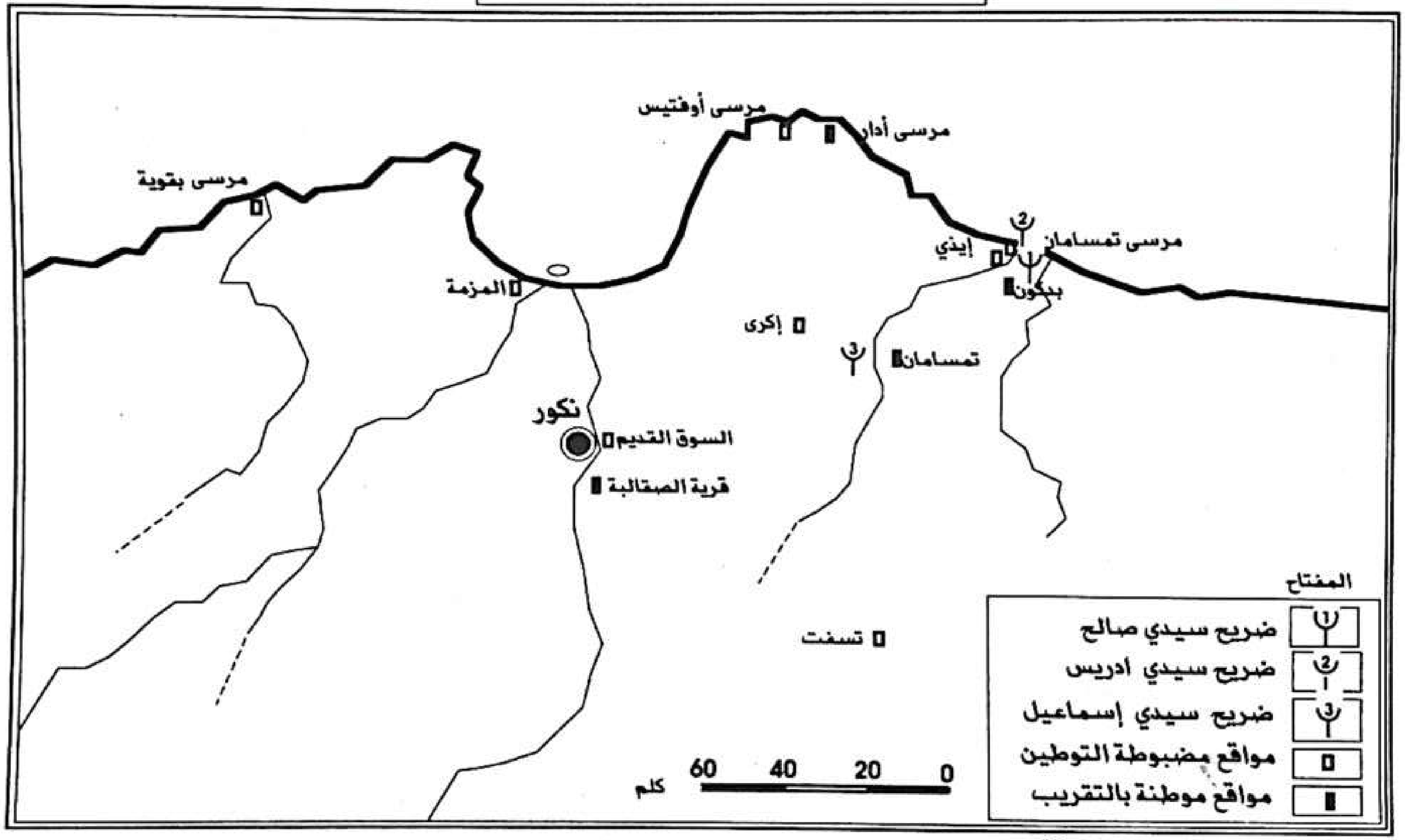
خريطة رقم : 6 أسماء الأماكن الطبيعية والبشرية بتمسامان وحوض نكور خلال عهد بني صالح



إنجاز : د - أحمد الطاهري -

خريطة رقم: 7

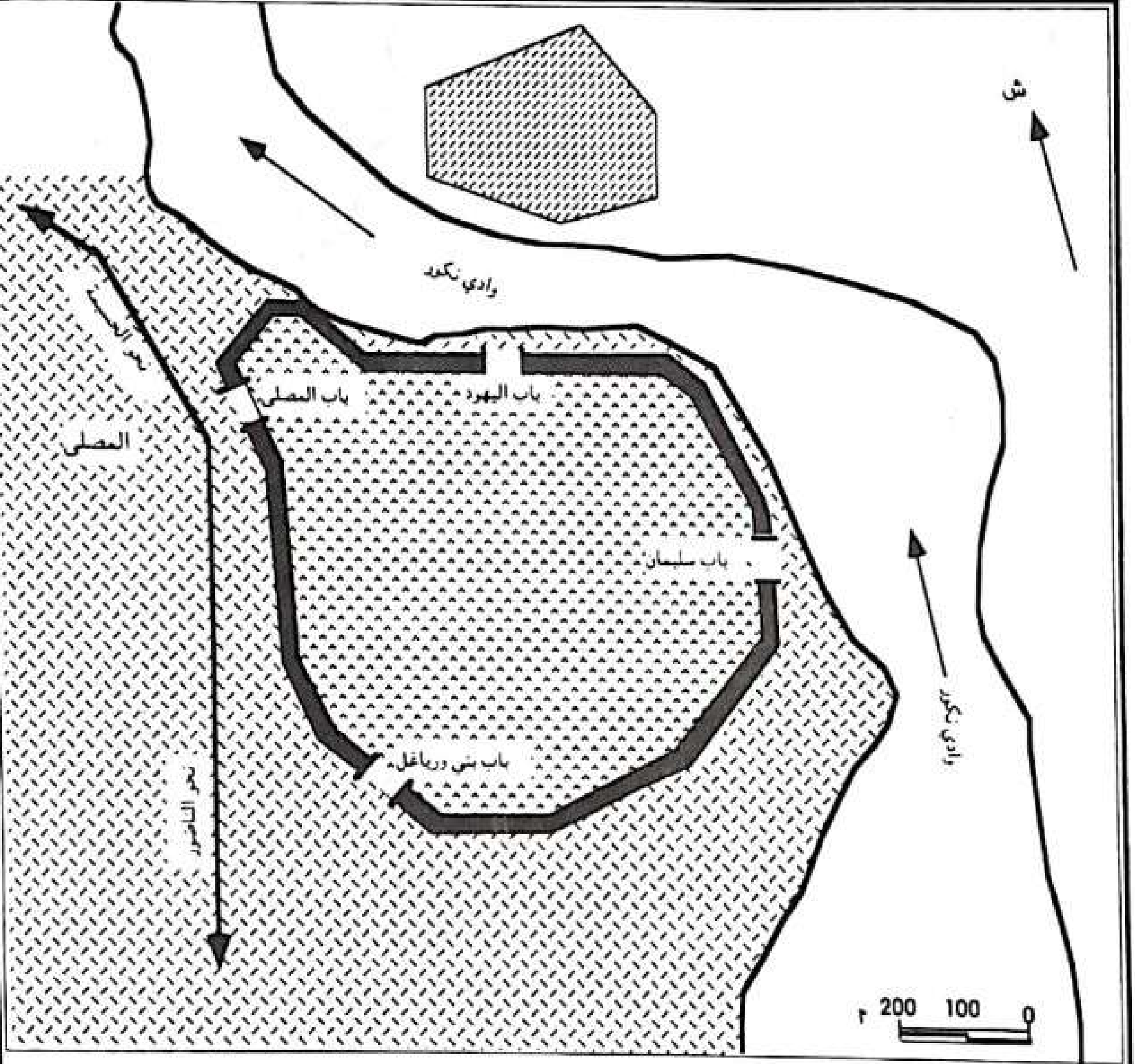
المواقع الأثرية بتمسامان وحوض نكور



إنجاز: د -أحمد الطاهري -

رسم رقم : 8

حاضرة نكور : الموقع الأثري (رسم تقريبي)



النواة الأولى للمدينة (السوق القديم - أزرو أن تسريت)

حاضرة نكور : المدينة المسورة

المدار الحضري إلى منتصف القرن الثالث الهجري (أرباض العامة)

أسوار الحاضرة من بناء الأمير إسماعيل بن عبد الملك (320 - 323 هجرية)

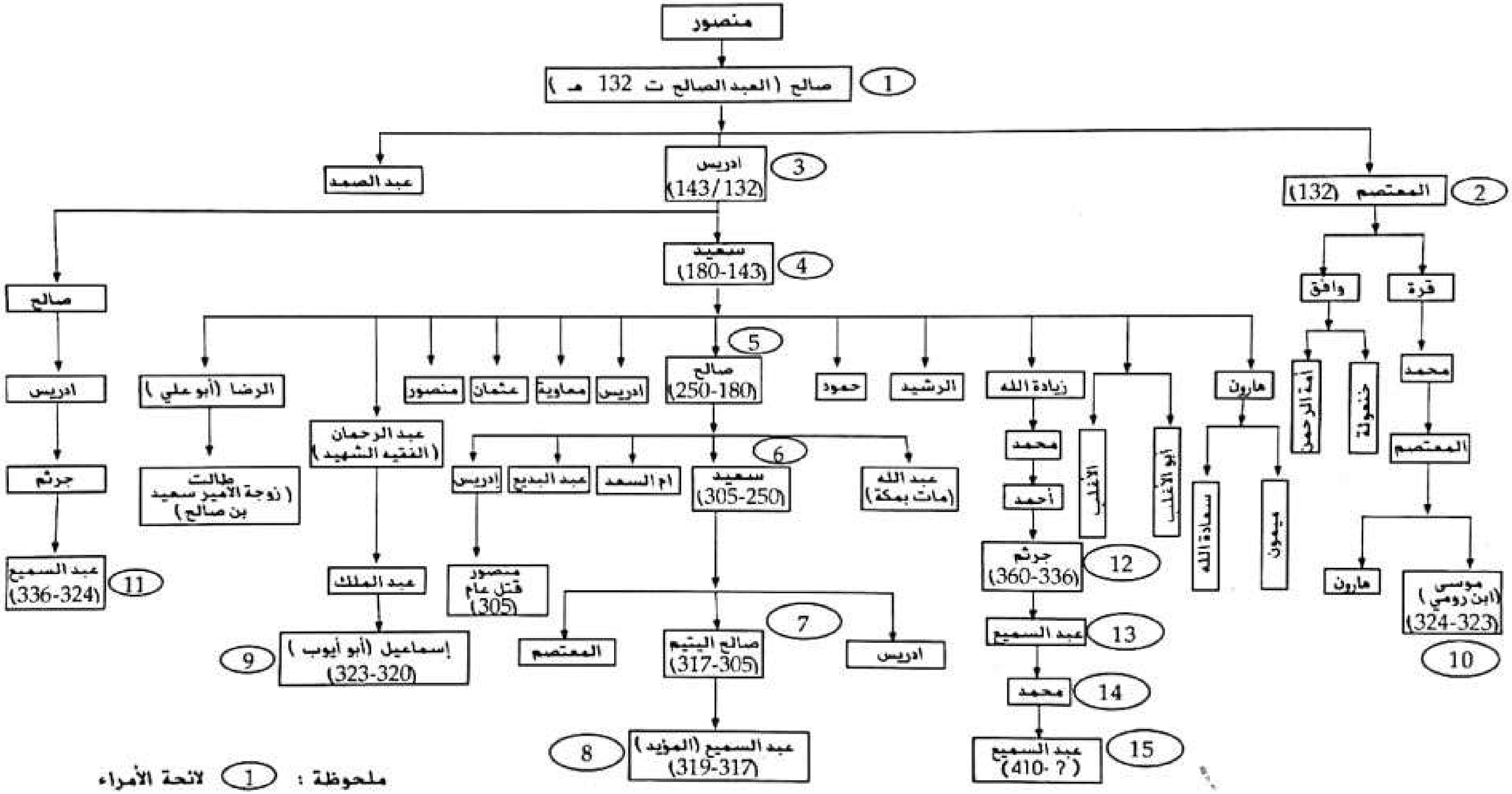
* الإطار مأخود عن : Patrice Cressler , Prospection , fig .21

* المحتوى من خلال المصادر العربية المعتمدة

إنجاز : د -أحمد الطاهري -

رسم رقم : 9

شجرة أنساب آل صالح



ملحوظة : (1) لائحة الأمراء

إنجاز : د -أحمد الطاهري -

الفهرس